

الجيل الربَّاني

مُصطَفى زَهرَان





KOTOPIA PUBLISHING HOUSE
كتوبيا للنشر والتوزيع

دراسة

الجيل الرباني
تأليف مصطفى زهران

تحويل وتنسيق
د/ حازم مسعود
للمزيد من كتبي على
https://t.me/hazem_massaod_kindle_books

تنويه

إن إذا درَسنا أفْعال الصحابة رضوان ربي عليهم، ومواقِفَهم، وصِفاتِهم،وسجاياهُم، وتضْحِياتِهم، لا نقْصِد من هذه الدِّراسة مجرّد الاطِّلاع، ولكن نقْصِد أن نتأسى بهم، وأن نقْتَدِيَ بهم، وأن نجعلهم مثلاً عُلياً لنا، فلِذلك حينما ندرس تاريخ الصحابة ينبغي أن تبقى هذه الفِكرة ماثِلةً في أذْهاننا، نحن أمام النموذج الرباني الذي رضي الله عنه.

هل الصحابة بشر

يعتقد بعض الناس أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم طراز مختلف من البشر، أو خلق آخر ليست لهم النوازع الإنسانية المزروعة في داخل كل منا، وهذا كلام غير صحيح، فالصحابة بشر كانت لهم أجساد كأجسادنا، ولهم فطرة كفطرتنا، ولهم غرائز كغرائزنا، وكانت لهم احتياجات كاحتياجاتنا، ومع كل هذه الأمور البشرية، والنوازع الإنسانية، إلا أنهم قهروا أنفسهم على أتباع الحق، وإن كان مراً، وعلى السير في طريق الله عز وجل، وإن كان صعباً.

لذلك كانوا أعظم البشر مطلقاً بعد الأنبياء، وكونهم أعظم البشر لا يلغي بشريتهم، ولا يقلل من شأنهم، فهذا يرفع جداً من قيمتهم لأنهم انتصروا على أنفسهم في امتحان عسير ما استطاعت السموات، والأرض، والجبال، أن يدخلن فيه أصلًا.

فتقليدهم ممكن، بل تقليدهم ضروري، لأنهم بشر نجحوا في امتحان وضعه الله عز وجل، وهو أعلم بقدرات البشر، ومع ذلك فأنا لا أدعي أن نكون مثل أبي بكر وعمر رضى الله عنهما، إنما أقول إنما يجب أن نتخذهم قدوات عملية، قدوات صالحة، وإننا نستطيع بإمكانياتنا البشرية، ومنهج الإسلام الواضح أن نسير في نفس الطريق الذي ساروا فيه، ونصل بإذن الله إلى ما وصلوا إليه، هذا لو كانت لدينا عزيمة أن نمشي في الطريق الصحيح فعلًا.

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم إنا نعوذ بك من أن نقول زورا، أو أن نخشى فجورا، أو أن نكون بك ربي من المغرورين، وما قل وكفي خير مما كثر وألهي، أما بعد:

هذا الكتاب في الحقيقة هو محاولة للاقتراب كثيراً من جيل الصحابة، هذا الجيل الراقي الرفيع المستوى الذي لم يتكرر مثله في التاريخ، سواء في السابق لجيل الصحابة، أو في اللاحق له، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لن يأتي جيل مثله إلى يوم القيامة.

وعظمة هذا الجيل، وقيمته تأتي من كونه بأكمله يتصف بصفات معينة، من سلامة العقيدة، وكمال الأخلاق، وأمانة النقل، وصفاء القلب، وقوة العزيمة، وحب الجهاد، جيل بأكمله على هذه الدرجة الراقية من الأخلاق والصفات.

قد يظهر إنسان نابغة في زمان من الأزمان، أو تظهر مجموعة من الأمناء الصادقين الأبرار في جيل من الأجيال، أما أن يكون الجيل بكامله على هذه الصورة من النقاء والبهاء، فهذا هو الغريب حقاً، وهذا هو اللافت للنظر فعلاً في أمر هذا الجيل الرباني الفريد.

فلو ظهر في زمن من الأزمان رجل مثل أبو بكر الصديق مثلًا، فهذا من سعادة هذا الجيل، ومن سعادة هذا الزمن، وكذلك لو ظهر رجل مثل عمر بن الخطاب، أو رجل مثل طلحة بن عبيد الله، أو مثل خالد بن الوليد، أو مثل أبي هريرة، وهكذا لو ظهر رجل واحد فقط من هذا الصنف من الرجال، لأصبح من سعادة هذا الجيل أن ظهر فيهم مثل هذا الإنسان.

لكن أن يظهر كل هؤلاء في زمن واحد هذا هو الأمر العجيب حقاً والفريد حقاً.

وليس الغرض في هذا الكتاب أن نسرد الأقوال والأفعال التي قام بها الصحابة، فهو ليس مجرد سِيَرٍ ذاتية لصحابة النبي صلى الله عليه وسلم، وليس المقصود منه التعرض لكل الأحداث التي مرّ بها الصحابة رضى الله عنهم، ولكن المقصود هو أن نتعلم كيف نقلِّد جيل الصحابة؟

فسبحان الله.. هذا هو الجيل الوحيد الذي تستطيع أن تعرف قيمته في ميزان الله عز وجل؛ لأن هذا لا يتأتى، ولا يمكن معرفته أبداً على وجه اليقين إلا بإخبار من الله عز وجل في القرآن الكريم، أو عن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما عموم البشر بعد هذا الجيل فلا يمكن الجزم أبداً بأن هذا الجيل جيل ثقيل في ميزان الله عز وجل، فمن أين نعرف هذا؟!

من الممكن أن نرجح أن هذا إنسانٌ فاضلٌ، أو أنه يسير على طريق الهدى، لكن لا يمكن الجزم بأنه فعلاً على طريق الله عز وجل؛ لأن التقييم الإلهي للفرد لا يعتمد فقط على ظاهر الأعمال التي نراها نحن بأعيننا، وإنما يعتمد أيضاً على القول، وعلى النيات، وهذا لا يمكن للبشر أن يتيقنوا منه أبداً.

نعم هناك شواهد تشير إلى فضائل الرجال والنساء، ولكن هذا كما ذكرنا لا يمكن أن يكون على وجه اليقين، ومن الممكن أن نرى إنساناً ما، ظاهر الصلاح بينما هو في حقيقته يختلف تماماً، ولا يعلم ذلك إلا الله عز وجل.

وهذا الكتاب الذي بين أيديكم الآن لنقترب في خشوع وغبطة من أولئك الرجال الأبرار، لنستقبل أروع نماذج البشرية الفاضلة، لنرى عن قرب أسمى ما عرفت الدنيا من عظمة ورشد، ولنشهد

كتائب الحق وهي تسير في طريق النور بإيمانها لتهدم أوثان الباطل.
فأقرأ يا أخي هذا الكتاب بعنايةَ، وقف عند كل مشهد من مشاهد سيرهم، وخذ لنفسك ما تشاء من محامدهم بقدر طاقتك، وعايشهم بقلبك وروحك وعقلك.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
"فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ"
مصطفى نصر زهران

الجيل الرباني

في كل يوم يُقلَب المرء صفحات تاريخنا المجيد، ويتدبر كتبنا العظيم، ثم ينظر لواقعنا، ويقارنه بماضينا يتحسر، يتحسر يوم يجد البوْن شاسعًا والفرق عظيمًا، يتحسر يوم يرى تلك الأمة وقد كانت قائدة، وإذا بها قد أصبحت تابعة في ذيل الأمم، ثم يدرك أن السبب هو بُعدنا عمَا كان عليه أسلافنا، ويتساءل المرء متى ينزاح هذا السواد الحالك من الذل والمسكنة متى ينْبري للأمَة أمثال خالد، والزبير، ويزيد، وزياد؟، متى تُحيا في القلوب آل عمران والأنفال وبراءة؟: "وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا" (الإسراء: ٥١).

وحينما نعود إلي الماضي المجيد لنستلهم منه الدروس والعبر في هذا الحاضر العاثر، عوداً لسيرة عائلة من أعظم عائلات التاريخ الإسلامي إنهم آل السكن المجاهدين الأبرار رضى الله عنهم أجمعين، فتعالوا بنا لنتجول في أحداث غزوة أحد لنرى بطولاتهم وتضحياتهم الخالدة.

أدت مخالفة الرماة للأوامر التي تلقوها من الرسول القائد صلى الله عليه وسلم إلي انكسار الجيش الإسلامي؛ وتفكك صفوفه، وفرار المسلمين إلي الجبل في كل جوانبه، ولما انكشف المسلمون عن الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه لم يبق منهم معه إلا نفر يسير، ولم يبق للمسلمين لواء قائم، ولا فئة ثابتة، وأخذت خيل المشركين تجوزهم مقبلة ومدبرة، في جنبات الوادي، وتجمع المشركون لقتل الرسول القائد صلى الله عليه وسلم، هنا في هذه اللحظات الحاسمة في تاريخ الإسلامي يظهر دور آل السكن رضوان ربي عليهم.

فهذا عميد الأسرة السكنية يزيد بن السكن بن رافع الأشهلي الأنصاري - وهو أبوه الصحابية الجليلة خطيبة النساء أسماء بنت يزيد رضى الله عنهما -، أحد فرسان مدرسة النبوة، وأحد الفرسان الصناديد الذين ثبتوا حول الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم العصيب، وكان معه ابنه عامر بن يزيد فهب كل منهما يقاتل قتال الأبطال دون الرسول القائد، حتى حظيا بالشهادة يومئذ فقتلا، وكانا شهيدين، وسُجلا في ديوان الشُهداء يوم أُحد.

وكان البطل المغوار زياد بن السكن قد ذابت نفسه حبًا في الاستشهاد في سبيل الله عز وجل، فلما كانت دائرة علي المسلمين واشتد القتال، وحمي الوطيس، واحمرت الحدق، كان زياد بن السكن رضى الله عنه من أقرب الفرسان إلي أمير الأنبياء الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه، فباع نفسه لله، وتلاشت الدنيا أمام عينه لما رأى الخطر يدنو من الحبيب الكريم صلى الله عليه وسلم، ارتمى علي الموت لا يبالي بأحد خصوصًا عندما سمع صوت الحبيب المصطفي صلى الله عليه وسلم يقول:

من رجل يبيع لنا نفسه؟ وكان الرسول القائد صلى الله عليه وسلم قد أصيب وجهُهُ الشريف، وكسرت رباعيته، وجُرحت شفته، واصيبت وجنته، هنالك وثب إليه فتية من الأنصار كانوا سبعة علي رأسهم زياد بن السكن، فقتلوا قتال الأبطال فيستشهدون دونه بطل بعد آخر، حتى سقطوا جميعًا علي أرض المعركة، هنا تقدم الشاب البطل زياد بن السكن وكان آخرهم، فصامد كالطود الأشم، فقاتل قتال الأبطال يدفع عن رسوله القائد حتى أثخنته الجراح، فوقع علي الأرض لا يقوى علي حراك.

ثم ثاب إلي الحبيب المصطفي صلى الله عليه وسلم فئة من صناديد المسلمين، فقاتلوا عنه حتى أزالوا عنه العدو، فالتفت الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه نحو زياد بن السكن، فإذا به

رمق من حياة، فقال الرسول القائد صلى الله عليه وسلم لأصحابه: ادنُوه مني، فأدنوه، وقد أثبتته الجراحة، فوسده رسول الله صلى الله عليه وسلم علي فخذه، فما لبث رضى الله عنه أن مات وخده علي فخذ رسول الله، والرسول صلى الله عليه وسلم لا يفتر يدعو له.
وما زلنا نتابع سير المعركة في أُحد، وما زلنا نشهد جهاد الأسرة السكنية، وها نحن نشهد جهاد بطل آخر من آل السكن إنه البطل عمارة بن زياد بن السكن رضى الله عنهما، وهو يقاتلُ ويجاهدُ، ويجالد المشركين قرب الرسول القائد صلى الله عليه وسلم، حتى اتخذه الله شهيدًا، وكُتب من الأحياء الذين يُرزقون عند ربهم، ووجد في جسمه أربعة عشر جُرحًا كلها كانت في مقتله تشهد له بالبسالة والإقدام.
وهكذا راح أفراد هذه الأسرة المباركة إلي ربهم، وقد حظوا بالشهادة بعد أن تركوا وراءهم نساءً وبنات ملأ حب الله ورسوله قلوبهن، لا سيما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سالمًا صحيح لم يُصب بسوء في معركة أُحد.
وبعد المعركة الطاحنة وهذه التضحية الفريدة التي ليس لها مثيل في تاريخ أمة من الأمم، جاءت أسماء بنت يزيد رضى الله عنهما وقد أبانت عن طيب عنصرها، وعن يقين إيمانها بالله، وعن إيمان يقينها فقد بلغها نبأ استشهاد أفراد أسرتها جميعًا، وفي مقدمتهم: أبوها، وأخوها عامر ثم عمها زياد وابنه عمارة وغيرهم من بني عبد الأشهل، فخرجت تنظر إلي سلامة الرسول القائد وهو قادم من أحد، ولما رأته سالمًا هتفت قائلةَ: كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله.
يا أيها القارئ الكريم، كم تسكن النفس إلي الأسرة السكنية الأنصارية، التي باعت نفسها لله عز وجل، فربح بيعها، واشترى الله منها هذا بأن لها الجنة، فنال معظمها وسام الشهادة واتخذهم شهداء، وأكرم بمن يتخذه الله شهيدًا.
عبرة:
يا سادة، لا يملك الإنسان أمام هذه المواقف الخالدة التي تقف لها الهام إلا أن يقول: إنها النفوس المؤمنة يوم تجاهد في سبيل الله، لا في سبيل قول، ولا في سبيل نفس، ولا في سبيل وطن، بل في سبيل الله؛ لتحقيق منهج الله في أرض الله في سبيل الله؛ لتنفيذ شرع الله علي عباد الله، ليس لها لنفسها حظ، بل كلها لله الواحد القهار، لا يخافون لومة لائم، وفيما الخوف من لوم الناس، وقد ضمنوا حب وعبودية رب الناس؟ إنما يخشى الناس ولومهم من يستمد حركاته وسكناته ومقاييسه من أهواء الناس، فهو أرضيٌ طينيٌ دونيٌ.
أما من يعود إلي موازين الله ليجعلها فوق كل الموازين فيما يبالي بأهواء البشر وشهواتهم وقيمهم، ولا يبالي بما يقولون، ولا بما يفعلون، ولا بما يدعون، إنها سمة المؤمنين المحبين لله ورسوله، الاطمئنان إلي الله يملأ قلوبهم، فهلا أعددت نفسك لتكون من أمثال هؤلاء؟!
فإن الينبوع واحد، وإن المورد واحد، وإن النهر واحد، ما أخذوا منه أنت تأخذ منه، ثبات علي المبادئ، وصدق مع الباري، وإخلاص في الظاهر والخافي، سماويون لا أرضيون، ولا دونيون، ولا طينيون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

كلنا مؤمنون بحكم الوراثة، فقد ولدنا علي هذا الدين القيم، والحمد لله علي نعمة الإسلام والإيمان، وكثير هم المؤمنون بالتعلم والخطابةَ الذين يستطيعون أن يتمثلوا معنى الإيمان، ويحسنوا التعبير عنه لأنفسهم وللناس، ومن هؤلاء من يصدق فيه معنى الإيمان حتى يتذوق حلاوته، ويجد طعمه، ويستشعر برده علي فؤاده، كما يحس بحرارته ودفئه ونوره وإشراقه، ولكن هذا كله لا يكفي، حتى يقف المرء وجهًا لوجه أمام حقائق الإيمان العمليةَ.
وأوضح هذه الحقائق: ما اتصل بالجهاد والشهادة والموت في سبيل الله، والعزوف عن متع الحياة، إيثارًا لما عند الله، وهكذا كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا نموذج من هؤلاء الأخيار الأبرار.
من المؤمنون رجال أسلموا لله حين ظهر الإسلام، وتعمق في قلوبهم حبُ الله ورسوله، فصدقوا ما عهدوا الله عليه، وجاهدوا في الله حق جهاده حتى انتصر الحق علي الباطل، ومن هؤلاء الرجال العظماء كان الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه.
لقد أبلي طلحة رضى الله عنه بلاءً حسنًا في الإسلام، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بدرًا، وكانت له يوم أُحُد اليد البيضاء، فثبت يومئذ ثبات الجبال الرواسي، فتعالوا بنا لنري هذا المشهد الرائع من التضحية والفداء لهذا الصحابي الجليل.
كانت غزوة أُحُد في أول الأمر للمسلمين، ثم يحدث خطأ من بعض الرماة، فيتركون أماكنهم، فتأتي مجموعة من جيش قريش تحت قيادة خالد بن الوليد من خلف المسلمين، فيحصل خلل واضطراب عام في القوات الإسلامية حتى لم يبق في وقت من الأوقات مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلَا اثنا عشر رجلاً، وقد أدرك جيش المشركين النبي صلى الله عليه وسلم ومعه هؤلاء للأبطال، فماذا فعل أولئك الأبرار المحبون الصادقون للدفاع عن حبيبهم صلى الله عليه وسلم؟!
فلنقرأ ما رواه الإمام النسائي رحمه الله، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما حيث قال: لما كان يوم أُحُد ولَي الناس من أرض المعركة، كان رسول الله صلي الله عله وسلم في ناحية من أرض المعركة في إحدى عشر رجلاً من الأنصار، وكان معهم من المهاجرين طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه فأدركهم المشركون.
فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: من للقوم؟
فقال طلحة: أنا يا رسول الله.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كما أنت يا طلحة أثبت مكانك.
فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم أنت.
فقاتل الأنصاري حتى سقط صريعًا بعد أن أثخنته الجراح.
ثم التفت رسول الله فإذا المشركون من خلفهم، فقال: من للقوم؟
فقال طلحة: أنا يا رسول الله.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كما أنت يا طلحة أثبت مكانك.
فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله.
فقال: نعم أنت.

فقاتل حتى سقط صريعًا.
ولم يزل رسول الله يقول ذلك، ويخرج للمشركين رجل من الأنصار، فيقاتل قتال من قبله حتى سقط أحد عشر رجلاً من الأنصار دفاعًا عن رسول الله، حتى بقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من للقوم؟
فقال طلحة: أنا يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم الآن يا طلحة.
فقاتل طلحة قتال الأبطال حتى سقط تحت ومضات سيفه أحد عشر رجلاً من المشركين، ثم ضربت يده فقطعت أصابعه، فقال: حس - وهي كلمة تعني الألم -، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة، والناس ينظرون إليك، وقد رد الله المشركين عن رسوله.
فقال أبو بكر: كنت أنا وأبو عبيدة بن الجراح بعيدين عن رسول الله، فلما أقبلنا عليه نريد إسعافه قال: أتركاني وانصرفا إلي صاحبكما - يريد طلحة -، فإذا طلحة تنزف دماؤه، وفيه بضع وسبعون ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، وإذا هو قطعت كفه، وسقط في حفرة مغشيًا عليه، فكان الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه يقول بعد ذلك: من سره أن ينظر إلي رجل يمشي علي الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلي طلحة بن عبيد الله، وكان الصديق عندما يذكر يوم أُحُد يقول: ذلك اليوم كله كان يوم طلحة.
عبرة:
يا شباب، في هذا الموقف الجهادي العظيم لطلحة بن عبيد الله رضى الله عنه، وأحدُ عشر رجلاً من الأنصار لم تذكر أسماؤهم، وقد كان هذا الموقف في أخطر مرحلة من مراحل المعركة، وذلك حينما أصيب المسلمون بالذهول لهول المفاجأة بهجوم خيول قريش من خلفهم، وإشاعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، فقرر النبي القائد صلوات ربي وسلامه عليه الانسحاب عن مركز القيادة بمن بقي معه، فتولي طلحةُ ورفاقه حماية الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه حتى تمت عملية الانسحاب بسلامة النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن قدم الأنصار أرواحهم فداءً له، ويعد هذا العمل تضحية خالدة؛ وعملاً نالوا به الشرفين: شرف حماية النبي صلى الله عليه وسلم والإسلام، وشرف الظفر بالشهادة، رضى الله عنهم أجمعين.

العرب قوم مشهورون من قديم الزمان بالشجاعة والبطولة الفائقة، وقد جاء الإسلام فنمى فيهم الشجاعة والبطولة، وغير في نفوسهم القيم والمعاني التي لأجلها يقاتلون ويظهرون الشجاعة، فبعد أن كانوا يقاتلون عصبية للقبيلة أو للأهل، أو للسلب، والمغنم، أو لإظهار الشجاعة والفتوة، أصبحوا يجاهدون ويقاتلون في سبيل العقيدة وحمايتها، والدفاع عنها، ونشر رسالة الإسلام، والقيم الإنسانية العالية، للفوز أولاً وبالذات برضوان الله، ورضاء رسوله صلى الله عليه وسلم، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمجاهدين، فتعالوا لنرى هذا المشهد الخالد لعملاق من عمالقة الجيل الرباني.

استقر المقام بجعفر بن أبي طالب وزوْجُه أسماء بنت عميس رضى الله عنهما وأولادهما في المدينة بعد العودة من الحبشة، وذات يوم عاد جعفر إلي بيته، وقد علت وجهه حمرة شديدة، وازدادت الحيوية في عروقه، وضم أولاده إليه في حنان أبوي كبير، لأنه جاء اليوم الموعود، يوم مؤتة.

فلقد امتلأت نفس جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه روعة بما سمع من أنباء إخوانه المؤمنين الذين خاضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة بدر وأُحُد وغيرهما من المشاهد، وفاضت عيناه بالدمع علي الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقضوْا نحبهم شهداء أبرارًا، وطار فؤاده شوقًا إلي الجنة.

واختير جعفر القائد الثاني للجيش مؤتة، ولأول مرة يعين الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ثلاثة قادة للجيش الغازي في سبيل الله، فمضى الجيش الإسلامي بثلاثة آلاف مقاتل، ومضوا حتى نزلوا أرض معان من بلاد الشام، فبلغ الجيش أن هرقل قد نزل مدينة مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، ومائة ألف من النصارى المستعربين.

رأى جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه في هذه المعركة فرصة العمر، فإما أن يحقق فيها نصرًا كبيرًا لدين الله، علي أعظم جيش علي وجه الأرض، وإمُا أن يظفر باستشهاد عظيم في سبيل الله، كان جعفر يعلم علم اليقين أنها ليست نزهة، ولا حربًا صغيرة، إنما هي حرب لم يخض الإسلام مثلها من قبل، حرب مع جيوش إمبراطورية عريضة تملك من العتاد والأعداد، والخبرة والأموال ما لا قبل للعرب ولا المسلمين به، ومع ذلك طار قلبه شوقًا إليها.

التقى الجمعان في يوم رهيب، وبينما كان من حق جعفر أن تأخذه الرهبة عندما بصُر بجيش الروم ينتظم في مئتي ألف مقاتل، فإنه علي العكس، أخذته نشْوة عارمة إذ أحس في أنفة المؤمن العزيز، واعتداد البطل المقتدر، أنه سيقاتل أكْفاء له، وأندادًا له، وما كادت الراية توشك علي السقوط من يمين زيد بن حارثة رضى الله عنه حتى تلقاها جعفر باليمين، ومضى يقاتل بها في إقدام خارق، إقدام رجل لا يبحث عن النصر، بل يبحث عن الشهادة فقط، وكان رجلاً فيه كبرياء الإيمان، واعتزاز أهل اليقين بما وهبوا من سمو الشرف، فلما قاتل سمع منه يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

فقاتل رضى الله عنه الروم باحتقار الوثنية والمظالم، فتكاثر عليه وحوله مقاتلة الروم، ورأى فرسُه تعوق حركته فاقتحم عنها فنزل، وراح يصوب سيفه ويُسدده إلي نحور أعدائه، كنقمة القدر، ولمح

واحدًا من الأعداء يقترب من فرسه، ليعْلو ظهرها، فعز عليه أن يمتطي صهوتها هذا الكفر، فبسط نحوها سيفه وعقرها، وانطلق وسط الروم المتكالبة عليه يُدمْدمُ كالإعصار صفوفهم.
فأدرك مقاتلو الروم مقدرة هذا الرجل الذي يقاتل، وكأنه جيش جرار، وأحاطوا به في إصرار مجنون علي قتله، وحوصر بهم حصارًا لا منفذ فيه لنجاة، وضربوا بالسيف يمينه، وقبل أن تسقط الراية منه علي الأرض تلقاها بشماله، وضربوها هي الأخرى، فاحتضن الراية بعضديه، في هذه اللحظة بذات تركزت كل مسئوليته في ألا يدع راية رسول الله صلى الله عليه وسلم تلامس التراب وهو حيَ.
وحين تكومت جثته الطاهرة، كانت سارية الراية مغروسة بين عضُدي جثمانه، ونادت خفقاتها عبد الله بن رواحة رضى الله عنه فشق الصفوف، كالسهم نحوها، وأخذها في قوة، ومضى بها إلي مصير عظيم.
وهكذا أيها القاري الكريم صنع جعفر لنفسه موته من أعظم موتات البشر، وهكذا لقي ربه الكبير الُمتعال، مضمخًا بفدائيته، مدثرًا ببطولته.
عبرة:
يا أيها القارئ الكريم، لقد أظهر جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه شجاعة فائقة حينما عقر فرسه تحديًا للأعداء، وإيذانًا بالثبات أمامهم مهما تكن الظروف والأحوال، وفي شدْوه بالجنة، ونعيمها في شعره، دليل علي تمثل مشاهد الحياة الآخرة في أذهان ذلكم الجيل الرباني، وكونَه ربط ذلك بتهديد الكفار عن اللقاء بالتصميم علي القتال شاهد علي أثر الإيمان بالآخرة في سلوك هؤلاء الصحابة رضى الله عنهم في السلم والحرب، فإن الذي يندفع إلي إزهاق نفسه من أجل الظفر بنعيم الجنة سيدفع ما هو أهًون من ذلك من أجلها.
فأي قوة كان يتمتع بها هذا الصحابي الجليل، وما هذا الصبر الحديدي الذي تغلب به علي آلام أكثر من تسعين جرحًا في جسده قبل أن يخر صريعًا، كم قال عنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، وإذا كانت هذه السهام هي التي أصابته فكم هي السهام التي اتقاها أو طاشت عنه؟! ولا شك أنه مثلٌ رائع لعظماء الرجال، وإنه بصبره العظيم قد جعل من نفسه قدوة عالية لأفراد جيشه.
وإنني لأعجب من جعفر وقوة احتماله، ومقدرته علي خوض مثل هذه المعركة العنيفة مع أنه قضى أكثر من عشرة أعوام في الحبشة في حياة هادئة، وقبل ذلك عاش في مكة، ولم يكن فيها قتال، ثم يتحمل تسعين إصابة قبل أن يخر صريعًا مع جهد القتال.

إن المؤمن لو علم أن الله عز وجل غفر له ذنبًا واحدًا لكان جديرًا به أن يطير فرحًا بتلك المغفرة، ولو علم أن الله جل علا تقبَل منه عملاً واحدًا لكان جديرًا به أن يطير فرحًا بنعمة القبول، ولذا كان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما دائمًا يقول: والله لو أعلم أن الله جل وعلا تقبَل مني سجدة واحدة لكنت من أسعد الناس، فقالوا له: ولماذا يا ابن عمر؟ فقال: لأنه لو تقبَلها مني لعلمت أني من المتقين، أما سمعتم قول رب العزة سبحانه: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} (المائدة: ٢٦).

فما ظنك أيها القارئ الكريم بمن يعلم من الحبيب المصطفي صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة، وهو ما زال حيًا يجاهد علي أرض الشرف والبطولة؟!

إنني والله أجد قلمي عاجزًا عن وصف هذا الشعور وتلك السعادة التي يشعر بها من علم أنه من أهل الجنة، وها نحن نعيش سويًا في هذه السطور مع هذا المشهد المهيب في غزوة بدر لزفاف الصحابي الجليل عمير بن الحمام رضى الله عنه إلي جنة الرحمن التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر علي قلب بشر.

لما علم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بتحرك جموع المشركين نحو بدر، فنادي منادي رسول الله يا خيل الله اركبي، رأى المنافقون ومن قلبه مرض قلة حزب الله، وكثرة أعدائه، وظنوا أن الغلبة إنما هي بالكثرة، وقالوا: {غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ} (الأنفال: ٤٩).

فأخبر سبحانه أن النصر بالتوكل عليه لا بالكثرة، ولا بالعدد والله عزيز لا يغالب، حكيم ينصر من يستحق النصر، وإن كان ضعيفًا، فعزته وحكمته أوجبت نصر الفئة المتوكلة عليه.

وحينئذ قام الرسول القائد صلى الله عليه وسلم في الناس، فوعظهم، وذكرهم بما لهم من الصبر والثبات من النصر، والظفر العاجل، فقال صلى الله عليه وسلم: إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضرًا فليركب معنا، فجعل رجال يستأذنونه في ظهرانهم في علو المدينة، فقال: لا إلا من كان ظهره حاضرًا.

فانطلق الرسول القائد صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلي بدر، ولما جاء المشركون، هال الرسول القائد صلى الله عليه وسلم كثرة المشركين، وقلة المسلمين، استقبل القبلة، ورفع يديه إلي السماء داعيًا:

اللهم، هذه قريش، قد أتت بخيلائها، تكذب رسولك، اللهم نصرك الذي وعدتني، اللهم أن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد.

وما برح عليه الصلاة والسلام مادًا يديه، حتى سقط رداؤه عن كتفيه، فجعل الصديق أبو بكر يرده علي منكبيه ويقول: يا نبي الله، بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك وعدك.

واستمر الرسول القائد في مناجاة ربه، حتى خفق خفقة كأنه يخرج من نعاس، فصرخ في الناس: والذي نفسي بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل في سبيل الله صابرًا محتسبًا، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة.

ثم أصدر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم أمرًا قتاليًا بالاشتباك.

ثم قال: يا قوم قوموا إلي جنة عرضها السموات والأرض. فقال عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم يا عمير عرضها السموات والأرض. قال عُمير: بخ بخ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يحملك

علي قولك بخ بخ؟ قال: لا، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك من أهلها يا عمير.
وكان رضى الله عنه بيده تمرات يقتات بها، فقال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياةٌ طويلة، فيقذفها وهو يصرخ: بخ بخ، أما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم رمى بنفسه في أتون المعركة بين الجموع، وما زال يثخن الكافرين بالجراح، ويثخنون به الجراح، حتى تمكنوا منه فأردوه شهيدًا، وكان رضى الله عنه أول شهداء الأنصار في الإسلام.
عبرة:
يا شباب، إنها لحياة طويلة، إنني والله أُهدى تلك الكلمات الخالدة التي قالها الصحابي الجليل عمير بن الحمام إلي كل مسلم حريص علي الدنيا وزينتها الفانية، إن عمير رضى الله عنه اعتبر أن بقاءه في تلك الحياة حتى يأكل بعض التمرات حياة طويلة، فكيف بمن يريد أن يجمع الدنيا بأسرها من الحلال أو الحرام ظنًا منه أنه سيخلَد فيها، فلعينا إذًا يا أخوة أن نغتنم كل لحظة في طاعة الله قبل أن نندم حيث لا ينفع الندم، ولا تجدى الحسرة.
إن العبرة إذًا ليست بكثرة الأعمال، وإنما بإخلاص العمل لله، فقد يعمل الرجل أعمالاً عظيمة بغير إخلاص فيجعلها الله هباءً منثورًا، وقد يعمل الإنسان عملاً واحدًا صغيرًا في عين البشر كبيرًا عند رب البشر جل وعلا فيكون الثمن هو الجنة كما حدث في قصة بطلنا عمير بن الحمام.
يا شباب، في هذا الموقف نجد مثلاً عاليًا من قوة ارتباط النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضى الله عنه بالجنة، فالرسول الله صلى الله عليه وسلم يعد الشهداء بالجنة، والمؤمنون يتسابقون إلي الشهادة حرصًا علي الظفر بالجنة، وهنا نجد عمير بن الحمام رضى الله عنه يبلغ به حرصه علي الجنة إلي إن يرمي التمرات من يده، وأن يرى أن وقت أكلها وقت طويل، لأنه يفصل بينه وبين الجنة، وإن كان ذلك الوقت في عرف البشر قصيرًا.
يا شباب، لقد كان الشعور القوي بالحياة الآخرة متمثلاً في حياة الصحابة رضى الله عنهم، فكانت قلوبهم عامرة بالخوف من النار؛ والشوق إلي الجنة، وكان تردد خواطرهم بين مقامي الخوف والرجاء حافزًا قويًا علي تقوى الله تعالي والزهد في الحياة الدنيا؛ والتسابق في ميادين الجهاد في سبيل الله تعالي.

من هذا الفارس الذي شق بسيفه صفوف المشركين دفاعاً؛ وحبٌ للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وكان هذا الفارس أول من امْتشق حسامًا في الإسلام، من هذا الفدائي الذي ما عرف تاريخ الفداء فتى أشجع منه شجاعة، ولا أجل تضحية، ولا أنْبل غاية منه، ولا أكثر بركة علي الإسلام منه، نعم إنه حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام رضى الله عنه.
لقد كان الزبير بن العوام رضى الله عنه منذ صغره فارسًا مغواراً لا يخشى الردى أينما كان، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم قط، فقد كان يحب النبي صلى الله عليه وسلم حبًا ملك عليه قلبه، وجوارحه؛ فكان يخشى عليه من نسيم الهواء، بل من أدنى من ذلك.
فارجع معي أيها القارئ الكريم، إلي السنوات الأولي من الدعوة الإسلامية، وانتقل بروحك وقلبك معي إلي أم القرى مكة المكرمة، هناك في شوارعها يرى الناس غلامًا صغيرًا يمد الخطى شاهرًا سيفه، وهو يمضى كالإعصار المدمر، والشرر يقدح من عينيه كأنه شبل ليث مفترس، فلقد سرت بين الناس في مكة إشاعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل.
فيتعجب الناس من أمر هذا الفتى الصغير ابن ثلاثة عشر عاماً وهو شاهراً سيفه أمامه كأنه كتيبة كاملة من المقاتلين الأشداء، فيصيح الناس في دهشة: الغلام معه السيف.
وبينما كان هذا الغلام يمد خطاه في شوارع مكة المكرمة إذ برسول الكريم صلى الله عليه وسلم يراه في هذه الهيأة العجيبة، فيسأله بعجب: مالك يا زبير؟! فيرتشف هذا الفتى الكمي الصغير من أنفاسه ما ينعش به روحه لرؤية حبيبه ويقول:
سمعت يا رسول الله أنك أخذت؛ وقتلت.
فينظر رسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حنان إلي عينيه الصغيرتين ويقول له: فماذا كنت صانعًا يا زبير.
فيقول الزبير بن العوام رضى الله عنه بكل حزم وقوة: جئت لأضرب بسيفي عنق من أخذك يا رسول الله!!
عبرة:
يا شباب، هذا الموقف مثال للشجاعة والتضحية بالنفس، فحينما سمع الزبير صوتًا يفيد بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أُخذ، حمل سيفه، وخرج يبحث عنه لينقذه ويحميه، وقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم ولسيفه علي هذه التضحية النبيلة، وما أبلغه من جزاء، وما أنفسه من مكافأة، ولقد ظل الزبير بن العوام رضى الله عنه حياته كلها مثالاً عاليًا للشجاعة والمغامرات الجريئة في سبيل خدمة هذا الدين.
يا أخوة، أن الذي آمن مع النبي صلى الله عليه وسلم في أشدِّ حالات الضعف والعسرة والضيق، والناس كلهم أعداؤه، وقريش تكيد له، فهذا من ذوي البذل والتضحية، أما الذي يسلم بعد الفَتح فالقضِيّة سهلة، لأن هذا جاء للمغانم فقط، لكن البطولة أن تؤمن بالحق وهو ضعيف، والله عز وجل قادر أن يجعل الأنبياء ملوكًا، فإذا دعوا إليه انصاع الناس إليهم جميعًا خوفًا لا إيمانًا.
يا شباب، من للإسلام الآن يا رجال، والدين تنتهك حرماته، وتستباح مقدساته، أين شباب الإسلام اليوم؟ أين غيرتنا، وأين رجولتنا، وقد اجتمعت كل قوى الأرض لمحو معالم الدين، وإذلال أهله؟!

كانت موقعة أحُد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، ومحن فيه المنافقين، وكان يوم فياضة بالعظات الغوالي، والدروس القيمة، ولقد كان امتحانًا ثقيل الوطأة محَض السرائر، ومزق النقاب عن مخبوئها عن المنافقين، ممن كان يظهر الإيمان بلسانه، وهو مستخف بالكفر في قلبهُ، فامتاز أهل النفاق عن أهل الإيمان، بل تميزت مراتب الإيمان نفسه، فعرف الذين ركلوا الدنيا بنعالهم؛ فلم يعرجوا علي مطمع من مطامعها، والذين مالوا إليها بعض الميل؛ فنشأ عن أطماعهم التافهة ما ينشأ عن الشرر المستصغر من حرائق مروعة.
ففي هذا اليوم لما عصى الرماة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم انكشف المسلمون، وأجهز عليهم المشركون، فأصابوا منهم من أصابوا، وكان يوم أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته، وحينما هزم المسلمون، وتفرق الرجال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وقد طفِق صائح المشركين ينادي: دُلوني على محمد، كان أبو عُبيدة بن الجراح رضى الله عنه أحد النفر العَشرة الذين أحاطوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليذودوا عنه بِصدورِهم من رِماح المشرِكين، وقد نال الرسول القائد صلى الله عليه وسلم يومئذ أذىً شديدٌ، وكسرت رباعية النبي صلى الله عليه وسلم، وشُجَ في وجهه، فجعل الدمُ يسيل علي وجهه، وجعل يمسح الدم ويقول: كيف يفلح قومٌ خضبَوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلي ربهم.
وكانت هذه أحرج ساعة بالنسبة في حياة الرسول القائد صلى الله عليه وسلم، وفرصة ذهبية بالنسبة إلي المشركين، ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة، فقد ركزوا حملتهم علي النبي صلى الله عليه وسلم وطمعوا في القضاء عليه.
فقد رماه عتبة بن أبي وقاص - وهو أخو الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص - بالحجارة فوقع لشقَه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكلمت شفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري، فشجه في جبهته، وجاء عبد الله بن قمئة فضرب علي عاتقه بالسيف ضربة عنيفة، شكا لأجلها أكثر من شهر، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين، ثم ضرب علي وجنته صلى الله عليه وسلم ضربة أخرى عنيفة كالأولى، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وقال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم له: وهو يمسح الدم عن وجهه: أقمأك الله.
فلما انتهَت المعركة كان الرسول القائد صلى الله عليه وسلم قد كسِرَت رباعِيَّته، وشجّ جبينه، وغارت في وجنَتِه حلقتان من حلق دِرعِه، كما ذكرنا، فأقبل عليه الصديق رضى الله عنه يريد انتَزاعهما من وَجنَتَيه صلى الله عليه وسلم، فقال له أبو عبيدة: أُقسم عليك يا أبو بكر أن تترك ذلك لي، فَتركه، فخشِي أبو عبيدة إن اِقتلعهما بِيدِه أن يُؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فعض على أولاهما بثنيته عضاً قوِياً محكماً فاستخرجها، ووقعت ثنيته، ثم عض على الأخرى بثنيته الثانِية فاقَتلعها، فسقطت ثنيته الثانية، قال أبو بكرٍ: كان أبو عبيدة من أحسن الناس هتماً، - الأهتم الذي كسِرت أسنانه الأمامية -.
لقد كان في قلوبهم حبٌّ عظيمًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.
عبرة:
يا أيها القارئ الكريم، لنتأمل في وقع الموت علي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم من حوله يحمونه بأجسادهم من نبال المشركين وضرباتهم، يتساقطون الواحد منهم إثر الآخر تحت

وابل السهام، وهم في نشوة عارمة، وحرص حريص علي حفظ حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يبالون بغير ذلك، فما هو مصدر هذه التضحية العجيبة؟!

إنه الإيمان بالله ورسوله أولاً، ثمَ محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيًا، فهما معًا سبب هذه التضحية الرائعة العجيبة، والمسلم يحتاج إليهما معًا، لا يكفيه أن يدعي الإيمان بما ينبغي الإيمان به من أمور العقيدة، حتى يمتلئ قلبه بمحبة الله ورسوله أيضًا، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين.

فانظر رحمك الله كيف بلغ الحب بأبي عبيدة رضى الله عنه لا ينزع حلقتي المغفر بيده لئلا يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ينزعهما بفمه حتى سقطت ثنيتاه.

لا شك في أن حبَ النبي صلى الله عليه وسلم من الإيمان، والإيمان يزيدٌ وينقص، وكلما ازداد إيمان العبد ازداد حبّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذا كان الصحابة رضوان ربي عليهم أبر الأمة قلوبًا، وهم أوفر الناس نصيبًا من هذه المحبة، فكانت محبتهم له صلى الله عليه وسلم أكثر من محبة الآباء، والأبناء، والزوجات، والأموال، بل ورب الكعبة من الروح والنفس، وفدوه صلى الله عليه وسلم دائمًا بآبائهم وأبنائهم وبأنفسهم.
وهذا نموذج فريد لحب الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم، هذا الرجل نائم مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة، ولم يخف رضى الله عنه الموت في سبيل الله ورسوله، فتعالوا بنا لنرى هذا الموقف الذي سوف يظل في الأذهان إلي أبد الدهر.
لعلَ من المواقف الجديرة بالعناية والتدبر لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه في ليلة الهجرة، فقد أقام بمكة ثلاث ليال، دون الليلة التي بات فيها بفراش الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى أدى عن النبي صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للقريش، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الكريم صلى الله عليه وسلم.
وللمرء أن يتصور مدى الخطورة التي عاش فيها علي بن أبي طالب رضى الله عنه رغم صغر سنه امتثالاً للأمر النبي صلى الله عليه وسلم، ومسارعة إلي بذل النفس في سبيل نصرة هذا الدين العظيم، ويا لها من شجاعة، وتضحية وفداء يندر أن يرى من البشر ممن هم في أضعاف سنه**!**
وعن هذا الموقف الجليل يروى لنا عبد الله بن العباس رضى الله عنهما فقد قال: شري عليٌ نفسه، فقد لبس ثوب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم نام مكانه، والشري يكون بيعًا واشتراءً، فعلي بن أبي طالب هنا اشترى الجنة، وباع نفسه في سبيل الوصول إلي هذه الأمنية العظيمة، كما قال رب العزة سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}(سورة البقرة: ٢٠٧).
فهذا الموقف الجليل من علي بن أبي طالب رضى الله عنه يدل علي مدى شجاعته، فهو يعلم أن الكفار يترصدونه، حتى إذا خرج قتلوه، ومع ذلك فلم يضعف قلبه، أو تهن نفسه أمام هذا الخطر المحدق به، بل يبيت في فراش النبي صلى الله عليه وسلم في ثبات ويقين، يتحدى به أعظم المؤامرات التي أعدها المشركون للنيل من رسول الرحمة صلى الله عليه وسلم.
ولنا أن نحيا في هذا الموقف العصيب أهل الشرك يتطلعون، فيرون عليًا علي الفراش، وقد استتر ببردة الرسول صلى الله عليه وسلم فيظنون أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا زال في فراشه نائمًا، عليه بردته، فكانت الهجرة المبارك بسبب هذا الموقف العظيم.
وفي الصباح عندما هم القوم بالقتل، دخلوا الدار فوجدوا النائم ابن عم رسول الله علي بن أبي طالب فاغتاظوا غيظًا شديدًا، وباء كيدهم بالفشل الذريع.
من يتحمل هذا العبء من التفكير في القتل علي أيدي هؤلاء المشركين؟ إن عليًا رضى الله عنه في موقف الهجرة سجل أروع صور التضحية والفداء، وسطر أروع الصفحات في الشجاعة والعطاء فرضي الله عن علي بن أبي طالب.
عبرة:

يا شباب، في بقاء علي بن أبي طالب رضى الله عنه وحده في مكة ثلاثة أيام بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد هاجر قبل ذلك المسلمون، ولم يبق في مكة إلا مفتون أو محبوس، هذا دليل علي شجاعته وجسارته حيث كان معرَضًا لنقمة زعماء قريش منه، ثم في سفره بعد ذلك وحده إلي المدينة.

لقد كان علي بن أبي طالب رضى الله عنه سعيد بهذه المهمة الخطيرة المحفوفة بالمخاطر، لما لا ليس علي بن أبي طالب بذلك يتحدى زعماء قريش بهذه المهمة، فما الذي يحمل علي بن أبي طالب علي القبول بهذه المهمة الشاقة الخطيرة التي بلا أدنى شك ستنتهي إلي قتاله لا محالة.

إنه الإيمان القوي بالله عز وجل، وحب يفوق الخيال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا جزء من تدبير الله تعالي لرسوله صلى الله عليه وسلم، حيث علم أن قيام علي بن أبي طالب بذلك الدور لن يؤدي إلي قتله، ومع الثقة والطمأنينة التي حصلت لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه بوعد النبي صلى الله عليه وسلم فإن بياته في ذلك المكان الخطير الذي كان هدفًا لعدد كبير من المشركين قد تجمعوا وراء الباب يعد شجاعة فذة، وجسارة عظيمة، ولعل هذه أول تجربة كبيرة لقوة قلبه، ورباطة جأشه، وقد سجل له التاريخ هذا الموقف بماء الذهب.

يا أيها الأخوة الكرام، لِيسأل كل واحدٍ منا نفسه هذا السؤال، في حياتي كلها ماذا فعلت للإسلام؟ ما الموقف الذي فعلته، وترك في نفسي أثراً؟ فالإنسان حينما يحيا حياة رتيبة ليس فيها بطولة، ليس فيها عطاء، ليس فيها مؤاثرة، هذه الحياة لا قيمة لها، وكما تعلمون أن أتفه عمر للإنسان هو عمره الزمني، وقيمة العمر بأعماله الصالحة، والغنى الحقيقي هو غنى الأعمال الصالحة.

ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين عاماً ينشد الخير لقريش وللناس جميعاً، ويحاول بكل وسيلة أن يوجههم إليه ويرغبهم فيه، بيد أنهم عموا وصموا، وقاطعوه، وأخرجوه، وحاربوه، وألَبُوا عليه، وظلوا علي باطلهم يتربصون الدوائر، ويتحينون الفرص لإبادة المسلمين.
فلما أظهره الله عز وجل عليهم، وأمكنه من رقابهم عفا عن كل ما سلف من مساءاتهم وعداواتهم، وكافأهم بالصفح الجميل، والعفو الشامل، فكان هذا العفو فتحًا آخر، فتح الله عز وجل به إغلاق القلوب المنكرة، وطوي به عنان النفوس المستكبرة، فغدت تفيضُ بالحب وبالإخلاص، وتدين بالطاعة والولاء وتنضوي تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من بين هؤلاء الصحابي الجليل عكرمة بن أبي جهل رضى الله عنه.
فمنذ إسلام عكرمة رضى الله عنه والانضمام إلي موكب الدعوة المحمدية، كان فارساً باسلاً في ساحات الفداء، عابدًا قوَامًا قارئًا لكتاب الله في المساجد، فقد كان يضع المصحف علي وجهه ويقول: كتاب ربي.. كلام ربي.. وهو يبكي من خشية الله.
ولقد بَر عكرمة رضى الله عنه بما قطعه للرسول صلى الله عليه وسلم من عهد فما خاض المسلمون معركة بعد إسلامه إلا وخاضها معهم، ولا خرجُوا في بعث إلا كان في طليعتهم.
وكان لعكرمة رضى الله عنه أثر عظيم في قتال أهل الردة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث كان أحد قادة الجيوش في حروب الردة، وقد أرسله خليفة رسول الله الصديق رضى الله عنه إلي أهل عمان حين ارتدوا فظفر بهم، ثم سار إلي اليمن فجاهد فيها وانتصر، ولما انتهت سلسلة حروب الردة بنصر حاسم علي مرتدين بني حنيفة في سهل عقرباء الطاحنة - اليمامة -.
اتجه عكرمة رضى الله عنه مع غيره من المجاهدين إلي حركة الفتوحات علي جبهة الشام، وفي يوم اليرموك أقبل عكرمة علي القتال إقبال الظامئ علي الماء البارد في اليوم القائظ - أي شديد الحر -، ولما اشتد الكرب علي المسلمين في رابع أيام هذه الموقعة الحاسمة، نزل عكرمة عن جواده، وكسر غمد سيفه، وأوغل في صفوف الروم.
فبادر إليه قائد الجيش خالد بن الوليد رضى الله عنه وقال: لا تفعل ذلك يا عكرمة، فإن قتلتك اليوم سيكون شديدًا علي المسلمين.
فقال عكرمة: إليك عني يا خالد، فلقد كان لك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقة، أما أنا وأبي قد كنا من أشد الناس علي رسول الله، فدعني أكفر عما سلف مني، ثم قال: لقد قاتلت ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواطن كثيرة، وأفر من الروم اليوم؟! إن هذا لن يكون أبدا!!
ثم نادي في المسلمين: من يبايع علي الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور، وعياش بن ابي ربيعة في أربعمائة من أبطال المسلمين، فقاتلوا دون فساط خالد أشد القتال، وذادوا عنه أكرم أذود، وما زال عكرمة يقاتل، ويناضل في تضحية وفداء، حتى سقط شهيدًا مضرجًا بدماء العزة علي أرض المعركة.
فلما أصيب هو ومن معه جاء خالد بن الوليد رضى الله عنه يبحث عنه بين الشهداء، فكان بعكرمة رمق من حياة فطلب شربة ماء، فقال خالد: فسمحت وجه بالماء، وقلت: أسقيك، فأشار ناحية هشام بن العاص، فأتيته فقلت أسقيك: فأشار هشام نحو الحارث بن هاشم، فذهبت إليه فأشار نحو عياش

بن أبي ربيعة، فأتيته وقلت: أسقيك، فأشار نحو عكرمة فرجعت إليه فوجدته فارق الحياة فمررت عليهم جميعاً فكانوا قد ماتوا، وعلمت أنهما أقسموا لا يشربوا إلا في الجنة.
عبرة:
أرأيتم يا أخوة إلى شوقه إلى الاستشهاد، أرأيتم إلى رغبته الجامحة في التكفير عن سيئاته، فإذا كان من أخوانا المؤمنين من له جاهلية ألا ينبغي أن يبذل في الطاعات ضعف الوقت الذي بذله في المعاصي؟ ألا ينبغي أن يعاهد الله على أن يكون قوله وعمله وطاقته في سبيل الله؟ فهذا عكرمة، فلا تيئس من أعداء المسلمين، فقد مات عكرمة بعدما أبلى بلاءً عظيمًا سواء في هذه المعركة أو ما سبقها من المعارك منذ أن دخل في الإسلام رضى الله عنه.
يا سادة، ما كان أجدر أن يقلن شبابنا هذه المواقف التي حفظها لنا الرواة عن الرعيل الأول من المسلمين لتكون حافزًا لهم علي التضحية، والفداء والاستبسال في سبيل الدين والعقيدة، وليس هذا بعجيب من المجاهدين اليوم الذين قام أباؤهم وأجدادهم بهذه التضحيات، والصور الفدائية الخالدة التي قصصنا عليكم أحدها، وسنقصَ عليكم المزيد منها بأذن الله تعالي.

إن نساء الصحابة لم يدعن لرجالهن خلةَ يستأُثرون بها دونهن، ولم يتركن سبيلاً للخير من سبل العظائم، ولا مشرفًا من مشارف المكارم إلا وكن من السابقات إليه حتى جاذبن الرجال حبل البطولة، واصطلين بنيران الحرب، وأبدعن في ساحات الجهاد حين دعت الحاجة لذلك، لما لا فقد كانت آيات القرآن تنزل علي القلوب التي استودعت بذور الإيمان كما ينزل الوابل من السماء علي التربة الخصبة.

وللإيمان قوة ساحرة، إذا استمكنت من شعاب القلب وتغلغلت في أعماقه تكاد تجعل المستحيل ممكنًا، وها نحن علي موعد مع المثل الحي، الذي يُثبت للكون كله أنه لا مستحيل في ظل الإيمان الراسخة، والعقيدة الشامخة، إننا علي موعد مع صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها، لن ينس أحد موقف صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها يوم الخندق هذا الموقفُ العجيب والغريب، فإليك خبرها كما جاء في كتب التاريخ.

كان من عادة النبي صلى الله عليه وسلم إذا عزم على غزوة من الغزوات أن يضع النساء والذراري في الحصون، خشية أن يغدر بالمدينة غادرٌ في غيبة حماتِها، فلما كان يوم الخندق جعل نساءَه وعمّته معهم، وطائفة من نساء المسلمين، في حصنٍ لحسان بن ثابت رضى الله عنه ورِثه عن آبائه، وكان من أكثر حصون المدينة مناعةً، وأبعدها منالاً.

وبينما كان المسلمون يرابطون على حوافِّ الخندق، في مواجهة قريش وأحلافها، وقد شغلوا عن النساء والذراري بمنازلة العدو، أبصرت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها شبحًا يتحرك في عتمة الفجر، فأرهفت له السمع، وأحدَّتْ إليه البصر، فإذا هو يهوديٌّ أقبل على الحصن، وجعل يطوف به، متحسسًا أخباره، متجسسًا على من فيه، فأدركت أنه عينٌ لبني قومه، جاء ليَعلم أفي الحصن رجالٌ يدافعون عمن فيه، أم أنه لا يضم بين جدرانه إلا النساء والأطفال؟

فإذا علم هذا اليهودي المتجسس أن هذا الحصن لا يضم إلا نساءً وأطفالاً، داهموا هذا الحصن، وسبَوا النساء والذراري، فقد نقضوا عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، وانتهى الأمر، وصاروا في صف الأعداء من قريش وأحلافها.

فقالت في نفسها: إن يهود بني قريظة قد نقضوا ما بينهم وما بين رسول الله من عهدٍ، وظاهروا قريشًا وأحلافها على المسلمين، وليس بيننا وبينهم أحدٌ من المسلمين يدفع عنا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه مرابطون علي الثغور لموجهة العدو، فإن استطاع عدو الله، هذا اليهودي أن ينقل إلى قومه حقيقة أمرنا سبَى اليهودُ النساءَ، واسترقوا الذراري، وكانت الطامَّة على المسلمين.

عند ذلك بادرت إلى خمارها، فلفته على رأسها، وعمدت إلى ثيابها فشدَّتها على وسطها، وأخذت عموداً على عاتقها، ونزلت إلى باب الحصن، فشقته في أناةٍ وحذقٍ، وجعلت ترقب من خلاله عدو الله في يقظةٍ وحذر، حتى إذا أيقنت أنه غدا في موقفٍ يمكنها منه، حملت عليه حملة حازمة صارمة، وضربته بالعمود على رأسه، فطرحته أرضًا، ثم عززت الضربة الأولى بثانيةٍ وثالثة، حتى أجهزت عليه، وأخمدت أنفاسه بين جنبيه، وبادرت إليه، فاحتزت رأسه بسكين كانت معها، وقذفت بالرأس من أعلى الحصن، فطفق يتدحرج على سفوحه، حتى استقر بين أيدي اليهود، الذين

كانوا يتربَّصون في أسفله، فلما رأى اليهود رأس صاحبهم، قال بعضهم لبعضٍ: قد علمنا أن محمدًا لم يكن ليترك النساء والأطفال وحدهم، من غير حماةٍ، ثم عادوا أدراجهم.

عبرة:

يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد أجرى الله على يديها رضى الله عنها حفظ نساء المسلمين وسلامتهن بهذه الشجاعة النادرة، رضي الله عن صفية بنت عبد المطلب، فقد كانت مثلاً فذة للمرأة المسلمة، ربت وحيدها فأحكمت تربيته، أصيبت بشقيقها في أحد، فأحسنت الصبر عليه، اختبرها الله في الشدائد، فوجد فيها المرأة الحازمة، العاقلة، الباسلة، إن صفية بنت عبد المطلب، كانت أول امرأةٍ قتلت مشركًا في الإسلام، هذه بطولة، وهذا موقف عظيم للمرأة في الستين من عمرها كانت في أعلى درجات إيمانها، وأعلى درجات محبتها لدين الله، ولرسول الله، وأعلى درجات دفاعها عن هذا الدين العظيم.

يا أيها القارئ الكريم، لقد شاركت صفية رضى الله عنها المجاهدين في أكثر الغزوات خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم تسقي الجند وتداوي المرضى، وتضمد الجراح، وترقب العدو من هنا وهناك، وقد بلغت الستين من عمرها فلم يعقها كبر السن عن تأدية ما رأته واجبًا في حماية الدين ونصرة المسلمين، وقتال المشركين واليهود حيث كانوا، فلم يكن عندها أغلى من دينها الذي هاجرت له، وقدمت أغلى ما تملكه حتى يظهر وتعلو رايته.

لم يكن الجهاد في الإسلام مقصوراً علي الرجال، ولكنه كان فريضة علي الرجال والنساء معاً إذا استدعى الأمر ذلك، وحتمت الضرورة خوضهن المعارك أو وقوفهن خلف من يجاهد؛ فنصرة الإسلام ضرورة تتطلب حشد كل الطاقات في المعارك الحاسمة التي يخوضها الأبطال في عزة وإباء من أجل حفظ الدين وحماية الأنفس وصيانة الأعراض والحرمات، وها نحن هنا يطيب لنا أن نتكلم عن امرأة من نساء الصحابة كان لها في البطولة شأن عظيم؛ فقد أظهرت في الحرب شجاعة نادرة أذهلت قواد الحرب وفرسان القتال، وأضحت فيها مضرب الأمثال، إنها زهرة بستان عائلة الشهداء آل السكن أسماء بنت يزيد بن السكن رضى الله عنهم أجمعين.

كانت أسماء بنت يزيد رضى الله عنهما تحب أن تشارك الرجال في جميع الأعمال التي يثابون عليها غيرة منهم، والغيرة في مثل هذه الأمور محمودة، حتى إنها أرادت أن تشاركهم في أخص خصوصياتهم، وهو القتال والجهاد في سبيل الله عز وجل، لكن الوقت الذي يحتم عليها ذلك طال انتظارها له، حتى جاء يوم اليرموك هذا اليوم الحاسم في تاريخ الصراع بين جنود الحق، وجنود الشيطان، فقد كان لها في هذا اليوم العظيم بلاء حسناً، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع.

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنها، أحبت أسماء بنت يزيد رضى الله عنها أن تتابع رحلة الجهاد في صفوف الفاتحين الذين خرجوا يجاهدون في مشارق الأرض ومغاربها.

ولما كانت السنة الثالثة عشرة للهجرة جمعت الروم جموعها لحرب المسلمين في معركة اليرموك الشهيرة في أرض الشام.

كانت أسماء بنت يزيد ونساء المسلمين يشاركن في هذه المعركة الضارية يحْمين ظهور المقاتلين، ويرددن الفارين من المسلمين، ويقتلن من تسلل من العدو إلي صفوف المسلمين من الخلف، وكانت يومئذ زعيمتهن، تعظهن وتذكرهن بالله، وتحثهن علي القتال، وكانت تعظ الرجال أيضاً، وتذكرهم مغبَة الفرار وسوء المنقلب وضياع الدين والأهل والولد.

بدأت المعركة حامية الوطيس، وقاتل المسلمون يومئذ قتالاً تعجز عنه أسود الفلا، ولما احتدم القتال، واشتجرت الرماحُ، ولمعت بوارق السيوف اشتركت النساءُ من وراء فرسان المسلمين، وكنَ يشجعنهم، ولكن شدة المعركة وضراوتها جعلت بعض رجال المسلمين يتراجعون قليلاً إلي الخلف، فكانت النساء المجاهدات لهؤلاء الفارين بالمرصاد فيضربنهم بالحجارة وبالخشب، كي يعودوا إلي جلاد الروم البيزنطيين.

فقد كانت أسماء رضى الله عنها يومئذ كما ذكرنا تناول السلاح، وتسقي الماء، وتضمد الجراح، وتقاتل مع المقاتلين ببسالة نادرة، وبطولة فذة، ولقد روي المؤرخين أنها قتلت تسعة من الروم بعمود خيمتها في اليرموك.

وها نحن نحضر المعركة يومئذ، وها نحن نترك الكلام للشيخ المؤرخين ابن كثير رحمه الله ينقل لنا صورة حية عن جهاد المؤمنات، ودورهن يوم اليرموك، فيقول: وقد قاتل نساءُ المسلمين في هذا اليوم وقتلوا خلقًا كثيرًا من الروم، وكن يضربن من انهزم من المسلمين ويقلن: أين تذهبون عنا، وتدعوننا للعلوج؟ فإذا زجرنهم لا يملك أحد نفسه حتى يرجع إلي القتال.

وما زالت المعركة مستعرةَ ستة أيام، فما كان من أسماء إلا أن اقتلعت عمود خيمتها، وراحت تضرب به رؤوس الروم حتى قتلت يومئذ تسعة من الروم، ونقلتهم إلي النار وبئس القرار.

عبرة:
هنا يا أيتها الأخوات المؤمنات يتبين لنا: أن قوة الإرادة من قبل النساء في هذه المعركة وفي غيرها من فتوح المسلمين كانت عاملاً هام من عوامل النصر، وحافزًا من حوافز الإقدام والتضحية في ميادين القتال ببسالة وشراسة، وهكذا كانت المرأة في العصور الأولى للإسلام رمز للتضحية والفداء والكفاح، وكانت كل منهما نموذج فريد يحتذي به.
يا أيتها الأخوات الكريمات، إننا نرى في هذه المرأة المسلمة المؤمنة مثلاً رائعًا لكل من تريد أن تكتب نفسها في عداد المجاهدين في سبيل الله؛ لتلحق بهؤلاء اللاتي ضربن بسهم وافر في نصرة دين الله عز وجل، وفي إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وجمعن لأنفسهن بين خيري الدنيا والآخرة، وفزن فوزًا عظيمًا بحب النبي صلى الله عليه وسلم لهن تقديره ولشأنهن، وحب أصحابه الكرام البررة لهن ولأمثالهن ممن حذون حذوهن هنا وهناك.
وإذا كنا نرى في المجتمع كثيرات من النساء قد تمردن علي آداب الإسلام، وتنكرن لتعاليمه السمحة، وألفن حياة اللهو والعبث في حياتنا الدنيا، فإن تاريخنا العظيم يعرض علينا نماذج كثيرة من السيدات المؤمنات اللواتي عرفن طريق الهدى والتقى والحق، ومهدن أمام أبنائهن طرق المكارم والعلا، ووضعن أمام الرجال والأبطال صورًا تبقي علي مر الأجيال والعصور في الصبر والاحتمال.

من صحراء مكة القاحلة إلي ضواحي المدينة الزاهرة، هاجر المسلمين، وهناك عند جبل أُحُد، هناك تحت شمس الصحراء القاحلة عند بدء أُحُد الطاحنة، وقبل أن يلتحم الجيشان وقف رجل ضخم هو أعظم فارس في جيش الكفار يدعى طلحة بن أبي طلحة العبدري، حامل للواء المشركين في أُحُد، والذي كان يُطلق عليه لقب كبش الكتيبة لشدة بأسه وضراوة قتاله.
تقدم هذا الوحش البشري راكبًا علي جمل ضخم حاملاً راية المشركين في يده وهو ينادي في جيش المسلمين: طالبًا رجلاً منهم ليبارزه، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته، ولم يخرج أحد من الجيش الإسلامي، وأعاد طلحة كلامه، عندها برز من بين كثبان الصحراء القاحلة، وأشعة الشمس الملتهبة، هناك من بين جيش الإسلام انبثق من أسنة السيوف اللامعة ورؤوس الرماح الشامخة شابٌ طويل القامة عريض الكتفين مفتول العضلات، يمد الخطى بكل ثقة باتجاه هذا الفارس الشرس الذي يعرف بكبش الكتيبة، وكأنه البرق الخاطف.
فمن هو هذا البطل، إنه الفارس الباسل، والبطل الكمي، والأسد الهصور، حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام رضى الله عنه، فلمَا صار هذا البطل أمام الجمل الضخم، وفوقه واحد من أعظم فرسان العرب، وفي لحظة واحدة قفز الزبير فوق الجمل كالصقر الجارح، وجذب بذراعيه القويتين الجمل، وصاحبه نحو الأرض، وبرك فوق كبش الكتيبة، وأمسك برأسه المخيف فجزها جزًا ليجعل من صاحبها جسداً بلا رأس، عندها نظر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم إلي ابن عمته صفية بكل فخر واعتزاز، ورفع صوته ونادي: الله أكبر، وقال في حقه: إن لكل نبي حواريًا، وحواري الزبير.
عبرة:
يا شباب، هذا الخبر يدل علي شجاعة الزبير بن العوام رضى الله عنه ورباطة جأشه، حيث استطاع الصمود في مواجهة فارس العرب طلحة بن أبي طلحة حتى قتله، إن وجود مثل هذا البطل في الجيش الإسلامي يُفزع الكفار ويملأ قلوبهم رعبًا، ويجعلهم يترددون كثيرًا قبل التفكير في مواجهة المسلمين.
يا أخوة، أحيانا يفتخر الإنسان بآثار خوضه للمعارك، وآثار خوضه للغزوات، كلها تشهد له يوم القيامة، مثل أن أهل المعصية تشهد عليهم جلودهم وأيديهم وأرجلهم، كذلك أهل الإيمان تشهد لهم؟ هناك فرقٌ كبير بين مَنْ تشهد لهم، ومن تشهد عليهم؟ وهذا الموضوع دقيق، فكل إنسان له مقام عند الله بحجم عمله الصالح، فالإنسان يحاسب نفسه حسابًا عسيرًا، فإن حاسب نفسه في الدنيا حسابًا عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً، وإن حاسبها حساباً يسيراً كان حسابه يوم القيامة عسيراً.

الإيمان بالله هو الذي يمدنا بروح القوة، وقوة الروح، فالمؤمن لا يرجو إلا فضل الله، ولا يخشى إلا عذاب الله، ولا يبالى بشيء في جنب الله، إنه قوى وإن لم يكن في يديه سلاح، غنى وإن لم تمج خزائنه بالفضة والذهب، عزيز وإن لم يكن وراءه عشيرة وأتباع، راسخ وإن اضطربت سفينة الحياة، وأحاط بها الموج من كل مكان.

ولكن مع كل هذا فقد علمنا الحق جل وعلا أن نأخذ أيضاً بأسباب القوة المادية التي تتمثل في الرجال الأقوياء الأتقياء الذين يحملون همَ الإسلام، وقبل ذلك كله هم يحملون أكفانهم بين أيديهم ويقدمون أرواحهم ودماءهم من أجل نصرة هذا الدين العظيم.

في ذكرى الشهداء حيث يمجد الملائكة في السماء ضيفهم، ويجدد المؤمنون في الأرض علي الجهاد والتضحيةَ عهودهم، وتقوم الأفراح في جنات الخلد مبتهجة بالذين كتب لهم الخلود في رياضها وأربُاضها، في هذه الذكرى يطيب الحديث في رحلتنا السعيد بين الأخيار عن سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه عم الرسول، وأسد الله ورسوله، وبطل الدعوة المغوار الذي خرَ صريعًا بين جبال أُحُد فكان استشهاده إذكاء النار المتوقدة في قلوب المجاهدين، وسبيلاً إلي قيام صرح الحق، من حيث ظن الظانون أنهم يهدمونه، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد العصيب في غزوة أُحُد.

أخذت قريش أهبتها لغزو العاصمة الإسلامية المدينة المنورة انتقامًا لقتل أشرافها في بدر، وقبل أن يسير المشركون إلي القتال دعا جبير بن مطعم غلامًا له حبشيًا يقال له: وحشي بن حرب يقذف بحربة له قذف قلما يخطئ بها فقال له: اخرج مع الناس: فإن أنت قتلت حمزة عم محمد - صلى الله عليه وسلم - بعمي طعيمة بن عدى فأنت عتيق، وخرجت قريش بحدها وحديدها، وبدأ القتال البئيس في أُحُد بين الفريقين.

وقاتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه قتال الليوث المهتاجة، فقد اندفع إلي قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظير، وأخذ أسد الله يفري فريه بين الأعداء، وينكشف عنه الأبطال كما تتطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء، فبالإضافة إلي مشاركته الفعالة في إبادة حاملي لواء المشركين، فقد فعل الأفاعيل بأبطالهم، فلا يقوم أمامه أحد إلا قتله، وفي اللحظات الأولي قتل من أشرافهم أرطأة بن شرحبيل بن هاشم، وسباع بن عبد العزى، وعثمان بن أبي طلحة - وهذا غير الصحابي الجليل عثمان بن طلحة الذي أسلم في أوائل العام السابع للهجرة مع خالد بن الوليد وعمرو ن العاص رضى الله عنهم -، ثم هاجم علي قريش يفرق صفوفها ويقتل رجالها.

كل ذلك ووحشي كامن خلف ربوة عالية ينظر إلي بلاء حمزة ليتحين منه فرصة غدر، فلقد رآه وحشي كما يقول: يهد بسيفه ثائر الرأس ما يليق شيئًا يمر به، فتقدم إليه سباع بن عبد العزى، وفي لحظة واحدة سقط سباع، ولقد أرهبت تلك الضربة الهائلة التي قضت علي سباع وحشي ومن ثم انكمش خلف الأكمنة ليتحين من حمزة فرصة غدر أخرى خلف صخرة في ميدان القتال، حيث لا يراه أحد.

وجاءت اللحظة الرهيبة، وقد توجه حمزة بسيفه إلي فريق من أعداء الله يفتك بهم، فما استقام أمامه أحد، فكانوا بين قتيل وفار، ورأى وحشي فرصة سانحة، فهز حربته، حتى إذا رضي منها، وحمزة

مشغول بمن أمامه من أعداء الله، قذفها نحوه فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه، ورآه حمزة، فهرول نحوه، ولكن الحربة عاقت دون قتله فخر علي الأرض صريعًا.

عبرة:

في هذا الخبر بيان لشجاعة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه العظيمة، فلقد ذكر وحشي قتله لأحد المبارزين من المشركين بصورة تدل علي قوة حمزة وشجاعته الخارقة، ومقدرته الحربية الفائقة، ومبلغ النكاية التي أوقعها بالكفار في تلك المعركة.

يا أيها القارئ الكريم، إنه ولم يثبت المؤمنون الصادقون لانتهى الإسلام في أُحُد، وانتهى التمكين معه، لكن الجيل الرباني الذي تربى في مكة، والذي بايع في العقبة، قدم حياته رخيصة في سبيل الله، وذودَا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد استشهد مؤسس دولة الإسلام في المدينة مصعب بن عُمير، واستشهد أسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب عمّ الرسول القائد، واستشهد ثلاثة وزراء قياديين من الرعيل الأول من الأنصار هم: سعد بن الربيع، وعبد الله بن حرام، وخيثمة بن الحارث، فهم ربع النقباء الاثني عشر، ولنشهد هذه الأمة كيف واجهت هذا الإعصار، وحالت دون تقدم المشركين خطوة واحدة إلي المدينة، فقد أقاموا حصنًا بشريًا حول الرسول القائد صلى الله عليه وسلم، وسقط أفراد هذا الحصن كلهم شهداء بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يا شباب، مما يجب أن يتعلمه المسلم ويتذكره دائمًا أن الأجل الإنسان لا يطول بالفرار من مواجهة الأعداء، ولا ينقص بالإقدام ومجاهدة الأعداء وهذا هو ما أكدته الآيات فقد قال تعالي: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ}(آل عمران: ١٤٥). وفي هذه الآية ترغيب للمسلمين في القتال وأن يسعى الإنسان للحياة الكريمة ما دام سيموت حتمًا.

من لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد، كان هذا شعارهم، قوّم اختارهم الله ليقودوا السفينة، كانت نفوسهم كبيرة تعبت بمرادها الأجسادُ، اختاروا العيش بحياة كريمة، وإلا فالموتُ لهم سبيل، لقد غامروا لطلب شرف رفيع، وأيقنوا أنَ الموت لابدَ منه فرأوا من العيب أن يموتوا جُبناء، لذلك طلبوا الموت بعزة، وطلبوا المعالي، والمعالي ليست رخيصة، فنتصروا وسطروا تاريخًا عقم الزمان أن يلد مثله، كانوا يقولون للصخرة افسح المجال لنا، فنحن أعمدة الفداء، نحن رجال الخلود من سُؤدد المجد طريقنا، لن نقف قبل تحقيق الُمنى ونبذل الروح دونه.
نسطَر في التاريخ صفحات ساطعات بسيوفنا، نحنُ الأُسود لا نهاب شيئًا، نخوضُ غمار الحرب نريد الموت ثمنًا لديننا، هكذا كان كلامهم، ولم يكن كلامًا فحسب بل كان فعلاً وعملاً سجَله التاريخ وخلده، وها نحن مع أحد هؤلاء العظماء إنه الصحابي البطل أبو عبيد بن مسعود الثقفي فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد المهيب.
ففي الليلة التي سبقت عبور المسلمين للجسر في المعركة الجسر، رأت زوجة الصحابي الجليل أبو عبيد بن مسعود الثقفي رضى الله عنهما، فيما يراه النائم أن رجلاً هبط من السماء ومعه إبريق فيه شراب فسقي منه زوجها وأخاه وأولاده الثلاثة، فلما قصت رؤياها علي أبي عبيد قال لها: بشراك، فقد كتبت لي الشهادة أنا وأخي و أولادي.
ثم وقف في جنده وقال: أيها الناس إن أنا قتلت فأمروا عليكم أخي الحكم، فإن قتل فأمروا ولدي وهبًا، فإن قتل فأمروا أخاه مالكًا، فإن قتل فأمروا أخاه جبرًا، حتى قال سبعة من أهل بيته، فإن قتلوا جميعًا فأمروا المثني بن حارثة الشيباني رضوان الله عليهم.
ثم أمر القوات الإسلامية بعبور الجسر فصدعوا بالأمر، وطفقوا يتدفقون نحو الشاطئ الشرقي من النهر كما يتدفق السيل علي أرض الجرداء، وعبروه فوق جسر نصبوه هناك، ولما التقي الجيشان علي أرض المعركة، فوجي المسلمون بالفيلة التي تتقدم جيش الفرس، وقد ثبت علي ظهورها ورقابها أغصان كثيفة من سعف النخل، وعلقت عليه أجراس كبيرة مجلجلة، فبدأ كل فيل منها كأنه جبل مشجر يمشي علي الأرض، فهابها المسلمون الذين لم يكن لهم عهد بها من قبل، ونفرت خيولهم منها.
فأيقن أبو عبيد بأنه لابد من أن يقضي علي الفيلة حتى يحقق النصر، فنادي: في جنود المسلمون أن أقبلوا علي الفيلة، واقطعوا أحزمتها، واقلبوا الرجال من فوقها واطعنوها في مقاتلها، وها أنا ماض أمامكم، أقبل أبو عبيد علي الفيل الأكبر فقطع حزامه، وأردي الفارس من علي ظهره،
لكن الفيل ضربه بخرطومه ضربة ألقته علي الأرض ثم دس عليه فمات رحمه الله، فأخذ الراية مكانه من بعده أخوه الحكم فخر صريعاً شهيداً، فتلاه ابنه الأكبر فلحق بأبيه وعمه، فتلاه الثاني فلحق بهم أيضًا، فتلاه ابنه الثالث فآل إلي ما آل إليه أبوه وأخواه وعمه، حتى قتل سبع من آل بيت أبو عبيد بن مسعود، حتى أخذ قيادة الجيش المثنى، وانتهت المعركة بهزيمة المسلمون.
عبرة:
يا أيها القارئ الكريم، إن إقدام أبي عبيد وهو القائد للجيش الإسلامي علي هذه المغامرة الخطيرة دليل علي زهده رضى الله عنه في الدنيا، وحرصه علي نيل الشهادة، وهو مطلب عزيز يبعث في روح الجند الحيوية والإقدام، ولكنه في الحقيقة ليس المطلوب الأول من القائد، بل هو مكلف

بالدرجة الأولى بإدارة المعركة حتى يحصل علي أكبر النتائج بأقل التضحيات، ولذلك أحجم عدد من جلة الصحابة رضى الله عنهم عن قبول القيادة لأنهم عزموا علي التعرض للشهادة.
يا شباب، إن إصابة المسلمين إنما تتم بقدر الله تعالي ليتبين المؤمنون علي درجاتهم في الإيمان قوة وضعفًا، بناء علي مقدار صبرهم وثباتهم، وليُقدَم المسلمون شهداء في سبيل الله جل وعلا، حتى يظهر للعالم عظمة هذا الدين الذي من أجله يُقدَم المسلمون هؤلاء الشهداء، وهم لا يدافعون فقط عن أرضهم وأموالهم، وإنما يقاتلون من أجل نشر دعوة الإسلام والدفاع عنه.
فالمعارك الإسلامية إذًا لا خسارة فيها مطلقًا، سواء كان النصر والفتح للمسلمين، أو كانت الهزيمة والإصابة للمؤمنين، لأنه في حال النصر يتم التمكين للمسلمين في الأرض، وتقوى دولتهم مع ما يحصل عليه المجاهدون من الثواب الأخروي، وفي حال الإصابة فإن ما يقدمه المسلمون من التضحية و الشهداء يعطي للأمة الإسلامية دفعات إلي الأمام مع ما يحصل عليه المجاهدون من الأجر الأخروي، سواء استشهدوا أو بقوا علي قيدة الحياة.

الفدائية في الإسلام مخاطرة بالنفس التي هي أعز شيء علي الإنسان في سبيل العقيدة، والغاية الشريفة، والدفاع عن العرض والأوطان، وقد تبارى الأبطال المغاوير من المجاهدين عبر التاريخ في تقديم التضحية بالنفس والمال في ميدان العزة والشرف، فسجل كل منهما حدثاً هاماً في تاريخ الإسلام، ظلت الأجيال جيل بعد جيل تردد هذه التضحية، حتى أصبحت هذه التضحية، كالنجم في كبد السماء الذي يهتدى به الإنسان في ظلمة الليل، فكانت هذه الفدائية هي مهبط الشرف من حياته، ومعقد الفخر من سيرته التي تصاحبه في حياته، وتروى عنه بعد مماته، وهذه قصة أحد هؤلاء المغاوير الأبطال.

كان ميسرة بن مسروق العبسي رضى الله عنه أسداً ضرغاماً قد كبر سنه، ومع ذلك كان قائد سلاح الفرسان يوم معركة فحل بيسان - وهي من المعارك الحاسمة في فتوح الشام -.

فيقول عنه سالم بن ربيعة وكان معه يؤمئذ: حمل ميسرة بن مسروق يؤمئذ علي الروم ونحن معه في الخيل فحملنا علي القلب، وقد أخذ صف الروم ينتفض من قبل ميسرتهم وميمنتهم تحت ضربات ميسرة، ولم ينته إلي الانتفقاض إلي القلب بعد، فثبوا لنا أعظم الثابت، وقاتلونا قتالاً شديدًا.

فسقط ميسرة عن فرسه من شدة القتال، وسقطت معه، وكان ميسرة يعتنق رجلاً من الروم، فاعتركا ساعة فصرعه ميسرة فقتله، ثم شد رجل آخر علي ميسرة فعانقه واعتركا ساعة فصرع الرجل ميسرة وجلس علي صدره، وأشدُ عليه، فضربت وجه الرومي بالسيف فأطرت قحف رأسه ووقع ميتًا.

ووثب بعد ذلك ميسرة، وأقبل رجلٌ من الروم فضربني ضربة أدارني منها، وبصرُ به ميسرة فضربه فقتله، فنظر خالد بن الوليد نحو ميسرة وقال: إنك ما علمت حسنُ البلاء عظيم الغناء.

عبرة:

يا أخوة، إن الإسلام يشد المسلمين إلي الآخرة لتهون عليهم الحياة الدنيا، فإذا عرفوا الهدف وطبقوه انتصروا علي أعدائهم، لأن وصولهم إلي هذا الهدف يستدعي تسابقهم إلي العيش في سبيل الله تعالي، والموت في سبيله، أما أعداؤهم فإن أهدافهم دنيوية قريبة، وإن الوصول إليها يستدعي تنافسهم علي البقاء، والمنطق الطبيعي في ذلك أن يحاول كل واحد منهم أن يدرأ الخطر عن نفسه، ويتقي بغيره، بينما المنطق بالنسبة للمسلمين الذين يعرفون الهدف السامي أن يفدي كل واحد منهم إخوانه بنفسه ليسبقهم في الوصول إلي الهدف، ومن هنا كان المسلمون الحقيقيون المدركون لأهداف دينهم المطبقون لمناهجه لا يمكن أن يُغلبوا بشكل نهائي، وإنما قد يصابون بانتكاسات مؤقتة بسبب أخطاء يرتكبونها ثم يعودون لمحاولة بلوغ الأهداف السامية، كما كان الحال مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يا شباب، إن السر في عظمة المقاتل الذي يقاتل في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله أنه أحرص علي الموت مثل حرص أعدائه علي الحياة، وكان هذا هو السر في عظمة هذا البطل المغوار، فإن من يري ميسرة وهو غيره من المجاهدون وهم يقاتلوا لا يستطيع أن يصدق نفسه من أول وهلة، فهو يرى رجالٌ لا يقاتلوا من أجل الفوز والنصر فحسب، بل يقاتلوا من أجل الفوز بالشهادة فكل منهم يبحث عن الجنة أينما كانت، وكيفما كان الطريق إليها شاقًا وصعبًا وشعارهم في ذلك الله والجنة، لذا يجب علينا أيها الأخوة أن يكن شعارنا دائمًا الله والجنة.

شجاعة تفوق الخيال

كان علي بن أبي طالب رضى الله عنه مع قوته البالغة مبلغاً يغبطه كل الناس عليها، شجاعاً بكل ما تعنيه مقاييس الشجاعة في الحرب والسلم، وكان لا يقوى علي مبارزته أحد، ولا يفكر في مبارزته أبداً أحد، لما يعلم من جرأته علي الموت، دون أن يهاب فارساً من الفرسان، فلقد ظل سيفاً للرسول القائد صلى الله عليه وسلم، يضرب به من عاداه حتى لقي رسول الله ربه عز وجل.
فقد لقي يومًا عمرو بن عبد ود في غزوة الخندق، وهو أعظم فارس عرفته العرب، وأضحى بينهم مضرب الأمثال، وكان العرب يقوَمونه بألف رجل من فرسانهم عند أصحابه وأعدائه، وإن شئت قلت كان جيشًا يلقاه جيش فيهزمه وحده، مع شرذمة تكون معه تحمي ظهره، أو تكون عن يمينه أو شماله.
خرج هذا الفارس الصنديد مقنعًا في الحديد ينادي جيش المسلمين: أنا عمرو بن عبد ود، من يبارز، من يبارز، فصاح علي رضى الله عنه: أنا له يا رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يشفق علي ابن عمه: إنه عمرو.. اجلس يا علي.
ثم عاد عمرو ينادي بأعلى صوته مزهواً بقوته: هل من رجل يبارز؟، وأخذ يؤنبهم بكلام يثير حفيظتهم، ويخرج أضغانهم، ويقول لهم في سخرية: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها، أفلا تبرزون إلي رجلاً حتى يدخل الجنة علي يدي؟! فقام إليه علي مرة أخرى وقال: أنا له يا رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اجلس يا علي، إنه عمرو.
فنادي عمرو الثالثة فقال:

ولقد بححت من النداء لجمْعهم هلْ منْ مُبارز
ووقفتُ إذ جبُن المشجعُ موقف القرن المناجزْ
ولذاك إني لمُ أُزل متسرعًا قبل الهزاهزْ
إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائزْ

فقام علي بن أبي طالب إليه مرة أخرى وقال: أنا يا رسول اللَه أخرج إليه، فقال رسول صلى الله عليه وسلم: إنه عمرو يا عليُ، فقال: وإن كان عمرًا، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمشى إليه فرحًا بهذا الإذن الممنوع، كأنه الإذن بالخلاص، ووقف علي بن أبي طالب رضى الله عنه وجهاً لوجه أمام عمرو.
ثم نظر إليه عمرو فاستصغره، وأنف أن يناجزه، وأقبل يسأله: من أنت؟ فقال ولم يزد: علي، قال: ابن عبد مناف؟ قال: ابن أبي طالب، ثم قال: يا عمرو إنك كنت عاهدت الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، فأجابه عمرو: أجل، قال عليٌ: فإني أدعوك إلى الله و رسوله، وإلى الإسلام، فقال عمرو: لا حاجة لي في ذلك، قال علي: أنا الآن أدعوك إلى النزال، فقال عمرو: لمَ يا ابن أخي، فو اللات ما أحب أن أقتلك، فأنت ابن صاحبي؟ ومن أعمامك من هو أسن منك، وإني أكره أن أهرق دمك.
فقال عليٌ: لكنني والله أحب أن أقتلك، فغضب عمرو، وأخذته حمية الجاهلية، واقتحم عن فرسه وعقره، ثم هجم على علِيٍّ رضى الله عنه الذي تلقاه بعنفوانٍ أشد، وخاض معه نزالاً رهيباً، لم تطل لحظاته حتى رفع عليٌ سيفه المنتصر، بينما كان خصمه عمرو بن عبد ود مجندلاً على

الأرض صريعاً، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير، فعرف الناس أن عليًا قد قتل عمرًا.
قالت أخت عمرو بن عبد ود حين سمعت بقتله: من قتله؟، قالوا لها: علي بن أبي طالب، فأنشدت تقول:
لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيتُهُ أبدًا ما دمتُ في الأبد
لكن قاتله من لا نظير لهُ وكان يُدعى أبوه بيضة البلد
عبرة:
يا شباب، هذا الخبر يبين شجاعة علي بن أبي طالب رضى الله عنه وإقدامه الجريء علي المهالك، فلقد كان عمرو بن عبد ود من المشهورين بالشجاعة والخبرة الحربية، فالإقدام علي مبارزته مغامرة لا يقدم عليها من له في الحياة رغبة، وإذا نظرنا إلي المتبارزين من ناحية الكفاءة الحربية نجد أن بينهما فرقًا كبيرًا، فعمرو يمتاز بعدة عوامل ترجح كفته، منها شهرته المستفيضة بالشجاعة والقوة، وهذه الشهرة تمنحه قوة معنوية، بينما تضعف من قوة خصمه، وتصيبه بالرعب والهلع، ومنها خبرته الحربية فهو متقدم في السن، وكلما كان الإنسان أكثر ممارسة للحرب كان أكثر خبرة وأقدر علي اتقاء ضربات الخصم، واغتنام فرص الهجوم.
ولكن مع صغر سنَ علي رضى الله عنه وقلة خبرته الحربية فإنه أقدم علي مبارزة ذلك الرجل العنيف الشجاع، فنصره الله تعالي عليه فأرْداه قتيلاً، وكان ذلك كافيًا لإرهاب أصحابه الذين فروا وتركوا الميدان، وهكذا حدث ما يشبه الخوارق حيث أقدم شاب حديث السن والخبرة علي مبارزة فارس عظيم من أشهر فرسان العرب.
لقد وقف علي بن أبي طالب رضى الله عنه مواقف بطولية رائعة جدًا، ففي أكثر مواقفه كما يقول الناس: وضع روحه على كفه، فالحقيقة يا أخوة: يجب أن توقن أن انتهاء الحياة لا يمكن أن تكون إلا إذا انتهى الأجل، لأن الشجاعة لا تقرب أجلاً، واقتحام المخاطر في سبيل الله لا ينهي حياةً، فعلي بن أبي طالب رضى الله عنه اقتحم أخطارًا كثيرة، وعرَّض نفسه لمواقف صعبة جداً، كان في كل موقفٍ أقلّ ما فيه أنه يكاد يخسر حياته، فلذلك عندما يقف المسلم هذه المواقف البطولية، يشعر أن الله سبحانه وتعالى راضٍ عنه.

الشجاعة هي الصدق في أسمى صوره، وأرقى معانيه، فقد أثنى رب العزة علي أولئك الذين خاضوا المعارك الحامية في نُصرةَ الإسلام ثناءً ليس فوقه ثنْاء، فقال جل شأنه: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} (الأحزاب: ٢٣).

فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الذي لا ينسى من معركة القادسية، لكن قبل ذلك نراجع سنوات إلي وراء قليلاً حتى نتعرف علي القصة من البداية.

ففي ليلة من الليالي دولة الإسلام في المدينة، أخذت رسُول الله صلى الله عليه وسلم سنة من النْوم، ثُم قام من نومُه وهو يقول: زيدٌ وما زيدٌ، وجندب وما جندب.

فتعجب الصحابةُ رضوان ربي عليهم وقالوا: يا رسُول الله، ما خبر زيد، وجندب؟!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هُما رجلان من أمتي، أما أحدهما فتسبقه يده إلي الجنة، ثُم يتبعها سائر جسدهُ، وأما الآخر فيضرب ضربة تفرق بينْ الحق والباطلُ.

ثُم مضت السنون، ولحق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي جوار ربه، وكاد الناس ينسون خبر زيد وجندب، حتى كان اليوم الرابع من أيام القادسية، يومها الحاسم والأخير، وهو يوم الأحد السادس عشر من شعبان من العام الخامس عشرٌ للهجرة.

وقد ارتفع في هذا اليوم صوت القعقاع بن عمرو رضى الله عنه ينادي المسلمين: يا معاشر المسلمين، إن الهزيمة بعد ساعة لمن يتخاذل، فاصبروا ساعة ولا تنخذلوا، واحملوا علي عدوكم، فإن النصر مع الصبر.

وما هي إلا لحظات، حتى كان أبطال الإسلام يتدافعون نحو عدوهم، واحتدم القتال علي أشد ما يكون القتال، وتطايرت الرؤوس من غير حساب، وتناثرت الأشلاء فوق كل شبر علي أرض المعركة، وبلغ عدد شهداء المسلمين في معركة القادسية الحاسمة ستة آلاف شهيد.

وفي إحدى ساحات المعركة كان زيد بن صوحان رضى الله عنه يدك بعزماته المؤمنة صفوف الكافرين، ويثخن فيهم الجراح، فتجمع عليه عدد من الفرس، فحاصروه فثبت لهم، وظل يقاتلهم وحيداً، حتى تمكن أحدهم منه، فضربه بسيفه ضربة قطعت يده من أعلى الكتف، فوقعت علي الأرض، وتحامل زيد علي جرحه، وظل يقاتل القوم بيده الأخرى، حتى تمكن من الوصول إلي مواقع المسلمين لتتلقفه الأيدي المؤمنة تضمد جراحه، وهو لا يفتأ يدعو الله عز وجل أن تتحقق فيه رؤيا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، فليحق جسده بيده إلي الجنة. أما جندب في ظل يقاتل حتى حقق الله لمُؤمنين النصر ثم لحق بجوار ربه.

عبرة:

أيها الأخوة، إن الأحْداث تمضي، والآلام تنتهي، والموت ينهي كل شيء، وتبقى المواقِف المشرفة التي يسعد بها الإنسان إلى الأبد، وكل شيءٍ ينقضي فاللذائِذ تمضي وتبقى تِبعاتها، والمتاعِب تمضي وتبقى خَيراتها.

في هذا الموقف يا شباب، نستشف مثلاً من أمثلة العظمة حيث تذوب الأجسام في مراد العقول السليمة يتمثل بالطموح العالي نحو بلوغ رضوان الله تعالي والجنة، فيتعرض أولو الألباب لمواطن الشهادة التي فيها رجاء الوصول السريع لتحقيق ذلك الهدف العالي.

أنا الذي لفت نظري أنّ كل هذه الحياة الصعبة والشاقة وهذا الجِهاد، وهذه الهِجرة والمكابدة والتضحِية، وهذا الحرّ والقرّ جعلهم أسعد الناس، وكل النعيم الذي نحياه، وكل الرفاه وكل هذه المواد التي بين أيدينا من دون معرفةٍ الله هي عين الشقاء، لِذلك اطلبوا العِزة عند الله.

عندما تذكر رجلاً عملاقًا من عمالقة الإسلام، فالكلمات سُرعان ما تنهمر لتحاول إنصافه بالوصف الذي يليق به، عملاقنا هذا اسٌم لمع في سماء صافية لا مجال للغبار فيها، رجلٌ هذبته الآداب، وأحكمته التجارب فخاض غمار الموت كالليث لا يري أمامه إلا هدفه، رجلٌ إذا صمت جلّله الوقار، وإن تكلم سماهُ البهاء، بطلٌ قد طمح بالعلا، وطمع بالمجد، أبي الذَل وتكبر علي الطغيان، بذل حياته لرفع قدر دينه وأمته، كان كالعطر قد حضر ورحل لكنّ بقاياه لا زالت موجودة، وستبقى موجودة، نعم وستبقي هذه كلمة حق لمن يستحق، إنه أعظم قائد عسكري في التاريخ، نعم هو الاسم الذي يردده القلب قبل اللسان إنه خالد بن الوليد رضى الله عنه.

فتحت أبواب حمص في أحد أيام حصار المسلمين لها، وخرجت قوات الروم من كل مكان، وكان علي رأس هذه القوات أمير المدينة هربيس في خمسة آلاف فارس من صناديد الروم، فصفهم هربيس أمام المدينة كأنهم سد من حديد، وقد صمموا على الموت، ولا يدخل المسلمون المدينة، فتبادر المجاهدين إليهم وحملوا عليهم حملة عظيمة، ورغم شدة الهجوم لم يتراجع أحد من الروم كأنهم حجارة ثابتة، ما ولوا عن مواضعهم، ثم أمر هربيس قواته بشن هجوم معاكس، واقتتَلوا قتالاً شديداً، فتراجع المجاهدون بعض الوقت بسبب عنف الهجوم، وقد فشا فيهم القتل والجراح.

نظر الأمير أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى هزيمة أصحابه، وعظم عليه ذلك وصاح فيهم قائلاً: يا أهل القرآن الرجعة الرجعة بارك الله فيكم فهذا يوم من أيام الله تعالى، فاحملوا معي يا أهل القرآن فتراجع المسلمين وحملوا مع أميرهم المجاهد على أهل حمص، وكانت حملة عظيمة، وكان على رأسهم خالد بن الوليد رضى الله عنه في جمع من بني مخزوم، ووضع المسلمين فيهم السيف، فتراجعت قوات الروم إلى الأسوار، وقد فشا فيهم القتل.

كادت الهزيمة تحدث للروم، لولا أن نادي عليهم هربيس بالثبات، وقام الرماة على الأسوار برشق المسلمون بالسهام، وطعنوا المسلمين بالحراب، هنا نظر خالد صاحب اللواء يوم حمص وصاح في جنودها قائلاً: يا عباد الله، شدوا عليهم بارك ربي فيكم فإنها والله الجنة، فبينما خالد يحرض أصحابه على القتال إذ حمل عليه بطريق من عظماء الروم عليه لأمة مانعة، وكان يهدر كالأسد، فتهيأ خالد والبطريق للمبارزة، فبدأ خالد بالهجوم عليه وهوى بسيفه بقوة على رأس البطريق الروماني الذي كان يرتدي أيضاً خوذة من الحديد، وبدلاً من أن يثقب الخوذة، كسر السيف وبقيت قبضته في يد خالد.

فحمل البطريق على خالد، وقبل أن يتمكن البطريق من خالد هجم عليه خالد، وقد أحاط به بكلتا يديه، وضم خالد البطريق إلى صدره واحتضنه بيده وشد عليه بقوة، فطحن أضلاعه وأدخل بعضهما في بعض فحاول البطريق أن يتخلص من قبضة خالد الفولاذية لكنه لم يتمكن من ذلك، وأزداد الضغط عليه أكثر فأكثر، ولم يتركه خالد حتى لفظ أنفاسه ووقع جثة هامدة، لقد استطاع خالد أن يسحق خصمه حتى الموت بقوة ذراعيه، واستولى خالد على سيفه.

ثم صاح خالد في بني مخزوم فحملوا حملة عظيمة علي العدو، وكانوا كالطوفان وفي أوساطهم خالد بن الوليد رضى الله عنه وهو ينادي: أنا الفارس الصنديد، أنا خالد بن الوليد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندما عرض خالد خطته على أبو عبيدة ابن الجراح رضى الله عنه

وعده بأن المسلمون سيمزقون الروم ويقصمون ظهورهم، وقد نجح المسلمون في ذلك ولم يبق من الروم إلا مائة فارس فقط.

عبرة:

يا شباب، إنه بمثل خالد هذا البطل المغوار، والقائد المقدام ينتشر الإسلام وتُحمى بلاد الإسلام، وتقوم دولة الحق ورايته عالية فوق بقاع المعمورة، فما أحوج الأمة الإسلامية إلي الرجال الأفذاذ الأكفاء الذين يجسَدون هذه المعاني السامية، فيحيونها بتضحيات الخالدة التي يراها الناس ويحسُون بها، فإن مآثر الأمة الماضية تظل مادة مذكَرة عبر الأجيال، ولكن الانتفاع الكامل بها يتم بالتأسَي بأولئك العظماء، وتطبيق هذه المعاني الكريمة من عظماء الرجال الذين يشاركون أفراد الأمة في ظروف الحياة المعاصرة، حتى لا يظن ظانٌ أن هذه الموقف والدروس التربوية إنما كانت في عصور ملائمة لوجودها، وأنَ تكرارها يتطلب ظروفًا حياتية مشابهة، والحقيقة أنه كلما قوى المحرك الإيماني فإن الله تعالي يتكفل بنصر أوليائه، وتسخير ظروف الحياة لصالحهم.

الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمةَ الله تعالي، هو وظيفة الأبطال من خيرة الرجال، لا تفارقهم ولا يفارقونها، يبذلون فيها مهجهم خالصةَ لوجه الله تعالي، لتكون كلمةَ الذين كفروا السفلي، وكلمة الله هي العليا، وقد علمنا من سيرة أمير الدهاء الإسلامي عمرو بن العاص رضى الله عنه إنه كان الفارس المقدام في ميادين القتال دون منازع، بوازع من دينه، وبحافز من رجولته الكاملة، وبطُولته النادرة، وآداب فروسيته الجامعة لفضائل الإنسانية كلها، الدالةَ علي اجتماع شعب الإيمان فيه بأسرها، ففي كل مجال من مجالات العظمة كان له فيها أوفُر نصيب.

وفي كل ميدان من ميادين الشرف والنضال كان له فيها المركز، فلو سرحنا بخواطرنا في سيرته العطرة، وبطولاته النادرة، ما وسعتنا في ذكرها مجلدات، لكن هنا نكتفي بذكر أعظم موقف في حياة عمرو بعد إسلامه، إلاَ هو دخوله خيمة قائد الروم البيزنطيين متخفي لجمع معلومات عن الجيش الروماني قبل معركة أجنادين الثانية، فتعالوا بنا لنري هذا المشهد الإسطوري.

علم القائد العام للجيش الإسلامي في فلسطين عمرو بن العاص رضى الله عنه أن الروم حشدوا جيوشهم، وعلي رأسها قائد فلسطين أرطبون في أجنادين، فسار عمرو ومعه شرحبيل بن حسنة رضى الله عنهما، واستخلف علي الأردن أبا الأعور السلمي، وكان الأرطبون أُدهي الروم وأبعدها غوْرًا، وكان قد وضع بالرملة جندًا عظيمًا، وبإيلياء - بين المقدس - جندًا عظيمًا أيضًا، فلما بلغ عمر بن الخطاب الخبر قال: رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عمَا تنفرج به.

وأقام عمرو علي أجنادين لا يقدر علي الأرطبون ولا تشفيه الرسل، وكان رضى الله عنه يقدر قيمة الاستطلاع حق قدره، ولذا أقدم علي مغامرة استطلاعية فذة، وهي قيامه بالاستطلاع الشخصي لمقر قائد الروم، والذي كاد أن يكلفه حياته.

إنها مغامرة جرئية جداً لا تناسب مع شخصيةَ عمرو الحذرة الواعيةَ اليقظة التي تحسب كل الحسابات، ومن جميع الجهات قبل أن تقع في مثل هذا المأزق الصعب، فلقد جنب نفسه المواجهة سنة كاملة مع قائد الروم، وبقي معه بين كرَ وفرَ حتى أتته قوات خالد في أجنادين الأولى.

كيف نجمع إذًا بين هذين الجانبين في شخصية عمرو رضى الله عنه: جانب الحذر والتريث واليقظة، وجانب المغامرة والتعرض للأخطار الماحقة؟ يظهر ابتداءً أن هذين الجانبين متناقضان، لكن في سبر أغوارهما نلاحظ أنهما يتممان بعضهما البعض، فالقائد الذي يخشي المغامرة لا يحقق انتصارات هائلة، وما مغامرة خالد رضى الله عنه بجشيه الذي مضى به من العراق إلي الشام إلا صورة من صور البطولة الفذة في التاريخ، إنه يعد للأمر أهبته بكل ما يملك، ويبقي جانبًا رئيسًا للمغامرة التي تغير التاريخ.

كما أن القائد المتسرع المغامر سرعان ما يسقط ويفشل حين لا يحسب حسابات قوته وحسابات قوة عدوه.

فالقائد العبقري الفذ هو الذي لا يتردد لحظة واحدة، ولا يتلكأ ثانية واحدة حين يري أنه قد آن الآوان للهجوم، ولكنه هو نفسه الذي لا يهاجم العدو أبدًا قبل أن يكون قد فقه كل نقاط ضعفه وقوته، وكان عمرو من هذا الطراز التاريخي النادر.

إنه لن يقوم بهجوم شامل علي الروم قبل أن يتعرف يقينًا علي قوات عدوه ونقاط ضعفها، وحاول الوصول إلي المعلومات التي تشيفه عن طريق غيره، لكن دون جدوى، فقرر أن يكون هو الذي

يحصل علي المعلومات بنفسه، وهذا جزء رئيسي من الحذر والوعي واليقظة، وقد ظهر إطار أكبر مغامرة تاريخية أن يدخل معسكر العدو، ويلتقي بالقائد العام للعدو، ولو كشف شخصه لانتهى أمره، وأمر جيشه وهو عنده عدوه وحده يقدر أن يأخذه ويقتله في كل لحظة.
ولم يدفع عمرو لهذه المغامرة إلاَ معرفته بأنه يواجه قائداً تاريخياً لا نظير له دهاء وحنكة وعبقرية.
سار عمروٌ إلي أرطبون بنفسه، ودخل عليه كأنه رسولٌ، ففطن به الأرطبون، وقال: لا شك أنَ هذا هو الأمير أو من يأخذا الأمير برأيه، فأمر رجلاً أن يقعد علي طريقه ليقتله إذا مرَ به، وفطن عمرو إلي غدر الأرطبون، فقال: قد سمعت مني، وسمعت منك، وقد وقع قولك مني موقعًا، وأنا واحدٌ من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه، ويشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوْا في الذي عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروا رددتهم إلي مأمنهم، وكنت علي رأس أمرك، فقال: نعم.
وتجلت عبقرية الأرطبون في رغبته في إهلاك جيش عمرو حين يهلك هؤلاء القادة، وببديهة حاضرة وسرعة نافذة وحرصاً علي قتل عشرة أمراء بدلاً من واحد، أصدر أوامر معكوسة بالإبقاء علي حياته، فدعا رجلاً فسارَه، وقال: اذهب إلي فلان فردَه إليَ، فرجع إليه الرجل، وقال لعمرو: انطلق فجئ بأصحابك، فخرج عمرو، ورأي أن لا يعود لمثلها، وعلم القائد الرومي بأنه قد خدعه، فقال: خدعني الرجل، هذا أُدهي الخلق.
وهنا ندرك سر هذا الدهاء العظيم الذي اعترف به ألدا أعدائه الأرطبون، فبلغت عمر، وهو الذي كان ينتظر عم تنفرج، فأدرك أن عمراً مننتصر لا محالة بعد هذه المغامرة الفذة، ورأي أنها ستنفرج عن نصر مؤزر له، وقد كان نصر حاسماً.
عبرة:
يا شباب، كان عمرو رضى الله عنه بارعاً في دهائه حينما أدرك ما أراده به الأرطبون، من قراءة ذلك في وجهه، وما قام به من تصرف يوحي بإرادة الغدر به، فابتكر بسرعة هذه الحيلة التي استطاع بها أن يتخلص منه، ولا شك أن عمراً كان أدهى منه، لأن أرطبون الروم لم يستطع إخفاء ما أراد في ضميره، بل ظهر ذلك علي وجهه حتى أدرك ذلك عمرو، بينما استطاع عمرو أن يعرض خدعته ببساطة، وكان أملك لأعصابه مع أنه كان في مقام خوف.
ومن المعلوم أن الخوف يظهر في آثار منها اصفرار الوجه، وتلعثم اللسان، لكن عمراً لم يبد علي وجهه أيُ تغير ولم يفقد شيئًا من رباطة الجأش، وفصاحة اللسان، حتى خفي أمره تماماً علي أرطبون الروم، وطمع في إفناء عشرة من مفكري المسلمين بدلاً من واحد.
يا سادة، ألا ما أحوج المسلمين اليوم إلي رجال لهم ذكاء عمرو ودهائه، خاصة أن معركة المسلمين مع أعدائهم أصحبت في هذا الزمن تعتمد في أكثر مراحلها علي التفوق الفكري، ولطالما استفاد القادة المسلمون من العباقرة في تذليل الصعوبات وحل المشلاكلات، وإخضاع الأعداء للخطط التي يردونها، ولطالما جنَبوا أممهم تضحيات كبيرةَ في الأنفس والأموال بسلوك الخطط التي يرسمها العباقرة، وتوجيه أذكيائهم ووجهائهمَ للتفاوض مع الأعداء.

من خلال الزيارات المتكررة لحدائق التاريخ، رحت أداعب أُغصانها، لتجود علينا بأزاهر المعلومات عن الصحابية السميرا بنت قيس رضى الله عنها، فعلمت أنه لابد لي من مصافحة أوراق الورد لأشعر بوخز شوكه، لأحصل علي الرائحة الزكية، فكل بطل من أبطال المسلمين موقف عرف به، وكان مهبط الشرف من حياته، ومعقد الفخر من سيرته التي تصاحبه في حياته، وتروى عنه بعد مماته، وليس هناك أملك للقلب، وأملك للنفس، وآثر في التاريخ من موقف السميرا بنت قيس رضى الله عنها يوم أُحُد، التي قطعت شوطاً كبيراً في حبُ الله ورسوله، والجهاد في سبيله.

لقد أسلمت السميرا فشمخت بإسلامها، وشمخ بها الإسلام، فإذا هي نموذج فريد لما ينبغي أن تكون عليه المرأة المسلمة، وحين نفر المسلمون إلي أُحُد، سارعت السميرا تحرض ولديها النعمان بن عبد عمرو، وسليم بن الحارث رضى الله عنهما، للخروج للقتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تمضى هي من خلف الركب النبوي، مع نفر من نساء المسلمين تستطلع أخبار القتال.

واحتدم القتال، وشرعت أبواب الجنة تستقبل شهداء الإسلام، وشرعت أبوب جنهم، تلتهم قتلي الكافرين من قريش، والسميرا ورهطها من النساء يراقبن المعركة عن بعد، حتى إذا لاح لها فارس يقترب، نهضت إليه تستوقفه، وتسأله عن أخبار المعركة، ولمن الغلبة، فعرفها الفارس، فنعى إليها ولديها النعمان وسليم.

فما زادت أن قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، وقالت: يا أخا الإسلام، ما عنهما سألتك، أخبرني ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

قال الصحابي: خيرًا إن شاء الله، هو بحمد لله علي خير ما تحبين. قالت: أرنيه، أنظر إليه، فأشار الصحابي إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تهلل وجهها، ونسيت مصيبتها بولديها، وقالت: كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله - أي بسيطة -.

وما هي إلا ساعات، حتى جيء لها بولديها الشهيدين، فقبلتهما، وحملتهما علي ناقتها، ورجعت بهما إلي المدينة، وفي الطريق، قابلتها أمُ المؤمنين عائشة رضى الله عنها. فقالت: ما وراءك يا سميرا؟

قالت السميرا: أما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو بحمد الله بخير لم يمت، وأما المسلمون فقد اتخذ الله منهم شهداء، وأما الكافرون فقرأت قوله تعالي: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا}(الأحزاب: ٢٥).

فقالت عائشة رضى الله عنها: فمن هؤلاء الذين فوق الناقة يا سميرا؟، قالت: هما ولداي النعمان وسليم، قد شرفني الله باستشهادهما، وإني لأرجو الله أن يلحقني بهما في الجنة.

عبرة:

يا سادة، من قال إن مواقف البطولة وقفٌ علي الرجال من دون النساء، أبدًا، ربَ نساء تزن أحداهن عشرات الرجال، إن تاريخ الإسلامي العظيم، مليء بمواقف بطولة شامخة لنساء صنعهن الإسلام هذا الدين العظيم، فشمخن بإسلامهن، وشمخ بهن الإسلام، منهما سميرا بنت قُيس رضى الله عنها، فهي نموذج فريد بين النساء.

يا أيتها الأخوات الكريمات، لم تكن مشاركة المرأة المسلمة في أخطر أمور المسلمين العامة وهي المعارك، فقط لضرورة سببتها الهزيمة المروعة يوم أُحُد، فعن ربيعة بنت معوذ بن عفراء قالت: كنَا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، نسقى القوم ونخدمهم، ونرد القتلى والجرحى إلي المدينة.
لذلك تكونت رؤية دعاة الإسلام للمرأة المسلمة، ومدى مشاركتها في الحياة العامة من هذا الموقف، ومن غيره، ففهموا أن المرأة هي نصف المجتمع، ونصف الأمة، وعليها واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

الجيل الرباني

أحب إلي من قطعها
الصدق صفةَ جامعة لخصال الخير كلها، فما من خليقةَ محمودة إلا كان الصدق منبعها ومصبها، وإنه الإيمان في أسمى صوره، وأُرقى معانيه، ولقد سمى الله الإيمان صدقًا في آيات كتابه العزيز فقال جل شأنه: {هذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}(المائدة: ١١٩).
يعني: هذا يوم ينفع المؤمنين فيه إيمانهم، وقال عز وجل: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِم} (الأحزاب: ٢٤).
ومن هؤلاء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه الصحابي الجليل عباد بن بشر رضى الله عنه، وها هو رضى الله عنه يقف موقفاً يعجز القلم عن وصفه، ولو اجتمع جميع الأدباء والشعراء ما استطاعوا أن يصفوا مدى عظمة هذا الموقف الذي يندر تكراره عبر العصور والأزمان، فتعالوا بنا لنري هذا المشهد الماتع في غزوة ذات الرقاع، الذي يدل علي مدى صدق إيمان عباد بن بشر رضى الله عنه.
لما عاد الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه من غزوة ذات الرقاع نزل الجيش الإسلامي في شعب من الشعاب ليقضوا فيه ليلتهم، فلما أنْاخوا رواحلَهم قال الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه: من يحرسنا في ليلتنا هذه؟ فقام الأخوين عباد بن بشر، وعمار بن ياسر رضى الله عنهما وقالا: نحن يا رسول الله، وقد كان النبي صلي الله صلى الله عليه وسلم آخى بينهما حين قدم المهاجرون إلي المدينة.
فلما خرجا إلي قلب الشعب قال عباد بن بشر إلي أخيه عمار بن ياسر: يا أخي عمار أي شطري الليل تؤثر أن تنام فيه: أوله أم آخره؟ فقال عمار: أي أخي بل أنام في أوله، وتنام أنت في آخره، واضطجع غير بعيد عنه، وفي سكون الليل قام عباد بن بشر رضى الله عنه يصلي، ويتلو القرآن كما كان يحلو له دائماً، وبصوته العذب الندي، بدأ يقرأ سورة الكهف، ويسمع الأفق كلام رب العزة سبحانه.
وفي سكون الظلام، وعتمت الليل كان أحد المشركين يتربص ويبحث عن معسكر المسلمين، ونار الغضب تشتعل في صدره فقد سبى أحد المسلمين أهله وهو غائب، فلما عاد أقسم أن يلحق بمحمد وأصحابه، ولا يعود إلا إذا أراق منهم دماً، وتسلل هذا الجبان في جنح الظلام فرأى عباد قائماً يصلى في خشوع، وصوت قرأته يهز الأفق هزاً، وكذئب غادًر وضع الرجل سهمًا في قوسه وصوبه نحو عباد فأصابه.
فما تزحزح هذا الجبل عن مكانه، بل إنه نزع السهم من جسده، ومضى في تلاوته، فرماه الرجل بسهم آخر، فأصابه، فنزعه كما نزع سابقه، ومضى في تلاوته، فرماه الرجل المشرك بسهم ثالث، فانتزعه كما انتزع سابقيه، وزحف حتى وصل إلي عمار، وهزه بيده قائلاً: انهض يا أخي فقد اثخنتني الجراح، فلما رآهما الرجل ولى هارباً.
ونظر عمار إلي أخيه عباد ففزع من الدم النازف من جراحه الثلاثة فقال له: رحمك الله يا أخي، هلا أيقظتني عند أول سهم رماك به؟! فقال عباد: والله يا أخي لقد كنت في سورة أقرأها فلم أحب

أن أقطعها حتى أفرغ منها، وايم الله لولا خوفي من أضيع ثغراً أمرني به رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه لكان قطع نفسي أحب إلي من قطعها!!

عبرة:

يا شباب، في هذا الموقف مثل واضح علي قوة الإيمان، وروعة اليقين، والصبر واحتمال الأذى في سبيل الله تعالي لدى الصحابة رضى الله عنهم، كما يدل هذا الموقف يا أخوة علي عناية الصحابة بالصلاة؛ وأنها أغلي عندهم من أنفسهم وأموالهم، وهذه الصلاة التي عمرت بالخشوع، وتوجت بحضور القلب مع الله تعالي هي الصلاة المؤثرة، التي أنجبت أبطالاً عظماء كهؤلاء الصحابة الكرام، فعلي قدر ما يعطونه ربهم جل جلاله في الليل من الخضوع والتذلل، وتجرد القلب لعبادته يعنيهم بالنهار من القوة علي مكابدة الأعداء، ومواجهة الشدائد، ولذلك لا نجد في الأمر غرابة إذا وجدناهم ينامون قليلاً من الليل، ويواجهون عدوهم مع انبلاج الفجر بعزائم قوية، وهمم عالية.

ونلاحظ في هذا الموقف أمر آخر أيها الأخوة الكرام، أن عباد بن بشر رضى الله عنه قد أغفل من حساب فكره النظر إلي مستقبل أولاده وأهله وأمواله فيما إذا أصيب واستشهد، وإنما كان يوازن النظر حينما رماه ذلك الرجل بين أمرين: أن يكمل السورة التي بدأها وهذا دونه الحياة، أو يقطعها ليوقظ أخاه عماراً حتى لا يضيع المهمة الكبيرة التي أناطها به النبي صلى الله عليه وسلم، وكلا الأمرين من أمور الآخرة، وبهذا يا أخوة نعلم أن هذا الجيل الرباني رضى الله عنهم لم يكونوا يحسبون للدنيا حساباً في تفكيرهم إلا قليلاً، وإنما كان تفكيرهم منحصرا في أعمال الآخرة.

من العظماء رجال لا يستطيع اللسان أن يعبر عن مآثرهم، ولا عن جوانب العظمة فيهم إلا علي استحياء يصحبه شعور بالقصور والتقصير، وذلك لأن العظمة في الرجال تتفاوت في مراتبها ودرجاتها كتفاوت الكواكب والنجوم في عليائها، ولا يعرف لهذا التفاوت قدر علي وجه التحديد ولا علي وجه التقريب إلا كما يعرف رجال الفلك من الظواهر الفلكية التي تبدو لأعينهم من بعيد، فيحكمون علي ما يرونه بالظن والتخمين لا علي وجه التحقيق واليقين، لأن الأعُين مهما أبصرت فلن تبصر ما وراء الظواهر من أسرار، ولا ما يترتب علي وجودها من آثار، ومن هؤلاء أعظم عظماء التاريخ أبو بكر الصديق رضى الله عنه فهو أعظم البشر بلا جدال بعد الأنبياء عليهم السلام، ومن أراد أن يعرف قوة إيمان هذا الرجل فلينظر إلي هذا المشهد، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد العجيب لهذا الجبل الراسي.

لما رأى الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر علي أن يحميهم ويمنعهم مما هم فيه، قال لهم: لو خرجتم إلي أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون إلي أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلي الله بدينهم، وكانوا بضعة وثمانون رجلاً.

فلما هاجر ذلك العدد الكبير من الصحابة إلي بلاد الحبشة، رأى الصديق أبو بكر رضى الله عنه ضغط المشركين علي المسلمين مع قلة الناصر، وأنه لم يقدر علي أن يدفع عن أحد من المسلمين، فقرر الهجرة إلي الحبشة، وبالفعل استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأذن له بالخروج، فخرج الصديق حتى إذا سار مسافة يومين من مكة، فلقيه ابن الدُغنة، وهو يومها سيد الأحابيش - وهم بنو الحارث من كنانة -.

فقال له: إلي أين يا ابن أبي قحافة؟ قال: أخرجني قومي، وآذوني، وضيقوا علي. فقال ابن الدُغنة: ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين علي النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع إلي بلدك، اعبد ربك، فأنت في جواري، فرجع الصديق معه حتى دخل مكة، فقام ابن الدُغنة في نادي من نوادي قريش، وقال: يا معشر قريش، إني قد أجرت ابن أبي قحافة، فلا يعرضن له أحد إلا بخير، فحينئذ كفُوا، فلم يتعرضوا له بسوء.

وكان للصديق مسجدٌ عند باب داره يصلي فيه، ويقرآن القرآن، فيبكي، فيقف عليه الصبيان، والعبيد، والنساء يعجبون لما يرون من هيئته، وبكائه، وقراءته، وبلغ قريش ذلك، فأتوا إلي ابن الدُغنة، وقالوا له: إنك لم تجر أبو بكر ليؤذينا، إنه رجل إذا صلي، وقرأ ما جاء به محمدٌ يرقُ ويبكي، وكانت له هيئة، فنحن نتخوف علي صبياننا، ونساءنا وضعفتنا أن يفتنهم، فأْته فمُرْه أن يدخل بيته، فليصنع فيه ما شاء.

فذهب ابن الدُغنة إلي أبي بكر، فقال له: يا أبا بكر، إني لم أُجرك لتؤذي قومك، إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت فيه، وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت. فقال أبو بكر: أو أرد عليك جوارك، وأرضي بجوار الله؟ قال: فاردد علي جواري. فقال الصديق: رددت عليك جوارك. فقام ابن الدُغنة في نادي من نوادي قريش، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد رد علي جواري، فشأنكم بصاحبكم.

فمر بأبي بكر وهو عامد إلي الكعبة سفيه من سفهاء قريش، فحثي علي رأس أبي بكر تراباً، ومر بأبي بكر العاص بن وائل فقال له أبو بكر: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟ فقال: أنت فعلت ذلك بنفسك، ومضى أبو بكر، وهو يقول أي رب ما أحلمك، أي رب ما أحلمك.

عبرة:

يا شباب، كان أبو بكر رضى الله عنه في عز من قومه قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، فها هو ابن الدغنة يقول له: مثلك يا أبا بكر لا يخرج، ولا يخرج مثله، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين علي نواب الحق، فأبو بكر لم يدخل في دين الله طلباً لجاه أو سلطان، وما دفعه إلي ذلك إلا حبُ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، مما يترتب علي ذلك من ابتلاءات، أي أنه لم يكن له تطلعات سوى مرضاة الله تعالي، إنه يريد أن يفارق الأهل والوطن والعشيرة ليعبد ربه، لأنه حيل بينه وبين ذلك في وطنه.

إن زاد الصديق رضى الله عنه في دعوته إلي الله القرآن الكريم، ولذلك اهتم بحفظه وفهمه وفقهه والعمل به، وأكُسبه الاهتمام بالقرآن الكريم براعة في تبليغ الدعوة، وروعة في الأسلوب، وعمقاً في الأفكار، وتسلسلاً عقلياً في عرض الموضوع الذي يدعو إليه، ومراعاة لأحوال السامعين، وقوة في البرهان والدليل.

وكان الصديق يتأثر بالقرآن الكريم ويبكي عند تلاوته، وهذا يدل علي رسوخه يقينه، وقوة حضور قلبه مع الله عز وجل، ومع معاني الآيات التي يتلوها، والبكاء مبعثه قوة التأثير إما بحزن شديد، أو فرح عامر، والمؤمن الحق يظل بين الفرح بهداية الله تعالي إلي الصراط المستقيم، والإشفاق من الانحراف قليلاً عن هذا الصراط، وإذا كان صاحب إحساس حيَ وفكر يقظ كأبي بكر رضى الله عنه فإن هذا القرآن يذكّرُ بالحياة الآخرة وما فيها من حساب وعقاب أو ثواب، فيظهر أثر ذلك في خشوع الجسم وانسكاب العبرات، وهذا المظهر يؤثر كثيرًا علي من شاهده، ولذلك فزع المشركون من مظهر أبي بكر المؤثر وخشوا علي نسائهم وأبنائهم أن يتأثروا به فيدخلوا في الإسلام.

يا أيها القارئ الكريم، أن الإنسان المستقيم الشريف، الطاهر الصادق الأمين، من كانت أخلاقه هكذا، إذا تكلم فحري به أن يكون صادقاً، والانحراف السلوكي دائماً يقابله انحراف عقائدي، هذه حقيقة مقطوع بها فقد قال رب العزة: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (القصص: ٥٠).

هناك تلازم ضروري حتمي بين التدين الصحيح وبين الخلق الكريم، فإن رأيت فكراً نيراً، وعقلاً راجحاً، وكلاماً سديداً، ورأياً صحيحاً، فظن بغلبة الظن أن صاحب هذا الكلام السديد وذاك العقل الراجح إنسان مستقيم، وإن رأيت استقامة وورعاً، وطهراً، وصدقاً، وأمانةَ، فظن بغلبة الظن أن صاحب هذه الأخلاق الرفيعة إنسان مبادئه صحيحة، اعتقدْهذا الاعتقاد، هناك تلازم ضروري وحتمي بين سلامة السلوك وسلامة الفكر، بين سلامة العقيدة والمبدأ.

التوكل الذي يقوى الإنسان به ضرب من الثقة بالله، ينعش الإنسان عندما تكتنفه ظروف محرجة، ويلتفت حوله فلا يرى عوناً ولا أملاً، فالمكافح عدواً قوى الشكيمة، شديد البأس، علي ضعف العدة، وقلة الناصر، يحس عندما يتوكل علي الله أنه أوى إلي ركن شديد، ويستمد من هذا التوكل ثباتاً ورباطاً، ويظل يقاوم حتى تبرق بشائر النصر خلال جو مكفهر، وقد بيَن الله تبارك وتعالي أن هذا التوكل، كان غذاء الكفاح الطويل، الذي قاوم به النبيون، وأتباعهم مظالم الطغاة، وبغى المستبدين، وهكذا كانت أمُ المؤمنين أمُ حبيبة بنت أبي سفيان رضى الله عنهما، فتعالوا بنا لنرى كيف قاومت رضى الله عنها.

ما كان يخُطر ببال صخر بن حرب - أبي سفيان - أن في وسع أحد من قريشٌ أن يخرج علي سلطُانه، أو يخالفه في أمر ذي بال، فهو سيد مكة المطاع، وزعيمها الذي تدين له بالولاء، لكن ابنته رملة - أمُ حبيبةُ - رضى الله عنها قد بددت هذا الزعم تماماً، وذلك حين كفرت بآلهة أبيها، وآمنتْ هي وزوْجُها عُبيد الله بن جحش بالدعوة المحمدية التي أشْرق نُورها في ربوع مكة.

وقد حاول سيد مكة المطاع أبو سفيان بكل ما أُوتي من سطوة، وبأس، وقوة، أن يرد ابنته وزوْجُها إلي دينه، ودين آبائه، فلم يفلح في ذلك، لأن الإيمان الذي رسخ في قلب رملة، كان أعمق من أتقتله أعاصير سيد مكة وزعيمها، وأثُبت من أن يزعزعه غضبه.

ركب أبا سفيان الهم بسبب إسلام رملة فما كان يعرف بأي وجه يقابل قريشاً، بعد هذا الزلزال الذي ضرب بيته بإسلام ابنته، وقد عجز عن إخضاع ابنته لمشيئته، والحيلولة دونها ودون اتباع محمد صلى الله عليه وسلم.

ولما تيقنت قريشٌ من أن أبا سفيان عاجز عن أن يرد ابنته وزوْجُها عُبيد الله إلي دين الآباء، وأنه أصبح ساخطاً علي ابنتْه وزوْجها اجترأت عليهما، وبدأت تضيق عليهما الخناق، ولم يكن هذا التضييق خاصاً بهما، بل لسائر المستضعفين من المسلمين، فلقد قرر المشركون ألا يألوا جهداً في محاربة الإسلام، وإيذاء الداخلين فيه، والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام.

ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلي الله، وعالن قومه بضلال ما ورثوه عن آبائهم، انفجرت مكة بمشاعر الغضب، وظلت عشرة أعوام تعد المسلمين عصاه ثائرين، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، واستباحت في الحرم الآمن من دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وجعلت مقامهم تحملاً للضيم، وتوقعاً للويل، وصاحبت هذه الحرب المشتعلة حرب من السخرية والتحقير، قُصد بها تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية.

فلما خشي النبي صلى الله عليه وسلم علي أصحابه من أن يفتنوا في دينهم، أذن لهم بالهجرة إلي أراض الحبشة، فهاجرَوا إليها، وكانت أم حبيبة وزوْجُها في طليعة المهاجرين الذين خرجوا فراراً بدينهم من بطش قريش، لكن ظلت المحن تنزل علي أمُ حبيبة بنت أبي سفيان رضى الله عنهما كما ذكرنا في كتبنا روائع من حياة الصحابيات.

عبرة:

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إذا كان الابتلاء لابد قائماً بالنسبة للمؤمن، فالصبر عليه، وعلي مشاقه واجب، ومن فقد الصبر فافتتن في دينه، أو ارتد علي عقبه، إذاً فقد وقع في سخط الله سبحانه وتعالي، ومن آمن بالرسل وأطاعهم، عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتلى بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم،

ولم يطعهم، عوقب في الدنيا والآخرة، فحصل له ما يؤلمه، وكان هذا المؤلم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم، فلابد من حصول الألم لكل نفس آمنت، أو رغبت عن الأُيمان.

إن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان يحصل له اللذة ابتداءً، ثم يصير في الألم الدائم، والله تبارك وتعالي ابتلى أولى العزم من الرسل، فلما صبروا مكنهم رب العزة، فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة، وإنما تفاوت أهل الآلام في العقول، فأعقلهم من باع ألمًا مستمراً عظيماً بألم منقطع يسير، وأشقاهم من باع ألمًا منقطع اليسير، بالألم العظيم المستمر.

الإنسان الضعيف، هو الذي يستعبده العرف الغالب، وتتحكم في أعماله التقاليد السائد، ولو كانت خطأ يجر معه متاعب الدنيا والآخرة، وقد أحدث الناس في أفراحهم وأحزانهم بدعاً شتى، وتواضعوا علي الاستمساك بها أشد من استمساكهم بحقائق الدين، ولكن المؤمن الحق، لا يكترث بأمر ليس له من الدين.

من يقرأ التاريخ الإسلامي يعلم إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، هم أبر الناس قلوباً، وأعمقهم علماً، وأحسنهم خلقاً، فهم أروع نماذج البشرية، ترى في سيرتهم اسمي ما عرفت البشرية من عظمة ونبل ورشاد، فنحن هنا نقترب منهم لنرى إيمانهم، وثباتهم، وبطولاتهم، وولاءهم لله ورسوله نرى البذل الذي بذلوا، والهول الذي احتملوا، والفوز الذي أحرزوا نرى الدور الجليل الذي نهضوا به لتحرير البشرية كلها من وثنية الضمير، وضياع المصير، ومع أحد أئمة الهدى نعيش الآن معه هذه السطور من حياته، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد العظيم للصحابي الجليل أبو العاص بن الربيع رضى الله عنه.

لم يزل أبو العاص بن الربيع رضى الله عنه - وهو زوْج زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم - مقيماً على شركه حتى إذا كان قبيل فتح مكة خرج بتجارة إلى الشام بأموال من أموال قريش أبضعوها معه، فلما كان في طريقه من الشام إلى مكة، وأقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا سبعين ومائة راكب أميرهم زيد بن حارثة رضى الله عنه، وذلك في جمادى الأولى في سنة ست من الهجرة فأخذوا ما في تلك العير من الأثقال.

وأسروا أناساً من العير فأعجزهم أبو العاص هرباً فلما قدمت السرية بما أصابوا أقبل أبو العاص من الليل في طلب ماله، فأخذته السرية أسيراً مع بِضاعتِهِ، وجيءَ به أسيراً إلى المدينة، معه بِضاعة قريش، فعرضوا عليه الإسلام، فرفض أن يسلم، ثم دخل على زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستجار بها فأجارته، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صلاة الصبح.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأنصار، إن هذا الرجل منا حيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به، فقالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه، فردوه عليه.

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بِإطلاق سراحِهِ مع البِضاعة، وذهب أبو العاص إلى مكة وأدَّى المال لِأصحابه، وبعد أن أعطى كل ذي حقٌ حقه، قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، قد وجدناك وفياً كريماً.

قال: يا معشر قريش، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت.

ثم عاد إلى المدينة، وانْخرط مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فلما قيل له: لماذا لم تسْلم يوم كنت في المدينة، ومعك البِضاعة؟ قال هذا الصحابي زوْج بِنت النبي صلى الله عليه وسلم: والله ما أُحِبُّ أن أبدأ إسلامي بِهذا!

ما أراد رضى الله عنه أن يبدأ إسلامه بِأَكل مال الناس ظلماً، بعد أن أدى المال لأصحابه أسلم.

عبرة:

هكذا يا شباب تكون الأمانة، وهكذا يكون الوفاء بالوعد، وهكذا تكون مراقبة الله عز وجل، فلقد ضرب أبو العاص رضى الله عنه المثل في الوفاء والأمانة، وكل ذلك ثمرة من ثمرات مراقبة الله عز وجل، نعم يا أخي إنه الشعور بأن فاطر السموات والأرض مطلعٌ عليك في كل صغيرة وكبيرة، تلك هي المراقبة التي تجلب لك خشية الله في السر والعلن، إنها رقابة الله تعالي التي تسقط

أمامها رقابة البشر، فإن رقابة البشرة قاصرة، فالبشر يغفل وينام ويسهو ويموت والله عز وجل حيٌ لا يموت.
الأمانة أحد الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره، والأمانة في جانبها خلق ثابت يعف به الإنسان عما ليس له به حق، وإن تهيأت له ظروف العدوان عليه دون أن يكون عرضة للإدانة عند الناس، ويؤدى به ما عليه أو لديه من حق لغيره، وإن استطاع أن يهضمه دون أن يكون عرضة للإدانة عند الناس.

أعظم ما يتحلى به إنسان حكمة منَ الله بها عليه، يعرف بها مواطن الخير، ومواطن الشر، ويدرك عن قريب ما تنطوي عليه النفوس من الهوى، فيدعوهم إلي ترك الشهوات التي تصرفهم عن التأمل الأمور في الدنيا والآخرة، وكان من هذا الصنف من البشر الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، فقد كان واعظاً بليغاً، يبلغ كلامه أعماق القلوب، ويقتنع برأيه السديد كل من أراد الهدى، وسعى إليه جاهداً.

لما لا فقد كان رضى الله عنه أول من جهر بالقرآن بمكة، فقد كان يجلس في المسجد الحرام ويقرأ سورة الرحمن فيسمعه المشركون وينصتون إليه ساعة يستمتعون فيها بحلاوة القرآن وطلاوته، ثم يثبون عليه ويضربونه ضرباً مُبرحاً، حسداً له وغيرة علي دين آبائهم، وتحمل هذا الأذى علي شدته، كما تحمل غيره من المسلمين.

ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يعرفون قدره في العلم، فيأتون إليه فيسألونه عن الحلال والحرام، فيجيبهم بما علم، ويحدثهم بما سمع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن بحذر شديد، فإذا حدث عنه ارتعدت فرائصه من خشية أن يكون قد زاد أو نقص فيه، فتعالوا بنا لنرى له هذا المشهد الرائع مع الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

لقِيَ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ركباً في سفرٍ فيهم عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، فأمر عمر رجلاً ينادِيهم، من أين القوم؟ فأجابه عبد الله: أقبلنا من الفجّ العميق. فقال عمر: وأين تريدون؟ قال عبد الله: البيت العتيق. قال عمر: إنّ فيهم عالِماً، أتوا من كلّ فجّ عميق، وقد أرادوا البيت العتيق، وأمر الرجل فناداهم، وقال له: سَلهم أيُّ القرآن أعظم؟ فأجابه عبد الله: {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}. ثمّ ناداهم: أيُّ القرآن أحْكم؟ قال: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ}. فناداهم: أيُّ القرآن أجْمع؟ قال: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه}. قال: نادِهِم، أيُّ القرآن أخْوَف؟ قال عبد الله: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ} قال عمر: نادِهِم، أيُّ القرآن أرْجى؟ قال ابن مسعود: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ} فقال عمر: نادِهِم، أفيكم ابن مسْعودٍ؟ قالوا: نعم.

عبرة:

يا أيها القارئ الكريم، إن الإنسان الذي استوعَبَ القرآن كله إنه لعالِم، فالماهر بالقرآن مع النبيّين والصِّدّيقين يوم القِيامة، فما مِن آيةٍ إلا وهو يعلم أين نزلت؟ وفيما نزلت، ومتى نزلت، هذا هو المؤمن، إما أن تعرف، وإما أن تتعلم على من يعرف، وإياك أن تتكبر، أما ألا يتعلم يدعي المعرفة فهذا شيطان، ومن الناس من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالمٌ فاتبعوه، ومنهم من يدري ولا يدري أنه يدري فهذا غافِلٌ فنَبهوه، ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهِلٌ فعلموه، ولكن أخطر واحد أن منهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهذا شيطانٌ فاحْذَروه، وهذا نِصف العالِمِ، وهو خطيرٌ، لا هو عالمٌ فينتفِعُ بِعِلمِهِ، ولا هو جاهِلٌ فيَتعلم.

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه حتى أتاهم اليقين، وجاهدوا في سبيله جهاداً مخلصاً، لم تشبه شائبة من رياء، أو حميةَ جاهلية عابرة، أو سعي لحظ دنيوي رخيص، رجال أحُبوا الله ورسوله، وأحبهم المؤمنون، لما تميزوا به من خلق فاضل، وسلوك نبيل، فكانوا بالمكارم سادة وقادة، وعلي قمة صرح الرجولة الشامخ وقف هذا الصحابي الجليل ثابت الأقدام، كأنما هو نبتة في أرض الحق واليقين، لقد كان رجل المواقف الصعبة التي اختارته لها الأقدار، إنه سيد بني عبد الأشهل الصحابي الجليل الذي اهتز لموته عرش الرحمن سعد بن معاذ رضى الله عنه.

إن مواقف هذا العبد الصالح الخالدة كثيرة؛ وإن رجلاً يهتز العرش لموته؛ وتتحرك الملائكة وتتسابق لتشيع جنازته، ولحمل نعشه لرجل يستحق الإجلال والاحترام، فتعالوا بنا لنتعرف كيف أسلم هذا الجبل الراسخ.

كان سعد بن معاذ رضى الله عنه يوم أهلَ نور النبوة في سماء المدينة فارساً من أعز فرسان يثرب نفراً وأعلاهم سلطاناً، وأعرضهم جاهاً، فقد كان سيد بني عبد الأشهل المطاع، وقد كان فتي الأوس وسيدها يستمع إلي أخبار الداعية المكي مصعب بن عمير رضى الله عنه فلا يغيرها كثيراً من اهتمامه، وكان يعلم أنه حل في ضيافة ابن خالته أسعد بن زرارة رضى الله عنه، وأنهما يتعاونان علي بث الدعوة إلي الدين الجديد في ربوع يثرب فلا يتعرض لهما، رعاية لحق ابن خالته أسعد عليه.

وبينما كان سيد الأوس يتجول في ضواحي ديار بني عبد الأشهل ومعه أسيد بن الحضير رضى الله عنهما، وجماعة من الناس، إذ رأى الداعية المكي وابن خالته في بستان قريب من منازل قومه يستريحان في ظل نخيله، ويستقيان من ماء بئره، وقد اجتمع عليها طائفة من المؤمنين بالدين الجديد، وطفقوا يسألون مصعباً أن يفقههم في دين الله، وأن يقرئهم شيئًا من كتاب الله، فكبر ذلك علي سيد الأوس، وعز عليه أن تبلغ الجرأة بابن خالته وضيفه حداً جعلهما يجهران بدين محمد في عقر داره.

فقال لأبن عمه أسيد بن الحضير: يا أسيد انطلق إليهما، وانظر إلي هذا الرجل المكي الذي أتي يعيب ديننا، وينتقص من آلهتنا، ويفتن ضعفاءنا، فازجره عن أن يقترب من ديارنا بعد اليوم، ثم أردف يقول: لولا أن أسعدُ ابن خالتي، وهو مني حيث تعلم لكفيتك ذلك.

أخذ أسيد حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عُمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوق عليهما متشتماً - يعني عابس الوجه - فقال: ما جاء بكما إلينا تسفَهان آلهتنا، وتفتن ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

قد يتعجب المتأمل من صدور مثل هذا الكلام من رجل كان بعد ذلك تتنزَل الملائكة في الليل لسماع صوت تلاوته، ولكنه البون الشاسع بين الضلال والهداية، والفرق الواضح بين استخدام طاقات العقل فيما خُلق لأجله وبين تغطية العقل بحجاب كثيف من التقليد الأعمى!!

فابتدره مصعب بوجهه الطلق وكلمته اللينة، وأخذ يدعوهُ إلي الإسلام، وطفق يقرأ عليه القرآن ما يلين القلوب القاسية به، ويستميل النفوس النافرة، حتى أشرق وجهه، وانبسطت أساريره، وقال لمصعب: ما أعذب هذا الكلام وما أحسنه، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا هذا الدين؟ قال:

تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، وتركع ركعتين لله، وهذا الماء منك قريب، فقام أسيد واغتسل وشهد شهادة الحق وصلي.
ثم قال لمصعب: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله لكما الآن فأحسنا التأتي له.
ثم عاد أُسيد رضى الله عنه إلي القوم، فلما رآه سعد مقبلاً نظر إليه وقال لمن معه: أحلف بالله إن أسيداً جاءكم بغير الوجه الذي ذهب إليه به، ثم قال: ما فعلت يا أُسيد؟ فقال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، فنهض سعد بن معاذ مُغضباً، وأخذ الحربة من أُسيد وقال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ولئن الأمر علي هذا الحال لأجدنهما غداً في داري يدعوان زوجي وأولادي إلي ترك ديني ودين آبائي وأجدادي.
توجه سعد إليهما، فلما رآه ابن خالته أسعد مقبلاً قال لمُصعب: لقد جاءك سيد قومه، وإن اتبعك لا يتخلف عنك منهم أحد فانظر ماذا أنت فاعل؟!
فما أن بلغهما سعد ووقف عليهما حتى اتجه إلي أسعد وقال: يا أبا أمامة أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما طمعت هذا مني أتغشانا في ديارنا بما نكره؟
فبادره مصعب بوجهه الطلق وقال: ألا تقعد تسمع فإن رضيت ما نقوله ورغبت فيه قبلت دعوتنا، وإن كرهته تحولنا عنك الساعة فقال: والله لقد أنصفت، هات ما عندك، فعرض مصعب الإسلام علي سعد أحسن ما يكون العرض، فما لبث أن قال لمصعب: كيف يصنع من أراد الدخول في هذا الدين؟ فوالله ما سمعتُ كلامًا أبر ولا أكرم ولا أعظم من هذا الكلام، ولم يبرح سعد مكانه حتى أعلن كلمة الحق، وانضم إلي موكب النور.
ومنذ للحظات الأولي لإسلامه أضاءت هداية الله روحه ونفسه وبدأ حياته بصفحة مشرقة، لقد وقف علي قومه لما أسلم فقال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا فضلاً وأيمننا نقيبة فقال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما بقي من أحد من بني عبد الأشهل إلا وأسلم.
عبرة:
يا شباب، تبدو هنا الحكمة البالغة في الدعوة إلي الله تعالي، والمقدرة الفائقة في محاولة تحطيم الحجاب الفكر الوثني الذي كان يحول بين سعد وأمثاله، ومحاولة التفكير في الحق، من غير عنف ينفَر من سماع الحق، ولا ضعف يهون من شخصية ممثليه، لقد علق الأمر علي رضاه وسخطه، ورتب علي الرضا قبول الحق، وعلي السخط الاستعداد بإبعاد مصدر الكراهية والأذى الذي كان يتصور وجوده وإن كان هو الحق، وهذا ليس من التنازل مع المخالفين بل هو نوع من الحكمة في الدعوة، ولذلك لم يجد سعد بن معاذ بدآ من قبول العرض الذي لم يشعر بأنه أجبر عليه، وإنما أصبح معلقًا علي كامل حريته ورضاه، فوصف هذا العرض بأنه عين الإنصاف والعدل وجلس لسماع كلامه.
يا سادة، كلمة عظيمة قاله سعد لقومه تدل علي إيمان قوي، ويقين راسخ، وشجاعة فذة، وحزم نافذ، حينما قال: إن كلام رجالكم ونسائكم عليَ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أعظم آثار الهداية في النفوس!! قبل ساعات قلائل كان سعد يهدد دعاة الحق ليحمي ما هو مقتنع به من الباطل، ثم لما هداه الله تعالي صار يهدد كل من ظل علي الباطل من قومه ولم يتبع سبيل الحق.

يا أيها القارئ الكريم، إن النفوس البريئة من اتباع الهوى المتجردة لطلب الحق تتأثر سريعاً بنداء الحق إذا وُجد من يحسن عرضه علي الناس، ويحاول أن يجذبهم إلي النور الذي هداه الله تعالي إليه، وهكذا دخل هؤلاء السادة في الإسلام بهذه السهولة، لقد كان مما هيأه الله تعالي لرسوله.

الإيمان بالله عزمة من عزمات الرجال، الذين توفرت فيهم دواعي العزة في أرقى معانيها، فطلبوها ممن لا يملكها سواه، فنالُوها بجدارة واستحقاق، لأنهم خلقوا لها، وكانوا هم أهلها، فخلد التاريخ ذكرهم، وأشاد بسيرهم ومآثرهم، فما أعظم ما يصنعه الإيمان بالنفوس المؤهلة، فإنه يخلقها خلقاً جديداً، ويصوغها صوغاً مجيداً، ويرفعها عن الدنايا إلي موطن النبل والشرف، ويحلق بها في سماء الروح بعد أن يخلصها من طينتها الأرضية، ويطهرها من أرجاس الشرك والوثنية.

وهذا واحدٌ من أولئك الذين شرح الله صدرهم للإسلام، وعمق في قلوبهم جذور الإيمان واليقين، وأمدهم بقوة خارقة للعادة في خدمة الدعوة ونصرة الدين حتى أتاهم اليقين، إنه الداعية الرائع مصعب بن عُمير رضى الله عنه، فتعالوا لنشهد بقلوبنا هذا الموقف الماتع.

كانت أم مصعب بن عمير رضى الله عنه خناس بنت مالك تتمتع بقوة فذَة في شخصيتها، وكانت تهاب إلى حد الرهبة، ولم يكن مصعب حين أسلم ليحاذر أو يخاف على ظهر الأرض قوة سوى أمه، فلو أن مكة، بل أصنامها، وأشرافها، وصحراءها، استحالت هؤلاً يقارعه ويصارعه، لا يستخف به مصعب إلى حين، أما خصومة أمه، فهذا هو الهول الذي لا يطاق، ولقد فكر سريعاً، وقرَّر أن يكتم إسلامه حتى يقضي الله أمراً.

وظل رضى الله عنه يتردد على دار الأرقم، ويجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو قرير العين بإيمانه، وبتفاديه غضب أمه التي لا تعلم خبر إسلامه حتى الآن، ولكن مكة في تلك الأيام بالذات، لا يخفى فيها سرٌّ، فعيون قريش، وآذانها على كل طريق، ووراء كل بصمة قدم فوق رمالها الناعمة اللاهبة.

ولقد أبصر به: عثمان بن طلحة وهو يدخل خفية إلى دار الأرقم، ثم رآه مرَة أخرى، وهو يصلي كصلاة محمد صلى الله عليه وسلم، فسابق ريح الصحراء وزوابعها، شاخصاً إلى أم مصعب، حيث ألقى عليها النبأ الذي طار بصوابها.

وقف مصعبٌ أمام أمِّه وعشيرته، وأشراف مكة مجتمعون حوله يتلو عليهم في يقين الحق وثباته، القرآن الذي يغسل به النبي صلى الله عليه وسلم قلوبهم، ويملؤها به حكمة وشرفاً، وعدلًا وتقي، وهمَّت أمه أن تسكته بلطمة قاسية، ولكن اليد التي امتدت كالسهم، ما لبثت أن استرخت، وتنحَّت أمام النور الذي زاد وسامة وجهه، وبهاءه جلالًا يفرض الاحترام، وهدوءًا يفرض الإقناع.

ولكن إذا كانت أمه تحت ضغط أمومتها ستعفيه من الضرب والأذى، فإن في مقدرتها أن تثْأر للآلهة التي هجرها بأسلوب آخر، وهكذا مضت به إلى ركن قصي من أركان دارها، وحبسته فيه، وأحكمت عليه إغلاقه، وظل رهين محبسه ذاك، حتى سمع بخروج بعض المؤمنين مهاجرين إلى أرض الحبشة، فاحتال لنفسه حين سمع النبأ، وغافل أمه وحراسه، ومضى إلى الحبشة مهاجراً أوَّابا.

هاجر مصعب إلي الحبشة مع سلة من إخوانه المؤمنين إلي أرض النجاشي، وأصاب الفتي المترف هناك من جدب العيش ما أصابه، حتى رجع عسير الحال فيمن رجعوا إلي مكة، وعاش في فقره المدقع يحس بالسعادة في ظل الرضا بالعقيدة، والصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تمضي الشهور، فيزداد الفتي توغلاً في الفقر والحاجة، واستمساكاً بالصبر والثبات.

حتى أنه أقبل ذات يوم والنبي صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه، وكان عليه رضى الله عنه قطعة مهلهلة من ثياب رثة كانت هي كل ما يملك هذا الفتي المترف، وقد وصلها بإهاب مرقع بمختلف القطع حتى تستره، وقد صار جسده يتحشف منه تحشف جلد الحية من شدة البرد، فلما رآه الصحابة نكسوا رؤوسهم رحمة وإشفاقًا، ألا يجدوا عندهم ما يرفع عن الشريف حرجه، وغضُّوا أبصارهم، وذرفت بعض عيونهم دمْعاً شجياً، ذلك أنهم رأوه يرتدي جلباباً مرقعاً بالياً، وعاودتهم صورته الأولى قبل إسلامه، حين كانت ثيابه كزهور الحديقة النضرة وألقاً وعطراً.
وتملى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مشهده بنظرات حكيمة، شاكرة محبّة، وتألقت على شفتيه ابتسامته الجليلة، وقال: لقد رأيت مصعباً هذا، وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه، ثم ترك ذلك كله حباً لله ورسوله.
لقد منعته أمه حين يئست من ردَّته كل ما كانت تفيض عليه من نعمه، وأبت أن يأكل طعامها إنسان هجر دين الآلهة، وحاقت به لعنتها، حتى ولو يكون هذا الإنسان ابنها!!
ولقد كان آخر عهدها به حين حاولت حبسه مرة أخرى بعد رجوعه من الحبشة، فآلى على نفسه لئن هي فعلت ليقتلن كل من تستعين به على حبسه، وإنها لتعلم صدق عزمه إذا همّ وعزم، فودعته باكية، وودعها باكياً، وكشفت لحظة الوداع عن إصرار عجيب على الكفر من جانب الأم، وإصرار أكبر على الإيمان من جانب الابن، حين قالت له وهي تخرجه من بيتها: اذهب لشأنك، لم أعد لك أمًا، اقترب منها، وقال: يا أمه إني لك ناصح، وعليك شفوق، فاشهدي بأنه لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أجابته غاضبة مهتاجة: قسمًا بالثواقب، لا أدخل في دينك فيُزرى برأيي، ويُضعَّفُ عقلي.
عبرة
يا شباب، لقد خرج مصعب من النعمة الوافرة التي كان يعيش فيها، مؤثراً الشظف والفاقة، وأصبح الفتى المتأنق المعطّر، لا يرى إلا مرتدياً أخشن الثياب، يأكل يوماً، ويجوع أياماً، ولكن روحه المتأنقة بسمو العقيدة، والمتألقة بنور الله، كانت قد جعلت منه إنساناً آخر يملأ الأعين جلالاً، والأنفس روعة.
يا أيها القارئ الكريم، المؤمن يشعر بنعمة الله عليه في كل شيء حوله، ويرى في كل ذرة في الأرض أو في السماء منحة من الله له تيسر له معيشته، وتعينه علي القيام برسالته في الحياة، إنه يرى نعمة الله في هبة الريح، وسير السحاب، وتفجر الأنهار، وبزوغ الشمس، وطلوع الفجر، وضياء النهار، وظلال الليل وتسخير الدواب وإنبات النبات.

من أعظم مناقب الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو كون الشيطان يفر من طريقه، وهذا من العجائب حقًّا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: يا ابن الخطاب، فوالذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك. وهذا فيه من فضيلة عظيمة للفاروق عمر رضى الله عنه تقتضى أن الشيطان لا سبيل له عليه، لا أن ذلك يقتضى العصمة، إذ ليس فيه إلا فرار الشيطان منه، أن يشاركه في طريق يسلكها، ولا يمنع ذلك من وسوسته له بحسب ما تصل إليه قدرته، فأي إيمان ذلك الذي يفر منه الشيطان.

وعن تلك الفضيلة العمرية الفريدة يخبرنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كما في صحيح ابن أبي شيبة يقول: خرج رجلٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقي الشيطان، فاشتجرا، فاصطرعا، فصرعه الذي من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فقال الشيطان: أرسلني أحدثك حديثاً عجيباً يعجبك.

قال ابن مسعود: فأرسله.

فقال الصحابي: حدثني؟

فقال الشيطان: لا.

فاشتجرا الثانية، واصطرعا، فصرعه الذي من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مرة أخرى، فقال الشيطان: أرسلني، فلأحدثك حديثاً يعجبك، فأرسله.

فقال الصحابي: حدثني.

فقال الشيطان: لا.

فاشتجرا الثالثة، فصرعه الرجل الذي من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ثم جلس علي صدره، فقال الشيطان: أرسلني.

فقال الصحابي: لا أرسلك حتى تحدثني.

فقال: سورة البقرة، فإنه ليس منها آية تقرأ في وسط الشياطين إلا تفرقوا، وتقرأ في بيت، فلا يدخل ذلك البيت شيطان.

فقالوا لابن مسعود: فمن ذلك الرجل، يا ابن أم عبد؟

قال: فمن عسى أن يكون إلا عمر بن الخطاب.

عبرة:

يا شباب، الشيء الذي كان متاحاً للصحابة الكرام رضوان ربي عليهم متاح لكم أيضاً، الله هوهو، كتابه بين أيديكم، فرص الأعمال الصالحة ما أكثرها، أعمال الدعوة، أعمال الخدمة، أعمال الإنفاق، أعمال الرعاية، والقوانين التي قنَّنها الله هي هي، إذا أخلصت له، وأقبلت عليه، واصطلحتَ معه ترى العجب العجاب، ترى العجب العجاب في سعادتك التي لم تكن تعرفها، في الطمأنينة التي كنت تفتقدها، في التوازن الذي كنت بحاجة إليه، في هذا اليسر في أعمالك الذي تلحظه بشكل صارخ.

يا أيها القارئ الكريم، إذا كنت حريصاً علي زيادة أيمانك فلتتعهد قلبك، فإنه محل العبودية وفيه تجتمع المشاعر والوجدانات من حب وبغض وخوف ورجاء ورهبة، وهو موضع نظر الله عز وجل، وقد جعل الله له قدراً عظيماً وفضله علي سائر الجوارح، فإذا وجدت في نفسك تكاسلاً عن

أداء الطاعات مثل التأخر عن الجماعات، وترك السنن، وهجر القرآن، وضعف في تحرى الحلال والحرام، فلم تعد تغض البصر، وتزداد الجلوس في مجالس اللهو فيتعلق القلب بالدنيا، ويزداد الحرص علي التمتع بمباهجها، فتظهر الأثرة، ويقل العفو والصفح، وتتضخم الذات، ويقل البذل والعطاء، فليراجع كل من نفسه، وليعلم أن الحال خطير، وإن الإيمان في ضعف شديد.

صاحب أغرب صدقة في التاريخ

من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رجالٌ لم ترفعهم أنسابهم ولا أحسابهم ولا أعمالهم التي يقومون بها عند الناس، لكنهم عند الله من الأكرمين، لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم وأمانتهم وتواضعهم، وتعففهم عن الدنايا، وبعدهم عما يشين البشر، ومن هؤلاء الصحابي الجليل عُلبة بن زيد بن حارثة الأنصاري رضى الله عنه، فتعالوا بنا لنتعرف علي حكاية عُلبة في غزوة تبوك، وقصة أغرب صدقة في تاريخ، وهل قبلت هذه الصدقة أم لا!!

لما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم لخروج لمواجهة الروم في غزوة تبوك - أو جيش العسرة كما كان يعرف - كانت حاجته صلى الله عليه وسلم للمال، لا تقل عن حاجته إلي الرجال، فجيش الروم أكثر من الرمال والحصة، وافر العدد والعتاد، وهو يقاتل علي أرضه.

أما المسلمون فكانت رحلتهم شاقة وطويلة، ومئونتهم قليلة، ورواحلهم أقل، وكانوا يعانون من جدب قلما أصيبت جزيرة العرب بمثلّه قط، فاضطرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لرد كثيرًا من الرجال عن الجهاد لأنهم لا يملكون رحلة تحملهم فتولوْا وأعينهم تفيض من الدمع لأنهم سيحرمونه من الاستشهاد لذلك قد عرفهم التاريخ بالبكائين.

كان عُلبة بن زيد رضى الله عنه من فقراء الأنصار لا مال له ولا رحلة، وكان علي شوق لأن يخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مجاهداً في سبيل الله، ويتصدق بشيء في سبيل الله، وتحير ماذا يصنع وهو لا يملك أي مال، ولو عنده شيئًا لبائعه كي يسهم في تجهيزا الجيش؟!

فخرج في آخر الليل في طرقات فصلي من ليلته ما شاء الله له أن يصلي في هدوء، وتفكير لا ينتهي، ثم بكي وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوي به مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تجعل في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحملني عليه، وإني أتصدق بعرضي علي من ناله من خلقك، وأتصدق علي كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في مال أو جسد أو غير ذلك!!

فلما أصبح علبة رضى الله عنه وشهد صلاة الصبح مع النبي صلى الله عليه وسلم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين المتصدق هذه الليلة؟!

فلم يقم أحد فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أين المتصدق؟ فليقم.

فقام علبة بن زيد فقال: أنا يا رسول الله.

فقال النبي صلي الله عليه سلم: أخبرني بما قلت.

فأخبر علبة النبي صلى الله عليه وسلم بما قال.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبشر يا علبة فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة، ففرح علبة بذلك.

عبرة:

يا شباب، في هذا الخبر مثل من الحب الكبير للعمل الصالح الذي يتنافس فيه المتنافسون من السابقين إلي الخيرات، فقد كان الصحابة يتنافسون في الصلاة والذكر والصيام وغير ذلك من الأعمال الصالحة المتيسرة لهم، ولكن حينما جاء التنافس في الإنفاق في سبيل الله صار فرسان الحلبة فيه هم الأغنياء والمتوسطون وقعد عنه الفقراء، فلما رأى ذلك علبه بن زيد وهو من الفقراء

تاقت نفسه للإنفاق ليُسْهم في هذا العمل الصالح الذي حث عليه النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لم يكن في مقدوره ذلك فدعا بهذا الدعاء العجيب.

وهكذا يبلغ حب الخير فيه عند هذا الصحابي الجليل حداً شغل تفكيره حتى كان يفكر في الليل ولقد تفتق ذهنه من ألم الحرقة وكثرة التفكير في هذا الأمر إلي أن يتصدق بعرضه علي من ناله من عباد الله تعالي.

لقد تصدق بشيء ما، ولكن هل تقبل هذه الصدقة؟ وهل يكون في عداد السابقين بالخيرات الذين بذلوا من أموالهم؟ هذا ما رجاه علبة بن زيد رضى الله عنه، وهذا هو الذي كان في ميسوره، ولقد كان الأمر من الأهمية بحيث نزل فيه الخبر من السماء علي رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث بشَر عُلبة بأن صدقته تلك قد قبلها الله تعالي.

إن الإنسان بما منح من قوة العقل، وما أعطى من الاختيار والقدرة بملكه أن يخالف هواه ويسيطر علي نوازع الشر ويكبتها، ويجاهد نفسه ويحملها علي السمو في درجات الخير والتقوى، فيبوئها المرتبة اللائقة بها من التكريم والتفضيل، فإن هو فعل ذلك كان سلوكه عنوان قوته العقلية، وبشريته المثاليةَ، وإنسانيته المتكاملة، وإن هو انهزم أمام نوازع الشر، واستسلم لهواه وانحدر في دركات الرذيلة فقد انحط بإنسانيته، وأسف بكرامته فكان هذا عنوان حماقته وضعفه.

إن معرفة الإنسان ويقينه في أنه علي الحق من أعظم أسباب الثبات علي هذا الدين، فالدنيا بكل ما فيها من زُخرف ومتاع قال عنها خالقها عز وجل: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} (الحديد: ٢٠)

وها نحن نلتقي مع صنف كريم استشعر نعمة الإسلام وعاش بها، بل وتعايش معها قلباً وقالباً فترك الدنَيا بزخرفها الفاني، وخرج مهاجراً إلي الله ورسوله، إنه واحد من الذين عناهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعْرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبْراء مظْلمة، نحن علي موعد مع الصحابي الجليل عبد الله ذو البجادين رضى الله عنه.

كان عبد الله رضى الله عنه يتيماً لا مال له، فلقد مات أبوه، ولم يورثه شيئًا، وكفله عمه حتى أيسر، فلم قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة جعلت نفسه تتوق إلي الإسلام، ولا يقدر عليه من عمه حتى مضت السنون.

فقال لعمه: يا عم، إني قد انتظرت إسلامك، فلا أراك تريد محمداً، فائذن لي في الإسلام، فقال: والله لئن اتبعت محمداً، لا أترك بيدك شيئًا كنت أعطيتكه إلا نزعته منك، حتى ثوبْيك، فقال: فأنا والله متبع محمداً، وتارك عبادة الحجر، وهذا ما بيدى فخذه، فأخذ ما أعطاه حتى جرَده من إزاره.

فأتي أمَه فقطعت بجادًا لها باثنين - أي الكساء الغليظ الجافي -، فائتزر بواحد وارتدي الآخر، ثم أقْبل إلي المدينة، وكان بورقان فاضطجع في المسجد في السَحر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتصفح الناس إذا انصرف الصبح، فنظر إليه فقال: من أنت؟ فانتسب له، وكان اسمه عبد العزّى، فقال: أنت عبد الله ذو البجادين، ثم قال: انزل منى قريبًا، فكان يكون في أضيافه حتى قرأ قرآنا كثيرًا.

وعاش ذو البجادين رضى الله عنه في سعادة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالي، فقد لامس الإيمان شغاف قلبه، وامتلأ بنور الإيمان، فكان يذكر الله كثيرًا ولا يفتر لحظة عن ذكره، وكيف يفتر الحبيب عن ذكر حبيبه؟!

وظل رضى الله عنه ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم ملازمة العين لأختها ليقبس من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة، وبلغت محبة النبي صلى الله عليه وسلم في قلبه مبلغاً لا يعلمه إلا الله حتى إنه أحسَ وكأن الله قد جمع له نعيم الدنيا بأسرها في تلك اللحظات التي كان ينعم فيها بالقُرب من الحبيب صلى الله عليه وسلم.

وقد كان عبد الله ذو البجادين رضى الله عنه إذا قام يصلي من الليل جهر بالدعاء والاستغفار فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: يا رسول الله أمراء هو؟، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعه يا عمر فإنه من الأوَاهين.
لقد نادتْهُ الدنيا فأصم أُذنيْه عن سماع أصوتها، وأقبل علي الأخرة يطلبها من كل سبيل: لقد طلبها بالدعاء الَذي كان يجأر به في خشية وخشوع، حتي أنه كان يعرف بالأوَاه كم أطلق عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطلبها بالْقرآن.. فكان لا يفْتأُ يعطر بشذى آياته البيَنات أرْجاء الكون، وطلبها بالجهاد، فكانت لا تفوته غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وهكذا عاش عبد الله ذو البجادين حياته في نسك وطاعة وزهد وجهاد حتى جاءت غزوة تبوك، ونادي منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا خيل الله أركبي، حي علي الجهاد، فخرج عبد الله في صفوف القوات الإسلامية، ولما تحركت طلائع الإيمان نحو تبوك، سأل ذو البجادين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بالشهادة، فدعا له بأن يعصم دمه من سيوف الكفار، فقال له: بأبي أنت وأميَ يا رسول الله، ما هذا أردت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا خرجت غازياً في سبيل الله فمرضت فمتَ فأنْتَ شهيدٌ، وإذا جمحت بك دابَتُكَ فسقطت فقُتلْت فأنْتَ شَهيدٌ.
لم يمض علي هذا الحديث غير يوم وليلةٍ حتى حمَ الفتى المزَنيٌ ومات، لقد مات مُهَاجراً إلي الله، مجَاهداً في سبيل الله، بعيداً عَن الأهل والْعشيرة، غريباً عَن الوطن والدار.
فعوضه الله عن ذلك كله خير العوض، فلقد خط له الصحابة الكرام قبره بسواعدهم الطاهرة، ونزل في قبره الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بنفسه، وسوَاه له بيديه الشريفتين، ولقد دلاَه إلي القبر الشيخان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما حيث قال لهما الرسول صلوات الله وسلامه عليه: قربا إلي أخاكُما فأنزلاهُ إليه، فتناوله منهما، وأسكنهُ في لحده، فلما فرغ من دفنه استقبل القبلة رافعاً يديه وهو يقول: اللهَم إني أمسيت عنه راضياً فارض عنه.
وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه واقفاً يشهد ذلك كله، فقال: يا ليتني كنت صاحب هذه الحفْرة والله، وددت لو كنت مكانه، وقد أسلمت قبله بخمس عشرة سنة.
عبرة:
يا أيها القارئ الكريم، في هذا الخبر موقف لعبد الله ذي البجادين، وذلك فيما تحمَله من أجل دخوله في الإسلام حيث سُلب ماله كله حتى ثيابه، لقد وقع بين خيارين: إما أن يدخل في الإسلام ويذهب منه كَلُ شيء من الدنيا، وإما أن يبقى علي الكفر وتبقى له حياته التي يعيش فيها وكل ما يملكه، ولكنه لقوة إيمانه، وصدق توجهه لم يتردد بين الخيارين بل عزم علي الإسلام، وإن فقد كل شيء.
لقد هاجر هذا الشاب إلي المدينة وكانت له مكانةَ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم من تضحية كبيرة من أجل إسلامه، وكان يعامله بلطف وحنان، ومن ذلك أنه لما اشتكاه عمر رضى الله عنه إلي النبي صلى الله عليه وسلم بسبب رفع صوته بالقرآن والدعاء قال له: دعه يا عمر فإنه خرج مهاجراً إلي الله ورسوله، يعني فهو يحتاج إلي لطف في المعاملة وتغاض عما يصدر منه أخطاء لحداثة عهده بالإسلام.
لقد كان إيمان هذا الشباب قوياً حينما طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله تعالي له بالشهادة، إن الشهادة في سبيل الله تعالي غاية سامية لا يصل إليها إلا من ارتفع مستوى إيمانهم وعظم يقينهم حتى أصبحوا كأنهم يشاهدون الجنة فهم يتُوقُون إلي الوصول إليه بأسرع طريق.

ولقد حصل عبد الله علي الشهادة من غير أن يقتل وذلك حينما مات في تبوك، وكان النبي صلى الله عليه وسلم بشره قبل ذلك بأن من مات وهو خارج في سبيل الله تعالي فهو شهيد، فمات شهيداً وظفر برضا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ودعائه له حتى تمنى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن يكون مكانه.

وكرم الجيل الرباني

إيثار منقطع النظير

حينما هاجر المهاجرون إلى المدينة المنورة كانوا لا يملكون مِن أمر الدنيا شيئًا، فقد تركوا أموالهم وما يملكون خلف ظهورهم، وأقبلوا على ما عند الله عز وجل يرجون رحمته ويخافون عذابه، فاستقبلهم الأنصار الذين تبوَّؤوا الدَّار، وضربوا أمثلة عالية في إيثار المهاجرين علي أنفسهم، فأكرموهم أيَّما إكرام، ولم يبخلوا عليهم بشيء مِن حطام الدنيا، في صورة يعجز عن وصفها اللسان، ويضعف عن تعبيرها البيان.

ولقد ذكرهم الله تعالي بالصفات العالية في القرآن فقد قال عنهم رب العزة سبحانه: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الحشر: ٩).

أي والأنصار الذين اتخذوا المدينة مباءة لهم - يعني مسكنا ثابتًا -، والذين آمنوا بالإسلام وثبتوا عليه في المدينة قبل قدوم المهاجرين إليهم {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} من إخوانهم أهل مكة وغيرهم من المسلمين.

ومن مظاهر حب الأنصار للمهاجرين أنهم قدموهم في الولاء والنصرة علي حلفائهم من اليهود، بل قدموهم علي أقاربهم الذين لم يدخلوا في الإسلام.

ومن مظاهر هذا الحب أيضاً أنهم تنازلوا لهم عن محبوبات الدنيا التي يتنافس عليها الناس عادةً من الأموال والمساكن ونحو ذلك**!!**

{وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا}. فإذا قدم النبي صلى الله عليه وسلم المهاجرين بشيء من أمور الدنيا المعنوية كالولايات أو المادية كأموال الفيء، فإن الأنصار لا يجدون في صدورهم أي شيء من التأثر والكراهية فضلاً عن الحسد، وهذا دليل علي كمال حبهم إياهم، وطهارة قلوبهم نحوهم.

{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}. يعني ويقدمون إخوانهم المهاجرين علي أنفسهم بمتاع الدنيا، وإن كان هؤلاء الأنصار فقراء يحتاجون إلي ذلك المتاع.

إن الإيثار أعلى من المواساة، والأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم، وزادوا علي ذلك بأن آثروهم علي أنفسهم بخير الدنيا، وهذا شاهد علي صدق محبتهم وقوة إيمانهم.

ولقد كان شكر المهاجرين للأنصار عاليًا، ولقد سجلوا ذلك بثنائهم عليهم عند النبي صلى الله عليه وسلم.

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: لما قدم المهاجرون المدينة نزلوا على الأنصار في دورهم، فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد أشركونا في المهنأ وكفونا المؤنة، ولقد خشينا أن يكونوا ذهبوا بالأجر كله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم به عليهم.

وفي إشارة المهاجرين إلي الأجر الأخروي بيان لعمق تصورهم للحياة الآخرة، وهيمنة هذا التصور علي تفكيرهم.

عبرة:

يا أيها القارئ الكريم، من يتأمل الحب الكبير بين المسلمين في العصر الأول يقول: هذا ليس من تأثير بشر، وعمل إنسان، وإنما بفضل الله ورحمته سبحانه وتعالي، وصدق رب العزة إذا قال: {لَوْ

أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (الأنفال: ٦٣).

{وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} (آل عمران: ١٠٣).

وأولى ثمار هذا الحب في الله هو تلك الأخوة، وهذا الإيثار الذي ظهر بين المهاجرين والأنصار، فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا حتى أشاد القرآن بهذا السمو الروحي فقال سبحانه: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الحشر: ٩).

شعر الأنصار بحاجة إخوانهم من المهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكة في سبيل الله، فقدروا ظروفهم، فآووهم ونصروهم، وضربوا في الإخلاص والتفاني المثل الأعلى حتى قال الله فيهم: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}.

من خلال هذا الموقف نجد في أصحاب النبيِّ ورعًا ما بعده ورع، وزهدا ما بعده زهد، وتضحية بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس، في سبيل الحق، فإذا أردتم أن يرضى الله عنكم فعليكم بالورع، ومن لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله، هذا في الورع، أما الزهد فهو انتقال الدنيا من قلبك إلى يديك، إن كانت في القلب فهي مصيبة، لأن القلب إذا أحبَّ الدنيا حبًّا جمًّا كان له هذا الحب حجاباً عن الله عز وجل، والدنيا أحيانا يمكن أن تسهم في خدمة الخلق، في حلّ مشكلات الناس، في الرقيِّ عند الله عز وجل، فالقاسم المشترك هو الورع والزهد والتضحية والحبُّ، فحبهم للنبي صلى الله عليه وسلم كان من أعظم ما يميز هؤلاء عن سائر البشر.

الإيثار خلق نبيل يشرف به المرء ويرتفع، حيث يقدمغيره علي حظوظ نفسه وما تشتهيه، يبعث عليه تقوى الله تعاليورجاء ما عنده في الآخرة، ولقد أثنى الله عز وجل علي الصحابة رضى الله عنه لوجود هذه فيهم:{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}(الحشر:٩). ونحن في هذه السطور نعيش بقلوبنا مع صحابية تمييزت بالجود والكرم إنها أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما.

في شخصية أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما جوانب رائعة تدل علي تفردها في مجالات الخير، فقد بارك الله سبحانه في عمرها، فعمّرت دهرًا قارب مائة سنة؛ ولم يسقط لها سن، وظلت محتفظة بعقلها؛ ورأيها الصائب؛ وكلماتها الرائعة، ولم تتوقف عن العطاء وأعمال البر والخير.

لقد جمع الله عز وجل لأسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما من خصال الخير، وأعمال البر، ورجاحة العقل ما لم يجتمع إلا للقليل النادر من الأتقياء من البشر، ومن أبرز الخصال التي فطرت عليها أسماء رضى الله عنها السخاء الذي ورثته عن أبيها الصديق رضى الله عنه، ومن كأبي بكر في الجود في الجود والسخاء والكرم؟!

أضاف إلي ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصاها بمحاسن الجود والكرم، فقد جاء عنها إنها قالت: مرَ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أحصي شيئًا وأكيله فقال: يا أسماء لا تحصي فيحصي الله عليك.

ولذلك كانت يُضرب بجودها وكرمها المثل، فكانت تنفق بسخاء، وما نسيت وصية الحبيب صلى الله عليه وسلم لها، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في هذه السطور في رحاب الإيثار والجود والسخاء والكرم لهذه السيدة الفاضلة العظيمة.

لقد كانت أسماء تتنافس مع أختها عائشة رضى الله عنهما في الجود والسخاء، وهما في الآخرة علي موعد مع الرضوان؛ لأن الكريم قريب من الله قريب من الجنة بعيد عن النار، وأي صفة في البشر أعظم من الكرم؟! إنه خير ما يتحلى به المؤمن في دنياه، وخير ما يحمد به في أخراه.

فقد قال عبد الله بن الزبير في وصف أمه وخالته: ما رأيت امرأة قط أجود من عائشة وأسماء، وجودهما مختلف؛ أما عائشة فكانت تجمع الشيء إلي الشيء، حتى إذا اجتمع عندها وضعته مواضعه، وأما أسماء، فكانت لا تدخر شيئًا لغد.

ولكل منهما في الخير وجهة؛ فأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كانت تستحي أن تتصدق بالقليل؛ فتنتظر رويدًا حتى تضيف إليه ما يقضي للفقير حاجة من حوائجه.

وكانت أسماء تجود بما عندها من قليل أو كثير؛ مسارعة في الخيرات، وخوفاً من أن يعاجلها الموت؛ فتموت وفي بيتها ما تتصدق به.

يروى ابن سعد في الطبقات: أن أسماء كانت تمرضُ المرضة، فتعتق كل مملوك لها؛ خوفاً من أن تموت، وتترك خلفها مالاً لم تتصدق به.

وكانت رضى الله عنها دائماً تحث بناتها علي السخاء قائلة: يا بناتي تصدقن؛ ولا تنتظرن الفضل، فإنكن إن انتظرتن الفضل لن تجدنه، وإن تصدقتن تجدنه.

وكانت تقول لابنها عبد الله: يا بني، عشْ كريماً، ومُتْ كريماً، لا يأخذك القوم أسيراً، كأنها رضى الله عنها تشير إلي قول القائل: منْ أعطاك فأنت أسيره، ومن أعطيته فأنت أميره.

عبرة:
يا أيتها الأخوات المؤمنات، كانت أسماء رضى الله عنها مثال الزوجة الصابرة الشاكرة، وكانت دائمًا معواناً لزوجها في أعماله، مطيعة له، تخدمه وتسوس له فرسه، تصبر علي شدته وغيرته وفقره، ولا تشكوه لأبيها ولا لغيره، تحتسب ذلك كله عند الله عز وجل؛ فقد رباها الإسلام أحسن تربية، وكان للبيت الذي عاشت فيه أثر طيب في سياسة الأسرة، وتدبير شؤون الزوج والأولاد.
ولعلها كانت أمها تحاكي ما كانت تصنعه أمها قيلة بنت عبد العزى رضى الله عنها؛ فقد كانت تطيع زوجها وتحسن عشرته، وتواجه بحلمها حدته وشدته في بعض الأحيان بسبب أمور الدعوة - فقد كان الصديق الداعية الأول للإسلام -، والأم مدرسة لأولادها، يتعلمون منها الكثير من أخلاقها وسلوكها.

الإخاء الحق في الله هو الذي تذوب فيه عصبيات الجاهلية، فلا عزة إلا بالإسلام، ولا رفعة إلا بالإيمان، وهو الذي تسقط فيه فوارق النسب واللون والوطن، وتسقط فيه تلك الأنانية الجشعة، ويتحرك فيه الفرد بحب الجماعة فلا يرى لنفسه مصلحة دونها ولا عزة بغيرها، هذا الإخاء لا ينبت إلا في مجتمع الإيمان، ولا يثمر إلا في ظلال التعاليم الربانية، فلا يظهر في البيئات الجاهلية، ولا تعرفه مجتمعات الجشع والجبن والبخل والرذيلة، وهكذا كان المجتمع المدني في العاصمة الإسلامية في المدينة المنورة، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد لهذه الأخوة التي لن تتكرر في تاريخ.

لمَا وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلي المدينة سمى المؤمنين اليثربيين الأنصار، ثم ربطهم بالمهاجرين برباط المؤاخاة، فأصبح كل أنصارى أخًا لواحد من المهاجرين، مثل أخيه لأمه وأبيه، له ما له، وعليه ما عليه، وقد هب الأنصار في سرور يؤدون حق ذلك الإخاء، وقسم كل منهم ماله نصفين، وخير أخاه المهاجر بينهما، يختار منهما ما يحب.

وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف، وبين سعد بن الربيع رضى الله عنهما، وكان سعد أحد سادة الأنصار وزعمائهم، فقال سعدٌ لأخيه عبد الرحمن: يا أخي أنا أكثر أهل المدينة مالاً، وعندي بُسْتانان، ولي امرأتان، فانظُرْ أيُ بسْتاني أحب إليك حتى أخرُج لك عنه، وأي امرأتي أرضى عندك حتى أُطلقها لك.

فأسرع عبد الرحمن، بوجه شاكر ولفظ رقيق: بارك الله لك يا بن الربيع في مالك وأهلك، وزادك من خيره وفضله، لا حاجة بي إلي شيء من ذلك، ولكن إذا أصبحت فدُلني علي السوق. فقال سعْد: وماذا تصنع فيه يا بن عوف؟!

قال: أشترى وأبيع وأكسب، وسوف يسرك ما تراني عُدْت به من الربْح الحلال.

قال سعد: بغير مال تتجر فيه يا عبد الرحمن، لا بد لك من مال يُقدرك علي الأخْذ والعطاء، وقد تركت مالك كله في مكة، فاستولى المشركُون عليه، ولا ترضى علي مشاركتي في مالي أو بعْضه، فكيف تشترى وتبيع؟

قال عبد الرحمن: رأْس مالي يا بن الربيع معي دائماً أينمَا كنت: عقْلي، وإدْراكي، وحسُنْ تصرفي، وقدرتي علي الأخذ والعطاء، واجتذاب التجار، فدله سعد علي السوق، فجعل يتجرُ، وطفق يشتري ويبيع، ويربح ويدخر، حتى كان يقول عن نفسه: وأحسبني لو رفعت حجراً من مكانه، لو جدت تحته ذهباً وفضة!!

عبرة:

يا أيها القارئ الكريم، إن الصحابة الكِرام كانوا مثلاً علياً في التضحية والفداء والبذل، فلما هاجروا إلى المدينة أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يتآخوا اثنَين اثْنين، فعبد الرحمن بن عوفٍ كان نصيبه سعد بن الربيع رضى الله عنهما، وهو أنصاري، وعبد الرحمن ابن عوف مُهاجِر، ولما انتَقَل إلى المدينة كان بِلا مالٍ، تصَور أن شخصاً ترك كل ثَروته من أراضٍ ومصانع وسيارات ومسكن، وأموالٍ ضخمة، ثم يذهب إلى مكانٍ آخر وهو مفلِس، هكذا كان الصحابة، تركوا كل أموالهم وهاجروا مع النبي صلى الله عليه وسلم، فسعد بن الربيع قال له: يا أخي أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظُر شَطْرَ مالي فخذْهُ، فقال له عبد الرحمن بن عوفٍ: بارك الله لك في مالك، ولكن

دُلّني على السوق، هؤلاء الصحابة الكِرام الأنصار الذين أظهروا أعلى درجات المُؤاثرة قابَلهم المُهاجِرون بأعلى درجات العِفة.
لذلك لم يسجل التاريخ أن مهاجِراً واحداً أخذ شطر مال أخيه الأنصاري، فإذا كان الإنسان ضيق ذات اليد فله طريقان: الطريق الأكمل أن تقول: يا رب أُرزقني من فضلك، ولا تحوِجني إلى أحدٍ سِواك، ولا تجعل حاجتي إلا إليك، لأن الإنسان إذا أعطى فعطاؤه غير عطاء رب العالمين، قيل: اِحتج إلى الرجل تكن أسيره، وأْستغنِ عنه تكن نظيره، وأحسِن إليه تكن أميره.
وهكذا جمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بين الدنيا والآخرة، فملكوا الدارين، إن الذين عاشوا في هذه الحياة كسالى، ومردُوا علي البطالة وسؤال الناس، ارتكبوا جناية في حق أنفسهم وأولادهم، وأساءوا لأمته وملتهم، إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم علموا أن من كرس حياته للحق والخير، فعمله عبادة، وكل قطرة عرق تبذل فيه فهي آية جهاد، توضع في موازين المرء مع صلاته وزكاته، فالعمل هو وسيلة البقاء، والوسيلة تتبع الغاية في شرفها وخسَتها.

ربما يعيش الإنسان زماناً طويلاً علي هامش الحياة لا يدرى له هدفاً ولا يعلم لنفسه وجهة، مع أن الخير الذي بداخله تحتاج إليه أمة بأسرها، في الوقت الذي لا يعلم هذا الإنسان قدر نفسه، فإذا جاء الموعد الذي أراده الحق جل وعلا، فإن هذا الإنسان استيقظ فطرته من سُباتها العميق، وإذا به يعلم هدفه، ويحدد وجهته وينفض غبار الغفلة ليحمل أمانة هذا الدين ويعز الله به الإسلام وأهله، وها نحن نتعايش من خلال هذه السطور مع الصحابي الجليل النعمان بن مقرن رضى الله عنه، وهو من هذا الصنف من الرجال.

كانت قبيلة مزينة، تتخذ منازلها قريبة من مدينة رسول الله صلى الله علية وسلم، على الطريق الممتدة بين المدينة ومكة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد هاجر إلى المدينة، وجعلت أخباره تصل تباعاً إلى مزينة مع الغادين والرائحين، لأن مزينة كانت على الطريق بين مكة والمدينة كما ذكرنا، كانت هذه القبيلة، لا تسمع إلا خيراً عن رسول الله وأصحابه، لقد كانت منصفة. والمؤمن من صفاته أنه منصف ينصف الناس من نفسه.

وفي ذات عشيةٍ، جلس سيِّد القوم الصحابي الجليل النعمان بن مقرن رضى الله عنه في ناديه مع أخوته، ومشيخة قبيلته، فقال: يا قوم، واللهِ ما علِمنا عن محمدٍ إلا خيراً، ولا سمعنا من دعوته إلا مرحمة، وإحساناً، وعدلاً، فما بالنا نبطئ عنه، والناس يسرعون إليه؟

ثم قال لقومه: أمّا أنا فقد عزمت على أن أغدوَ عليه إذا أصبحت، فمن شاء منكم أن يكون معي فليتجهَّز، وكأنما مسَّت هذه الكلمات وتراً مرهفًا في نفوس القوم، فما إن طلع الصباح حتى وجد أخوته العشرة، وأربعمائة فارسٍ من فرسان مُزينة قد جهَّزوا أنفسهم للمضي معه إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، للقاء النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، والدخول في دين الله، -انظر إلى القدوة، لذلك في القرآن آيات كثيرة تشير إلى القدوة -.

لكن النعمان بن المقرن المزني قد استحيا أن يَفِدَ مع هذا الجمع الحاشد على النبي صلى الله عليه وسلم دون أن يحمل له، وللمسلمين شيئًا يقدِّمه، وفي المسلمين فقراء، وذو حاجة، فأراد أن يقدِّم للنبي بعض الهدايا، لكن السنة العجفاء المجدبة التي مرت بها مزينة لم تترك لها ضرعاً ولا زرعاً، فطاف النعمان ببيته، وبيوت أخوته، وجمع كلما أبقاه القحط من غنيمات، وساقها أمامه، وقدم بها على النبي صلى الله عليه وسلم، وأعلن هو ومن معه إسلامهم بين يديه.

حينما رأى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم سُرَّ أشدَّ السرور، واهتزت المدينة من أقصاها إلى أقصاها، فرحاً بالنعمان بن مقرن وصحبه، إذ لم يسبق لبيتٍ من بيوت العرب أن أسلم منهم هذا الجمع الغفير، وتقبل الله عز وجل غُنيماته، وأنزل فيه قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة:{وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(التوبة: ٩٩).

عبرة:

يا شباب، إن الإنسان إذا أقبل على هذا الدين، وأقبل على ربه، وانضوى تحت لواء المؤمنين، استقام على منهج الله، بذل كل شيءٍ في سبيل الله، وتألّقت روحه، وأشرقت نفسه، و اطمأن قلبه، وأنت جاره، صديقه، أخوه، زميله، ألا تغار منه؟ فما بالنا نبطئ عنه، والناس يسرعون إليه؟ وهكذا قال بعض العلماء: الشريعة رحمة كلها، عدلٌ كلها، مصلحةٌ كلها، فأية قضيةٍ خرجت من

الرحمة إلى القسوة، من العدل إلى الجور، من المصلحة إلى المفسدة، فليست من الشريعة، ولو أُدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل، هذا هو الشرع.
لقد نجاح الإنسان في إزاحة عوائق البخل التي تعترض مشاعر الخير فيه هو في نظر الإسلام فضيلة كاملة، إذ المعروف أن المرء يشتد أمله في الحياة، وتتوثق أواصره بها عندما يكون صحيح البدن، طامحاً في المستقبل، يقتصد في نفقته ويضاعف في ثروته، ليطمئن إلي غد أرغد له ولذريته، فإذا غالب هذه العوامل كلها وبسط كفه في ماله، ينفق عن سعة ولا يخشى إقلالاً ولا ضياعاً، فهو يفعل الخير العظيم.

سوف يظل الإيمان خاملاً إن لم يبرز عنه عطاء غير محدود، وتضحيةَ عزيزةَ، وكيف لا والحق سبحانه وتعالي يقول: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} (التوبة: ١١١)، بل ونجد الحق سبحانه وتعالي يجعل الجهاد والتضحية بالنفس والمال من موازين الإيمان فيقول رب العزة سبحانه: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (الحجرات: ١٥).

والرسول صلى الله عليه وسلم أول من ضحى بوقته كله، وجهده وأهله وعشيرته ووطنه وماله، والسيرة النبوية مليئة بصور عديدة لهذا العطاء، وتلك التضحية، وكيف لا؟ وهو القدوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ولقد رأينا في حياة الصحابة نماذج من العطاء والبذل والتضحية بكل شيء، فهذا عثمان بْن عفان رضى الله عنه يقوم بتجهيز جيش تبوك الضخمة، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الخالد.

في العام التاسع الهجري ولَّى هِرقل الإمبراطور الروماني وجهه صوب الجزيرة العربية، متوجهاً برغبةٍ العدوان عليها والتهامها، وكان الدين الجديد برسوله العظيم صلى الله عليه وسلم، ورجاله الشجعان البواسل قد ملؤوا حياته وحياة بيزنطة كلها قلقاً وخوفاً بعد النصر الحاسم يوم مؤتة الخالدة، فهذا الإمبراطور بعد أن انتصر على جيوش إمبراطورية فارس قرر أن يسير إلى الجزيرة العربية ليستولي عليها، فأمر قوَّاته بالاستعداد وانتظار أمره بالزحف.

ترامت الأنباء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فنادي أصحابه للتهيّؤ للجهاد، وكان الصيف حاراً يصهر الجبال، وكانت البلاد تعاني من الجدب والعسر فيما تعاني، فإذا قاوم المسلمون بإيمانهم وطأة الحر القاتل، وخرجوا إلى الجهاد عبْرَ الصحراء الملتهبة، فمِن أين لهم العتاد، والنفقات الباهظة التي يحتاجها القتال؟

فالقضية خطيــرة جداً، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا بدَّ أن يذهب لملاقاتهم وإلا يستضعفونه، وهذه الغزوة التي كانت في أشهر الصيف، والوقت شديد الحرارة، والبلاد مجدبةٌ، فالسنة سنة محل، فلا مال لديهم، ولا عتاد كافٍ بين أيديهم، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصفوف الطويلة العريضة من الذين تهيَّؤوا للقتال، فكل واحد منهم يحتاج إلى فرس ليركبه، وسيف، وعتاد، ومؤونة، وقال: من يجهِّز هؤلاء، ويغفر الله له؟

وما كاد عثمان يسمع نداء النبي صلى الله عليه وسلم حتى سارع إلى مغفرة الله ورضوانه، وهكذا وجدت العُسرة الضاغطة عثمانَها المعطاء، وقام رضى الله عنه بتجهيز الجيش كله، حتى لم يتركه بحاجةٍ إلى خطام بعيرٍ، أو عِقال فرسٍ، يقول ابن شهاب الزهري: قدَّم عثمان لجيش العسرة في غزوة تبوك تسعمائةٍ وأربعين بعيراً، وستين فرساً أتمَّ بها الألف.

ويقول حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: جاء عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم لتجهيز جيش العُسرة بعشرة آلاف دينار، صبَّها بين يدي النبي صلَّى الله عليه وسلم، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقلِّبها بيده ويقبلها، ويقول: غفر الله لك يا عثمان ما أسررت، وما أعلنت، وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة.

طبعاً موقعة تبوك لم يقع فيها قتال بين الطرفين، فهذا الإمبراطور جاءه ما يشغله عن مهاجمة الجزيرة، فصرف النظر عن الدخول إلى الجزيرة، وكفى الله المؤمنين القتال، ولكن هناك تعليق

لطيف، فعثمان رضى الله عنه، ومع أن الحرب لم تقع، والجيش لم يحارِب، لم يسترد شيئًا مما أعطى، وهذا الذي أعطاه بقي للمسلمين.
عبرة:
يا أيها القارئ الكريم، كان عثمان بن عفان رضى الله عنه هذا الصحابي الجليل سخياً إلى درجة تأخذ بالألباب، كان سخياً إلى درجة لا تصدق، ففي بعض مواقف سخائه أمام النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الَّلهم ارض عن عثمان فإني أمسيت عنه راضِياً، وفي رؤية أخرى أنه قال له: ما ضرَّ عثمان ما صنع بعد اليوم، الَّلهم ارض عن عثمان، فإني عنه راضٍ.
هل هناك يا أخوة مرتبة أسمى مِن أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ما ضرَّ عثمان ما صنع بعد اليوم هذا القول قد يفهم فهماً معكوساً، وهو أنه بعد أن أنفق هذه النفقة لو ارتكب كل المعاصي، فهذه المعاصي لا تضرّه، ليس هذا هو المعنى، هذا السخاء الكبير جعله على درجة من القرب كبيرة جداً، هذه الدرجة لن تسمح له أن يفعل شيئًا، هذه الدرجة العالية من القُرب لن تسمح له أن يقترف ذنباً، أي أن كل أفعاله لا تمتّ إلى الذنوب بصلة.
الموقف الكبير المدهش الذي أثار إعجاب النبي صلى الله عليه وسلم وسروره البالغ وهو ما قدمه ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه من مال كثير جهز به النبي صلى الله عليه وسلم جيش العسرة حتى عُرف عثمان بمجهَز جيش العسرة، ولقد تنوعت نفقته، ما بين مال نقدي وتجهيز للإبل التي تحمل المجاهدين تجهيزًا كاملاً.
وهنا وفي مثل هذه الحال يظهر فضل الأغنياء المنفقين، الذين بذلوا جهودًا كبيرة في التجارة لا من أجل جمع المال وكنزه لتكون المائة مائتين والألف ألفين، وإنما ليكونوا بأموالهم رصيداً لاحتياج أمتهم، فإذا هُدَدت دولة الإسلام من الأعداء أو أصيب المسلمون بحوائج كانوا موئل المحتاجين وأمل المتضررين، والدرع الواقية للأمة بتجهيز الغزاة في سبيل الله تعالي.

حين نعود إلي سير الأبطال العظماء من خيرة الرجال، وصفوة الصفوة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، تبهرنا أضواء عزتهم وعبادتهم وقوتهم المادية والمعنويةَ في الحياة، نشعر أننا أمام كواكب نيرة، ونجوم زاهرة أنارت قلوبنا، وأرشَدتنْا إلي طرق الهدى، ومسالك الخير، وجمعتنا علي الله عز وجل، وردتنا إلي الفطرة التي فطرنا عليها، ومن هؤلاء الأخيار الأبرار الصحابي الجود العابد التقي النقي عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه، ومن المواقف التي لا تنسى لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه موقفه الخالد يوم تجهيز جيش العسرة، فتعالوا بنا لنستمتع بهذا المشهد الرائع في البذل والتضحية بالمال في سبيل الله عز وجل.
مضى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ذلك البطل الشجاع الكريم العطوف، مع رسُول الله صلى الله عليه وسلم في جهاد المضْني، متقرباً إلي ربه بماله وروحه، يزْدادُ كلما خفقتْ راية الإسلام علي ربوة جديدة، حتى فتحت مكة، وأقبلت الوفُود من أنحاء الجزيرة، تقدم الطاعة، وتدْخلُ في دين الله، ثم جاءت غزوة تبوك وهي آخر غزوة لرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه.
كانت الحاجة إلي المال لا تقل عن الحاجة إلي الرجال، فجيش الروم البيزنطيين هو الأقوى علي وجه الأرض، وافر العدد كثير العدة، وكان هذا العام قد ضرب الجزيرة العربية جدب وقحط، والسفر طويلٌ، والمؤُونة قليلة، والرواحل أقل حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم رد كثير من المؤمنين لأنه لم يجد عنده ما يحملهم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون، فسُموا بالبكائين، وأطلق علي الجيش اسْمُ جيش العسرة.
عند ذلك أمر الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه أصحابه بالنفقة في سبيل الله واحتساب ذلك عند الله عز وجل، فهب المسلمون يستجيبون لنداء رسول الله صلي الله عليه وسلم، وكان في طليعة المتصدقين الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه، فقد تصدق بمائتي أُوقية من الذهب، حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه في ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم: إني لا أرى عبد الرحمن إلا مُرْتكبًا إثْمًا يا رسول الله، فما ترك لأهْله شيئًا.
فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: هل تركت لأهْلك شيْئًا يا عبد الرحمن؟!
فقال: نعم يا رسول الله، تركت لهُمْ أكثر ممَا أنفقت وأطيب.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كم يا عبد الرحمن؟
فقال: ما وعد الله ورسوله من الرزق والخير والأُجر.
عبرة:
يا شباب، الإسلام دين يقوم علي البذل والإنفاق، ويضيع علي الشح والإمساك، ولذلك حبب إلي بنيه أن تكون نفوسهم سخيةَ، وأكُفهم ندية، ووصاهم بالمسارعة إلي دواعي الإحسان، ووجوه البر، وأن يجعلوا تقديم الخير إلي الناس شغلهم الدائم، لا ينفكون عنه في صباح أو مساء فقد قال رب العزة سبحانه: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة: ٢٧٤).
ومن الواجب علي المسلم أن يقتصد في مطالب نفسه حتى لا تستنفذ ماله كله، فإن عليه أن يشرك غيره فيما آتاه الله من فضله، وأن يجعل في ثروته متسعاً يسعف به المنكوبين ويريح المتعبين.

أيها الأخوة، هذا هو عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه، هذا هو الغنيُّ المؤمن، هذا الذي يكون سيِّد المال، وليس عبداً له، هذا الذي يسْتخدم المال في سبيل الجنة، في سبيل مرضاة الله عز وجل، في سبيل أن يفوز بِجنةٍ عَرضها السموات والأرض، في سبيل أن يرضى الله عنه، هذا الصحابي الجليل هو أحد الثمانِية الذين سبَقوا إلى الإسلام، فرضى الله عنه، وعن الصحابة أجمعين.

أبا الدحداح وعذق في الجنة

أقدار الرجال تعرف من خلال أعمالهم التي قاموا بها، ومدى نفعها للناس وتأثيرها في قلوبهم، وقدر كل امرئ ما كان يحسنه، وحين نتهادى إلي سير هذا الصحابي الجليل نجده: من الأنصار الذين آووا النبيَ ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ونجده تلميذاً نابغاً في مدرسة النبوة، وفارساً شجاعاً يخوض الغمرات، ويقتحم المنايا، ويجابه الأخطار، ويواجه الشدائد، ويصارع المكاره، وإلي جانب هذا يسارع إلي إغاثة الملهوف، ونجدة المظلوم، ومواساة المحزون، وفوق هذا كله يقف في الذؤابة العليا من حب الله ورسوله، يستعذب نفسه للخروج للجهاد، ويستمرئ مشاق القتال في سبيل الله، ويشم رائحة الجنة تحت ظلال السيوف، إنه الصحابي الجليل ثابت بن الدحداح رضى الله عنه

مضى أبو الدحداح رضى الله عنه في طريق الإسلام، يستجيب له، ويعتز به، ويقدم من أجله كل ما يستطيع، واختار لنفسه أرفع الدرجات، وأصدق القربات، وهو بذل المال والنفس في سبيل بارئها وخالقها، فقد تصدق بما له، وهو بستان النخيل الذي يمتلكه ابتغاء مرضاة الله تعالي، وأن يبدله خيراً منه في الجنة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم له، فتعالوا لنتعرف علي قصة بستان هذا الصحابي الجليل.

جاءت خصومة للنبي صلى الله عليه وسلم بين يتيم وأبي لبابة رضى الله عنه علي نخلة، فقد كان هناك بستان لأبي لبابة بجانب بستان آخر لهذا اليتيم وبينهما نخلة، وهذا اليتيم لا زال لم يدرك حق الإدراك. فقال أبي لبابة: هذه النخلة لي. وقال اليتيم: هذه النخلة لي. فتشاجرا فذهب اليتيم فاشتكي أبا لبابة إلي النبي صلى الله عليه وسلم، فأحضر النبي أبي لبابة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هذا اليتيم يشكوك في نخلة أخذتها منه. فقال: والله ما كان ذلك يا رسول الله، وما كنت لآخذ نخلته. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا نخرج ونعاين.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعتمد علي كلام هذا ولا هذا، وإنما خرج ليعاين البستانين ويعاين مكان النخلة، وعندما وصل إلي المكان، فإذا بالنخلة في بستان أبو لبابة واضحة جلية كم قال، فهل يعطف علي هذا اليتيم فيحكم بغير حكم الله؟ لا، ما كان رسول الله يفعل هذا.

فحكم بالنخلة لأبي لبابة فذرفت دموع اليتيم علي خديه، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يجبر كسر قلبه، لأنه لم يدرك الحق، فقال لأبي لبابة: أتعطيه هذه النخلة ولك بها عذق نخل في الجنة؟، لكن أبي لبابة كان في وقت غضب إذ كيف يشكوه إلي رسول الله والحق له. فقال: لا، يا رسول الله.

وكان في هذه الجلسة رجل يتمنى فرصة كهذه هو أبا الدحداح رضى الله عنه. فقال: يا رسول الله، لئن اشتريت النخلة وأعطيتها هذا اليتيم ألي العذق في الجنة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: نعم يا أبا الدحداح لك ذلك.

فيلحق أبو الدحداح بأبي لبابة ويقول: أتبيعني هذه النخلة ببستاني كله. قال: أبعكها، لا خير في نخلة شكيت فيها إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فباعه النخلة بالبستان كله، وذهب ونادي في زوجته: يا أم الدحداح ويا أبناء أبي الدحداح، قد بعناها من الله فاخرجوا منها، فقالت امرأته: ربح البيع يا أبي الدحداح، فخرج ومع أطفاله بعض الرطب

فقام يأخذه ويرميه فيها، ويقول: قد بعناها من الله عز وجل بعذق في الجنة، والله لا نخرج منها بشيء، وخرج هو وأهله وقد باع كل شيء واشترى عذقًا من نخلة عند الله سبحانه وتعالي.
عبرة:
يا أيها القارئ الكريم، قد يكون حبُ الدنيا ببريقها وزخارفها، وزينتها من الأسباب المؤدية إلي الشح، حيث يوهم من ابتلاه الله بحب الدنيا أنه أعُطى فسيخلو جيبه، وستضيع صحته وعافيته، وسيريق ماء وجهه، وتذهب مكانته ومنزلته بين الناس، ويبدد أوقاته، ويعرض نفسه لما لا تحمد عقباه من الأذى بكل صنوفه وأشكاله المادية والمعنوية، وخير له أن يمسك بره ومعروفه عن الناس كي تدوم له دنياه، ناسياً أو متناسياً أن الله يخلف علي عبده كما قال: {وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}(سبأ: ٣٩)، ولعل هذا من بين الأسباب التي من أجُلها ذم الله عز وجل حب الدنيا، والمحبين لها، إذا يقولُ سبحانه: {كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ} (القيامة: ٢٠، ٢١).
لقد آثر أبو الدحداح رضى الله عنه غيره من المسلمين علي نفسه، وسعى في إدخال السرور علي قلبه بشراء تلك النخلة الزهيدة في ثمنها بحديقتها الثمينة في قدرها، فقد قال في نفسه: إنها نعمةٌ قد سيقت إليَ، فلن أتكاسل في السعي للحصول عليها، ولو كان ثمنها حديقتي التي ليس لدي سواها، فهل قال: انتهينا يا أخوة، لنا في الجنة عذقًا ويكفي، لا نصلي ولا نصوم ولا نعمل أي شيء، لا فإن الذي بذل هذه في سبيل الله سيبذل أعظم منها، فلقد قدم نفسه لله في غزوة أُحُد، وقد ذكرنا القصة في كتابنا روائع في حياة الصحابة.

نحن في هذه السطور أمام رجل حليم كريم، رحيم حييَ سخيَ، عقول رشيد، أحبه الله ورسوله وأحبه المسلمون، كان نقي السريرة حميدة السيرة، يأْلف الناس ويألفونه، يجدون فيه صفاء الروح، ولين الجانب، وسلامة الفطرة، وحسن الحديث، وبراءة الصدر من الحقد والحسد والضغينة وسائر ما يعكر صفو الإيمان، كانت هذه الصفات معروفة لدى معاصريه، ولكن هناك صفتان من بين هذه الصفات قد اشتهر بهما وهما: السخاء والحياء، إنه الصحابي الجليل ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه.

كان عثمان بن عفان رضى الله عنه من الأغنياء الذين أغناهم الله عز وجل، وكان صاحب تجارة وأموال طائلة، ولكنه استخدم هذه الأموال في طاعة الله عز وجل وابتغاء مرضاته وما عنده، وصار سبَاقاً لكل خير ينفق ولا يخشى الفقر، ولو أردنا أن نتعرف إلي مسلم هاجر من دنياه، ومن أمواله وثرائه إلي البذل العريض، والعطاء المفيض، لعزَ علينا أن نجد لعثمان في هذا المجال نظيراً، ومما أنفقه رضى الله عنه من نفقاته الكثيرة، الحصول علي بئر رومة للمسلمين فتعالوا بنا لنتعرف علي هذا الموقف الرائع.

عندما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة لم يستقرّ بها حتى فاجأته مشكلة المياه في المدينة، فالمياه كانت قليلة جداً، وكان بالمدينة عين تفيض بماءٍ عذبٍ طيّب المذاق، تدعى بئر رومة، ويملكها رجل يهودي، يبيع ملء القربة بمدٍ من قمحٍ أو شعير، فالماء ثمين جداً، وتمنّى النبي صلى الله عليه وسلم لو يجد بين أصحابه من يشتري البئر حتى يفيض ماؤها على المسلمين بغير ثمن.

هنا سارع عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى تحقيق رغبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرض على اليهودي صاحب البئر أن يبيعها له فأبى، فساومه عثمان على نصفها، واشترى النصف باثني عشر ألف درهم، وهو مبلغ ضخم، على أن تكون لليهودي يوماً ولعثمان يوماً، فكان المسلمون يستسقون في يوم عثمان ما يكفيهم يومين، وهكذا رأى اليهودي نفسه، وقد خسر زبائنه وسوقه التي كانت رائجة، عندئذٍ عاد يعرض على عثمان أن يشتري النصف الثاني، فاشتراه، وأصبحت بئر رومة كلها للمسلمين يشربون منها الماء العذب بقدر ما يحتاجون بلا ثمن، و هذا أول عمل قام به في المدينة.

عبرة:

يا أيها القارئ الكريم، لقد نفذ رضى الله عنه بصدق ضميره وبإخلاص قلبه إلي جوهر الإسلام فعرفه معرفة اليقين، عرف أن الإسلام في جوهره هجرة كاملة إلي الله، ولا ينبغي أن يكون للجاه، ولا للمال، ولا للحياة نفسها سلطان أيُ سلطان علي ضمير المهاجر وروحه الغلاب، ولقد تنازل لإسلامه ولهجرته عن جاهه، وعن ماله، وأخيراً عن حياته، في سماح منقطع النظير، ولو رأيناه وهو يعطي أمواله بغير حساب للدعوة التي آمن بها وحمل مع المؤمنين لواءها، لرأينا رجلاً من طراز فريد.

كان بعض كتاب السيرة يقولون: إنه كان يبدو وكأن عثمان بن عفان رضى الله عنه هو الممول الوحيد للأمة الجديدة، والدين الجديد، فقد كان عثمان رضى الله عنه من الذين أغناهم الله عز وجل،

وكان صاحب تجارة وأموال طائلة، ولكنه استخدم هذه الأموال في طاعة الله عز وجل، وابتغاء مرضاته وما عنده، وصار سبَّاقاً لكل خير ينفق ولا يخشى الفقر.
يا أخوة، هناك شخص أعطاه الله طلاقة لسان، وهناك شخص ليست عنده هذه الطلاقة، ولكن عنده المال، أنت بالمال ترقى، وبالتعليم ترقى، وبنصرة الضعيف ترقى، يجب أن تتفوَّق في شيء، وأن تبذله في سبيل الله حتى ترقى، هذا هو الهدف.

إن الإنسان الذي يحب الخير لأخيه المسلم، ويطيب نفساً ببذل المال عند الحاجة، ويبذل الروح عند الضرورة، يضحي بمصلحته الخاصة في سبيل في الله، وفي سبيل دينه، ويرضى بالتقشف والشظف والحرمان، إذا كان فيه انتصار لحق أو خير، بل يستمرئ المر، ويستعذب العذاب، ويرحب بالموت في سبيل ما يؤمن به من الهدى والحق، فليت شعري أين يوجد هذا الإنسان في عالم البشر ومن أي مدرسة يتخرج؟!

لعمري أن المدرسة الفذة التي تخرج هذا الصنف من البشر هي مدرسة الإيمان، فالإيمان هو الذي يهون علي الإنسان شهواته، ومطالب دنياه، فإذا هو يكتفي بما يسد الجوع من الطعام، وما يستر العورة من اللباس، وإذا هو يرضى بالقليل من المال، فإذا هو متواضع في المسكن، بل يهون علي الإنسان ماله فينفقه، ومسكنه فيهجره، وأهله فيرحل عنهم، بل يهون عليه حياته نفسها.

إن كل جهد مادي أو أدبي أو نفسي يبذله المؤمن في سبيل الله مهما يبلغ من ضالة حجمه فهو محسوب له في رصيد حسناته عنْد الله عز وجل، ولا يضيع منه مثقال ذرة حتى الخطوة التي تمشيها قدمه، وحتى القليل الذي ينفقه، وحتى الإحساس بالجوع أو العطش أو العتب.

فلا عجب أن نرى ديناً كالإسلام يقدم لنا في مرحلة قوته وازدهاره نماذج رائعة للتضحية والبذل، والكفاح، والجهاد، وبأعداد هائلة لا يتخلف بذلك النساء عن الرجال، تقدم ما تملك من نفس، ومال في سبيل الله، وهي قريرة العين.

وها نحن نحلَق في سماء تلكم الزهرة النقية التقية التي لم تكن أُماً للمساكين فحسب، بل كانت أُماً للمؤمنين، إنها الكريمة التي حبَب إليها الجود والإنفاق، فكانت لا يأتيها درهم ولا دينًار إلا أنفقته علي الفقراء والمسُاكين، حتى لقبت بأمُ المساكين وهي أم المؤمنين زينب بنت خزيمة رضى الله عنها.

لقد أشرقت شمس الإسلام علي أرض الجزيرة، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الدين العظيم، كانت أمُ المساكين من السابقات إلي الدخول في الإسلام، وعاشت رضى الله عنها في رحاب الإسلام من مهده، ورأت كيف كان المسلمون يضحون بكل شيء من أجل أن يظفروا بنعمة التوحيد، فازدادت ثباتاً، واستمساكاً بدينها، فكانت صائمة قائمة عابدة لله، لا تفتر لحظة عن ذكر الله، ولا عن الإنفاق علي الفقراء والمساكين.

ولما استشهد زوجها عبد الله بن جحش في غزوة أُحُد، ما كان منها إلا أن احتسبته عند الله، ورضيت بقضاء الله عز وجل، فهي صاحبة القلب الذي امتلأ إيماناً وتوكلاً ويقيناً وثقة في الله عز وجل، لقد كانت تشعر في قرارة نفسها بأن الله سيعوضها خيراً وسيرزقها زوْجاً هو خير من زوْجها الأول، ولكن يا ترى من هو هذا الزوج الكريم؟

إنها لم يخطر ببالها لحظة واحدة، أنها ستكون زوْجُة لسيد الأولُين والآخرين صلى الله عليه وسلم، ولكن الله إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كُن فيكون، فما إن أنقضت عدتها، إذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يتقدم لخطبتها، وإذا بها تتساءل مع نفسها: يا ترى من الرجل الذي يتولى أمر زواجي؟، وما هي إلا لحظات حتى قالت في نفسها: وهل هناك خيرٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعلت أمرها إليه، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو خير من يتولى أمرها ويرعى شأنها، ولقد أصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة درهم، وبني لها حجرة متواضعة، بجوار حجرة

عائشة وحفصة رضى الله عنهما، وهكذا أصبحت زينب رضى الله عنها أمًا للمؤمنين، وزوْجُة لسيد الأولين والآخرين.
ولقد كانت أمُ المؤمنين زينب رضى الله عنها رحيمة بالمساكين حتى قبل البعثة فلما أسلمت ازدادت رحمة ورأفُة بهم، ولما أصبحت زوْجُة لسيد المرسلين محمد صلوات ربي وسلامه عليه ازدادت رأفة ورحمة بالمساكين، بل كانت ترى إحسانه وعطفه علي فقراء المؤمنين، وكانت تسمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحض المسلمين علي الإنفاق علي الفقراء والمساكين، ويرتفع بقلوبهم وأرواحهم إلي درجة الإيثار، فكانت تسمع هذا الكلام عن الإنفاق من النبي صلى الله عليه وسلم فتسمو نفسها، ويتطلع قلبها إلي النعيم الدائم في جنة الرحمن، التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علي قلب بشر، فكانت رضى الله عنها لا تدخر درهماً ولا ديناراً، فهي التي كانت تسمى في الجاهلية أمُ المساكين، فكيف بحالها وقد أصبحت أُماً للمؤمنين.
عبرة:
يا أيتها الأخوات المؤمنات، أن أتفه أعمار الإنسان عمره الزمني، لكن أعظم أعماره عمره الإيماني المفعم بالأعمال الصالحة، وحجمك عند الله بحجم عملك الصالح، العمل الصالح الذي لا علاقة له بمصلحتك، ولا ببيتك، ولا بكسب مالك، ولا بمكانتك، هناك من يعمل عملاً خالصاً، لا يبتغي سمعة، ولا جاهاً، ولا مكانة، ولا خبراً ينشر، فهذا هو الإخلاص، والإخلاص شيء عظيم، أعمال قليلة مع الإخلاص، أعظم من أعمال كثيرة من دون إخلاص، لقد أقامت عند النبي صلى الله عليه وسلم ثمانية أشهر وتوفيت.
أنا أتمنى على كل إنسان أن يسأل هذا السؤال لنفسه: ماذا قدمت للآخرة؟ أما أكلنا، وشربناً، وسكناً، وتزوجناً، وأنجبناً، وعملناً، وكسبنا الأموال، ثم غادرنا الدنيا، فهذا شأن الناس كلهم، هذا شأن الناس جميعاً في كل بقاع الأرض، أما ماذا قدمت، هل تركت علماً؟ هل تركت مشروعاً خيرياً؟ هل لك بصمات في الحياة الإسلامية؟ هل دعوت إلى الله؟ هل لك عمل طيب؟ هل لك حرفة أتقنتها، ونفعت بها المسلمين؟ هل ربيت أولاداً تربية صالحة؟ هل ربيت بناتك تربية إيمانية إسلامية؟ هل لك زوجة أخذت بيدها إلى الله عز وجل؟ ماذا فعلت؟ هذا السؤال يجب ألا يغيب عن أذهاننا جميعاً: ماذا قدمت للآخرة؟

الجيل الرباني

كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يحتل مرتبة الصديقية وهي أعلى مراتب الصدق، فحينما تقرؤون سيرته ستجدون فيها ما لا يصدق، الحب الذي ينطوي عليه هذا الصحابي الجليل للنبي صلى الله عليه وسلم يكاد لا يصدق، المؤاثرة، التضحية، الولاء، الفهم، الإدراك في أعلى مستوى، وهذه القدرات الفذّة التي يمنحها الله للمؤمنين تقابل صدقهم في طلب الحقيقة، فتعالوا بنا لنعيش سوياً من خلال تلك السطور مع مشهد اليقين والإيمان لهذا الإنسان العظيم.

في ضحى يوم من الأيام اجتاح أهل مكة جميعاً حديث أثار كل ما في أنفسهم من دهشة وعجب، فقد كان عمرو بن هشام أبو جهل ذاهباً لبعض شأنه حين مرَ بالكعبة فأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً وحده في الحرام، صامتاً مفكراً، وأراد أبو جهل أن يؤذي الرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه ببعض سخرياته كعادته، فاقترب منه وسأله: أولم يأتك الليلة شيء جديد يا فتي بني هاشم؟!

فرفع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم رأسه وأجاب في جد: نعم، أسري بي الليلة إلي بيت المقدس بالشام، فقال أبو جهل مستنكراً هذا الأمر: وأصبحت بين أظهرنا؟!

قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: نعم يا أبا الحكم.

هنا صاح أبو جهل في جنون: يا بني كعب بن لؤي، هلمَوا!!

وأقبل الناس، ينادي بعضهما البعض.

ولم يكن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد حدث أحداً من أصحابه المؤمنين بنبأ الإسراء بعد، تجمع الناس عند بيت الله الحرام، ومضى أبو جهل يحدثهم في حبور بما سمع، فقد ظنَها الفرصة المُواتية التي عندها سينفض عن الرسول الكريم كل من آمن به، وتقدم أحد المسلمين، وسأل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله أحقاً أسري بك الليلة؟!

فأجاب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: نعم، وصليت بإخواني الأنبياء هناك، سرى في الجمع المحتشد عند بيت الله الحرام خليط متنافر من المشاعر المهتاجة، ورحَب المشركون بما سمعوا، ظانَين أن في هذا النبأ نهاية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، واحتوت الشكوك فريقاً من المسلمين ضعيف الإيمان.

وسعى بعض رجالات قريش إلي بيت أبي بكر فرحين شامتين، لا يخالجهم ريب في أنهم سيعودن ومعهم ردة الصديق عن هذا الدين!!

فالصديق يعرف أكثر من غيره، ما يحتاجه قطع المسافة بين مكة والشام من سفر مضْن وزمان طويل، فكيف بالذي راح ورجع، وصلى هناك، كل ذلك في ساعات الليل!!

بلغوا دار أبي بكر وصاحوا به: يا عتيق، كل أمر صاحبك قبل اليوم كان هينَاَ ومحتملاً، أما الآن فاخرج لتسمع، خرج عليهم أبو بكر رضى الله عنه دهشاً، تجمله سكينته ووقاره، وسألهم: ماذا وراءكم؟، قالوا: صاحبك! هنا انتفض أبو بكر وقال: ويحكم هل أصابه سوء؟! وتراجع القوم قليلاً، وقال قائلهم: إنه هناك عند الكعبة، يحدث الناس أن ربه أسرى به الليلة إلي بيت المقدس!!

وتقدم آخر يكمل الحديث ساخراً، وقال: ذهب ليلاً، وأصبح بين أظهرنا، فأجابهم أبو بكر، وقد تهلَل محياه: ما البأس في هذا؟ إني لأُصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقُه في خبر السماء، يأتيه في غدوة أو روْحة.

ثم أطلق عبارته الصامدة عبر التاريخ: إن كان قال، فقد صدق، ومنذ ذلك اليوم وإلي يوم الدين يعرف أبو بكر رضى الله عنه بالصديق.

عبرة:

يا شباب، كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه قمة في التواضع، وقمة في الشجاعة، وقمة في الصدق حتى يصاحبه هذا اللقب طيلة عمره، وبعد وفاته ويعرف به علي مدار الزمان إنه الصَديق، والصديقية هي أعلى مراتب الصدق كما ذكرنا، وانظر لحسن أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كان قال فقد صدق هذا هو قمة الإيمان والصدق واليقين، لأجل ذلك كان الصديق أمة لوحده.

يا سادة، لقد كان أدرك الصديق إدراكاً عظيماً، فالله الذي خلق السموات والأرض، وأنزل جبريل علي رسوله من فوق سبع سموات، الذي فعل هذا بإمكانه أن يأخذ النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس، وأن يعيده في ليلة واحدة، ما هذا اليقين؟ هذا يقين الصدِّيقية.

الصديق ليس عنده مشكلة، كيف ذهب النبي؟ وكيف عاد؟ عقله الراجح، وخبرته بالنبي صلى الله عليه وسلم يقينية، ويبدو أن نظره في هذا الكون العظيم، والذي خلق هذا الكون قادر على أن يأخذه، ويعيده في ليلة واحدة.

الصحابة رضوان الله عليهم هم أعلم الأمة بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ولذلك فقد كانوا بقدره ومنزلته أعلم وأعرف من غيرهم، وكان تعظيمهم وتوقيرهم للنبي صلى الله عليه وسلم أشد وأكبر من غيرهم، وقد أوردت كتب السيرة والتفسير وغيرها صوراً متعددة من ذلك الحب والتعظيم والتوقير الذي كان يفعله الصحابة رضوان الله عليهم مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ومن هذا ما فعله ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه يوم الحديبية.
أرسل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضى الله عنه إلي قريش ليؤكد لهم أن الرسول لا يريد حرباً، وإنما يريد ومن معه من المسلمين زيارة البيت الحرام.
انطلق عثمان وبلغ رسالة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، لكن قريش حبسته، وأشيع في المسلمين أنهما قتلوا عثمان، فصمم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم علي مناجزتهم - أي الحرب -، ودعا المسلمين إلي البيعة علي الموت في سبيل الله، وقد مد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إحدى يديه وقال: هذه يد عثمان، وضرب بها يده الأخرى كمن يبايع، لكن خبر قتل عثمان لم يكن صحيح.
فلمَا رجع عثمان بعد أن بلغ رسالة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.
قال الصحابة له: هنيئاً لك يا أبا عبد الله، لقد اشتفيت من الطواف بالبيت.
فقال عثمان: بئسمَا ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنةً ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية، ما طفت بها حتى يطوفَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ولقد دعتني قريشٌ إلي الطواف بالبيت فأبيت، فقالت: والله لا أطواف بيت الله الحرام قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم به.
عبرة:
يا أيها القارئ الكريم، حتى يتحقق لدى المسلم أصل الإيمان، ويسير في طريق بلوغ كماله، لابد أن يحب ما أحبه الله تعالي، محبة تحمله علي الإتيان بما وجب عليه منه، وما ندب إلي فعله، وأن يكره ما كرهه الله تعالي، كراهة تحمله علي الكف عما حرم عليه منه وما ندب إلي تركه، وهذه المحبة لما أحبه الله تعالي والكراهية لما كرهه، لا تتحققان إلا إذا أحب الله تعالي ورسوله صلى الله عليه وسلم حبًا يفوق حبه لكل شيء، بحيث يضحى في سبيلهما بكل شيء، ويقدمهما علي كل شيء، وهكذا فعل عثمان بْن عفان رضى الله عنه في هذا الموقف.

للإيمان أثر في النفوس، وطعم في القلوب، أطيب لدى المؤمنين من الماء العذب البارد عند الظمأ في اليوم القيظ، وأحلى من طعم العسل بعد طول مرارة المذاق، وهذه المحبة وذاك الطيب، لا يشعر بهما ولا يجد لذتهما إلا من استكمل إيمانه، وصدقت محبته لله تعالي ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وأثمرت في جوانب نفسه، فأصبح لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يعطى إلا لله، ولا يمنع إلا لله، وهكذا كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان الصحابي الجليل عقبةَ بن عامر رضى الله عنه، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الماتع من حبه للنبي صلى الله عليه وسلم.
لزم عقبة بن عامر الجهنيُ رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوم الظل لصاحبه، فكان يأْخذ له بزمام بغلته أينما سار، ويمضي بين يديه أين اتجه، وكثيراً ما أردفه رسول الله صلى الله عليه وسلم وراءه، حتى دعي برديف رسول الله، وربما نزل له النبي الكريم صلى الله عليه وسلم عن بغلته ليكون هو الذي يركب، والنبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يمشي، هنا نترك الحديث لعقبة بن عامر رضى الله عنه.
فقد قال: كنت آخذ بزمام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض غاب المدينة.
فقال لي: يا عقبة، ألا تركب؟!
فهممْت أن أقوُل: لا يا رسول الله.
لكني أشْفقت أن يكون في ذلك معصية لله، ورسوله.
فقلت: نعمْ يا رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بغلته وركبت أنا امْتثالاً لأمره، وجعل هو يمشي.
ثم ما لبثت أن نزلت عنها، وركب النبي صلى الله عليه وسلم.
ثم قال لي: يا عقبة بن عامر ألا أُعلمك سورتين لم ير مثْلهن قط؟
فقلت: بلي يا رسول الله.
فأقْرأني: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} و {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}.
ثم أُقيمت الصلاة فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلي بي.
ثم قال: يا عقبة، اقْرأْهما كلما نمت وكلما قمْت.
فقال عقبة: فما زلْتُ أقْرؤُهُما ما امتدت بي الحياة.
عبرة:
يا أيها القارئ الكريم، هذا هو الحب الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أصحابه رضوان ربي عليهم، وينبغي أن يكون هذا الحب بين المؤمنين، هذا هو الإسلام، فهؤلاء الصحابة هم الذين حملوا الإسلام ورَوَوا هذه الأراضي بدمائِهم، أما نحن فالإسلام هو الذي حملنا، فإذا الإنسان منا حَفِظ القرآن أكرم بالجوائِز من عمرة وأموال إلى احتِفالات وعزائم، وهؤلاء الدعاة الآن يكرمون كثيراً، أما الذين فتحوا هذه البلاد ورووا الأرض بدمائِهم، والذين دفعوا الثمن باهِظاً، وأكلوا طعاماً خشِناً، وخاضوا حروباً قاسِيَة، وما ذاقوا طعم النوم إلا قليلاً، فهؤلاء هم الذين حملوا الإسلام حقاً فَشتان بين أن تحمِل الإسلام وبين أن يحملك الإسلام.
يا أخوة الملازمة جزء أساسي من دين الإنسان، والمتابعة، والثبات، والدوام، أن تكون دوماً مع المؤمنين، دوماً معهم في مهماتهم، في دروسهم، في أعيادهم، في مسراتهم، في مناشطهم، أنت

معهم دائماً، أما أن يغيب الإنسان لمصالحه الشخصية، ويؤثرها على الله ورسوله، فهذا لا يغني ولا يشفي.

لقد أعز الله بالإسلام قوماً لم يُعبأ الناس بهم في يوم من الأيام، لأنهم لم يكونوا من ذوي الحسب والنسب فيهم، أو لأنهم لم يكونوا من أهل الثراء والغنى، أو لم يكونوا من ذوي البأس والقوة والمنعة، وذلك لأن الإسلام هو الدين الذي فطر الله الناس عليه وتعبدهم به، وجعله منهجاً لحياتهم وميزاناً يتعاملون به فيما بينهم، وهذا الميزان سوّى بين الناس جميعاً في الحقوق العامة، فليس لأحد علي أحد فضل إلا بتقوى الله، وحبُ رسوله صلى الله عليه وسلم، والسير علي الطريق المستقيم.

وبلال بن رباح رضى الله عنه واحد من أولئك الذين أعزهم الله بالإسلام، وأعز الإسلام بهم، فكانوا سادة وهم عبيد، بل فاقوا السادة بحسنْ إيمانهم، وعظيم جهادهم في نصرة الحق، ودحض الباطل.

لقد كان حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو لب الحياة، وهو معنى الدنيا والآخرة في طوية قلبه، وعاش ومات وهو لا يرجو في دنياه ولا بعد موته إلا أن يأوي إلي جواره وينعم برضاه، وما كان له من علاقة تربطه بهذا الكون العظيم إلا وهي في جانب منها علاقة بمحمد صلى الله عليه وسلم، لقد دامت هذه الصحبة التي لم يعرف مثله في تاريخ حتى قبض الرسول صلى الله عليه وسلم ودفن في ثراه، فكان بلال هو الذي ذكر واجب الحنان المكلوم في ذلك الموقف الأليم فحمل القربة ودار حول ذلك الثرى الشريف يبلله بالماء، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الذي يدل علي مدى حب بلال لرسول صلى الله عليه وسلم.

لما انتقل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلي الرفيق الأعلى، وحان وقت الصلاة قام بلالٌ يؤذن في الناس والنبي صلوات ربي وسلامه عليه مُسجى لم يدفن بعد، فلما وصل إلي قوله: أشْهد أن مُحمداً رسول الله، خنقته العبرات، واحْتبس صوته في حلقه، وأجهش الصحابة في البكاء، وأغرقوا في النحيب، ثم أذن بعد ذلك لمدة ثلاثة أيام، فكان كلما وصل إلي قوله: أشهد أن محمداً رسول الله، بكي وأجْهش الصحابة في البكاء، عند ذلك طلب من خليفة رسُول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر أن يعفيه من الأذان، وأقسم إلا يأذن لأحد مرة أخرى بعد أن أصبح لا يحتمله بعد وفاة حبيبه رسُول الله صلى الله عليه وسلم.

كان بلالٌ رضى الله عنه لا يتحمل أن يسير في طرقات المدينة بعد وفاة حبيب قلبه رسُول الله، فذهب إلي الصديق رضى الله عنه واستأذنه في الخروج إلي الجهاد في سبيل الله، والمُرابطة في أرض الشام، فتردد الصديق رضوان الله عليه في الاسْتجابة لطلبه، والإذن له بمغادرة المدينة، ونترك لبلالٌ يروى لنا قصته مع الصديق رضوان الله عليهم.

يقول بلالٌ ذهبت إلي خليفة رسُول الله صلى الله عليه وسلم وقلت له:

يا خليفة رسُول الله إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أفضل عمل المُؤمن الجهاد في سبيل الله.

فقال له الصديق: فما تشاء يا بلال؟

فقال: أردت الجهاد والرابط في سبيل الله حتى أموت.

فقال الصديق: ومن يؤّذن لنا يا بلال؟!

فقال بلال وعيناه تفيضان من الدمع: إني لا أُؤذن لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال الصديق: بل ابق وأذن لنا يا بلال.
فقال بلال: إن كنت أُعتقتني لأكون لك فليكن ما تريد، وإن كنت أعتقتني لله فخلني لمن أعتقتني له.
فقال الصديق: والله يا بلال ما اشتريتك إلا لله، وما أعتقتُك إلا في سبيله.
فقال بلال: والله يا خليفة رسُول الله، لا أُؤذن لك ولأحد بعدك.
فقال الصديق: لك ذلك يا بلال.
عبرة:
يا شباب، كان بلالٌ رضى الله عنه طرازاً فريداً من البشر، يتميز عن كثير من أصحابه بصفات عُرف بها، جعلته موضع ثقة بينهم من أهمها لهجة الصدق في حديث كله، بل وفي جميع أفعاله من حركات وسكنات.
يا أيها القارئ الكريم، سيرة بلال رضى الله عنه من أحمد السير وأبعدها عن القيل والقال، أو عن شبهات تثار، فقد كان مثال الخلق الفاضل والكمال الوافر، كان طاهر القلب نقي السريرة، لا يحمل ضغناً لأحد ولا يتكلم إلا بخير، ولا يأتي من الأعمال إلا ما كان نافعاً، لا يعرف غير الجد والعمل، ولا تراه إلا متعبداً أو مجاهداً أو في مصلحة من مصالح المسلمين، وكان يحفظ الحسنة لمن أسداها له، ويغفر السيئة لمن أساء إليه، وكان رضى الله عنه متصفاً بأجمل صفات بني جلدته من الحبشة وهي الأمانة والطاعة، والصدق والولاء لمن له عليه حق الولاء.

لقد قرر الإسلام وحدة الإنسانية، ورسخ المساواة بين أفراد البشرية من حيث المولد، فالجميع مخلوقون من نفس واحد، ولا فرق بين أبيض وأسود، ولا فضل لعربي علي أعجمي، ولا امتياز لشريف علي وضيع في أصل الخلقة والمنشأ، فقد قال رب العزة سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} (النساء: ١).

وكانت العدالة الإلهية في الإسلام حيث جعل التفاضل بين الناس بالعمل الصالح، وطريق القرب من الله تعالي تقواه، دون النظر إلي من انحدر من الآباء، فقد قال رب العزة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}(الحجرات: ١٣).

فلا يضير الإنسان عند الله عز وجل ضعة نسبه، فإن الله تعالي رتب الجزاء علي الأعمال لا علي الأنساب، لذا نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يتعامل مع الناس من هذا المنطلق، فتعالوا بنا لنتعرف تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم من زيد بن حارثة رضى الله عنه.

رُب محنة أعقبت منحة، ويا لها من منحة إلهية جمعت زيد بن حارثة رضى الله عنه بالرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، وكانت هذه المحنة في طفولته، فقد خرجت به أمه: سُعدى بنت ثعلبة، لتزور قومها من بني معن بن طي، فأغارت خيل لبني القين بن جسر عليهم فاحتملوا زيداً وهو صغير في الخامسة من عمره، وأتوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة رضى الله عنها بأربعمائة درهم، فلما تزوجها رسول الله صلي الله وهبته له.

وظل أبوه وعمه وإخوته وغيرهم من أقاربه يسألون عنه في القبائل والأسواق، وأمه كانت تبكي عليه دائماً، فكان بكاؤها يحفر كل ذي قلب رحيم أن يجد في البحث عنه، فلما حج نفر من قومه فرأوا زيداً فعرفوه وعرفهم، فلما همُوا بالانصراف، أوصاهم بأن يخبروا أهله بمكانه، وأنه مع أكرم والد.

ولم يكد والد زيد يعلم مستقر ولده حتى جاء إلي مكة، ومعه أخوه، وأخذ يسألان عن الأمين محمد، فقيل: أنه في المسجد، فدخلا عليه فقالا: يا بن عبد المطلب، يا بن سيُد قومه، أنتم أهل الحرم، تفكون العاني، وتطعمون الأسير، وقد جئناك في ولدنا الذي عندك، وحملنا إليك من المال ما يفي به، فامْنُنْ علينا، وأحسنْ في فدائه بما تشاءُ.

فقال النبي: ومن ابنكما الذي تعنيان؟

فقالا: غلامك زيد بن حارثة.

فقال: وهل لكما فيما هو خيْرٌ من الفداء؟!

فقالا: وما هو؟

فقال: أدعوه لكم، فخيروه بيني وبينكم، فإن اختاركم فهو لكم بغير مال، وإن اختارني فما أنا والله بالذي يرغب عمن يختاره، وتهلل وجه حارثة ممن سمع، فقال: لقد أنصفتنا، وبالغت في الإنصاف.

ثم بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلي زيد، ولما جاء سأله: هل تعرف هؤلاء؟، قال زيد: نعم هذا أبي حارثة بن شراحبيل، وهذا عمي كعبٌ، وأعاد عليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ما قاله لحارثة، فقال زيدٌ: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت الأبُ، والعمُ!!

فقال أبوه ويحك يا زيد، أتختار الْعبودية علي أبيك وأَمك؟، فقال: إني رأيت من هذا الرجل شيئًا، وما أنا بالذي يفارقه أبداًا!!

ونديتْ عينا النبي صلى الله عليه وسلم بدموع شاكرة حانية، ثم أمسك بيد زيد، وخرج به إلي فناء الكعبة، حيث قريش مجتمعة هناك، ونادي النبي صلى الله عليه وسلم: اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأُرثه.

وكاد قلب حارثة يطير من الفرح، فابنه لم يعد حرا فحسب، بل أصبح ابنا للرجل الذي تسميه قريش الصادق الأمين، فعاد الأب والعم إلي قومهما مطمئنين علي ولدهما.

عبرة:

يا شباب، إن تعلق زيد بن حارثة رضى الله عنه برسول الله صلي الله وحبه الشديد له فاق حب والده وعشيرته، حيث رفض الذهاب معهم رغم إلحاحهم الشديد، ويترتب علي ذلك إيثار الحب في الله تعالي علي جميع العلاقات الدنيوية التي أبرزها حب القرابة، لقد كان شعور زيد كأي إنسان ميل فطري إلي الأهل والعشيرة والوطن الذي درج فيه وهو في صباه، ولقد كان في إمكانه أن يذهب مع أسرته ويبقى علي إسلامه، ولكن حبه للنبي صلى الله عليه وسلم قد ملأ قلبه، حتى أصبح حبه لأبيه وأسرته لا يساوي شيئاً عند المقارنة بحبه لسيده ورسوله صلى الله عليه وسلم، لذلك قال: هيهات هيهات، ما أريدُ برسول الله صلى الله عليه وسلم بدلاً، ولا أوثر عليه والداً ولا ولداً، فكان مصمماً في قراره علي البقاء في مكة من اللحظات الأولى التي عرض عليه فيها أبوه العودة إلي بلده، ولم يصدر منه أي تردد في هذا الأمر.

يا أخوة هذه هي المعاملة، هل تستطيع أن تعامل إنساناً مُعاملة يؤثِرك على أمه وأبيه؟ إذا كنت مؤمناً فهكذا تعامل الناس، المؤمن أيها الأخوة، كيفما تحرك مع الذين يعيشون معه من شِدة إنصافه ورحمته وحنانه وعطفه وكرمه ووفائه وتواضعه يؤثرونه على كل شيء.

الغريب في هذا الموقف يا أخوة هو أنه مهما كان الإنسان يعيش في رغدٍ من الحياة إلا أنه لا يُؤثر أحداً على والديه! لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمثابة الوالد والعمّ وهكذا الإسلام، وهكذا يجب أن يكون المسلم.

ليست الأخلاق من مواد الترف، التي يمكن الاستغناء عنها، بل هي أصل من أصول الحياة التي يرتضيها الدين ويحترم ذويها، لذا ربط رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرية المسلم بحسن الخلق فقال: خيارُكُم أحاسنكم أخلاقاً، من هنا كان حسن الخلق هو ركن الإسلام العظيم الذي لا قيام للدين بدونه، ولا حضارة ولا تقدم بغيره، فالإسلام إنما جاء ليغير الإنسان من السيئ إلي الحسن أو الأحسن، ومن المعصية إلي الطاعة، ومن الضلال إلي الهدى، ومن نظم العباد ومناهجهم إلي نظام الله عز وجل ومنهجه.

ومما لا شك فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما جاء رحمة للبشرية، وإنقاذاً لها من براثن الغواية والضلال، وإخراجاً لها من الظلمات إلي النور، وحتى يصل بالبشر جميعاً إلي أعلى مراتب الأخلاق الإنسانية في كل تعاملاتهم، وقد صرح صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر حين قال: إنَما بُعِثْتُ لأُتَمِّم مكارم الأَخلاق.

فانظر إلي جميل فعله صلى الله عليه وسلم مع فضالة بن عُمير هذا الرجل الذي أعمى الحقد قلبه، فعزم علي اغتيال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في وسط جيشه الكبير عند فتح مكة، فتعالوا بنا لنتعرف كيف تعمل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مع هذا السلوك العنيف من هذا الرجل، وكيف استطاع بعفوه أن يحاول قلب فضالة من أشد أعداء أهل مكة إلي أسطورة من أساطير الإيمان والحبُ.

بعد أن أصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم عفوه العام وقال لقومه: {قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} (يوسف: ٩٢)، اذهبوا فأنتم الطُلقاء، لم يذهب هؤلاء ليخططوا في الخفاء علي حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويمثلوا شبكات تجسس وحزب معارضة سرَيَ منافق، لقد رأوا أمام أعينهم كيف تكسر الأصنام وتهوي في الرغام، ورأوا الأرض تموج بالإسلام، فأقبلوا يدخلون في دين الله أفواجاً، فبايع الناس علي الإسلام، فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء، فبايعهم علي الإيمان بالله تعالي وشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

ومن الذي ينظم هؤلاء الناس ليبقيهم علي شركهم، لقد فرت قياداتهم واختفت، ورأوا بأُمّ أعينهم الرسول والرسالة، ورأوا تعظيم الحرمة وتعظيم البيت، ولم تشهد مكة منذ أن وضع البيت فيها مثل هذه الأمواج البشرية الهائلة بين قائم وقاعد وراكع وساجد وطائف وساع، كلهم يذكرون الله ويوحدنه، فكيف لا يدخل الناس في هذا الدين؟!

ورغم كل ذلك كان هناك مجموعة يسيطر عليهم الحقد علي الإسلام، وكان بإمكانهم أن ينزوا في بيوتهم، ولا يتعرض لهم أحد، لكن بعضهم وهو فضالة بن عُمير وكان من أشدَ أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو من بني بكر أعداء محمد صلى الله عليه وسلم، وقد رأى كيف ساعد رسول الله خزاعة أن تثأر من بكر ساعة من نهار، ووصل حقده علي الرسول صلى الله عليه وسلم إلي الدرجة التي أراد معها أن يقتله في وقت فتح مكة!!

وهذا أمر جدَ خطير، فالرسول صلى الله عليه وسلم في وسط جيش كبير يبلغ عشرة آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم، وإذا قام فضالة بن عُمير بهذا التَهور فلا شك أنه مقتول، ومع ذلك فقد أعمى الحقد قلبه، فقرر أن يضحي بنفسه ليقتل الرسول صلى الله عليه وسلم.

لقد ادعى فضالة الإسلام ليأمن المسلمون جانبه، ثم حمل السيف تحت ملابسه، ومرَ بجوار الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت، لقد رآها فضالة فرصة سانحة أن يتربص برسول الله ويقتله وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أفُضالةُ؟ قال: نعم، فضالة يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: ماذا كنت تحدث به نفسك؟، قال: لا شيء يا رسول كنت أذكر ربي، فضحك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ونظر إليه وقال: استغفر الله يا فضالة.

نفذت نظرت الرسول صلى الله عليه وسلم إلي أعماقه، وقد أراد الله تعال به الخير، ثم وضع صلى الله عليه وسلم يده علي صدر فضالة، فسكن قلبه، وكانت اللمسة النبوية الحانية هي التي قلبته إنساناً آخر كما يقول هو: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خُلق الله شيءٌ أحب إلي منه، بعد أن كان أبغض الناس إليه، وقد كان يهم بقتله والثأر منه.

قال فضالة: فرجعت إلي أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدَث إليها، فقالت: هلمَ إلي الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هلُمَ إلي الحديث فقلت لا يأبي عليك الله والإسلام

لو ما رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تُكسر الأصنامُ

لرأيت دين الله أضحى بينَا والشرك يغشى وجهه الظلام

إن عظمة هذا الدين وجديته تنال الإنسان من أعماقه تحيله خلقاً آخر كأنما ولد من جديد، وكما يقول التعبير القرآني الفريد المعجز: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الأنعام: ١٢٢).

إنها ساعة فقط، وينخلع الإنسان من جاهليته، ومن الهوى الذي كان محور شخصه، فما بال مسلمينا اليوم حين يتحكم الهوى بأحدهم نراه يبقى سنين طوالاً حتى يقتلع عنه، إن جدية الأمر عند الجيل الأول أزالت هذا التناقض من حياتهم، فهو إما محارب لله ورسوله يبذل ماله وأهله وحياته في حرب هذا الدين، وإما مسلم صادق يحارب أهله وإخوانه وأقرب الناس إليه في سبيل الله، مع أن الفاصل الزمني قد لا يتجاوز الساعات.

{خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ} (الأعراف: ١٧١). هكذا دعي المؤمنون ليفعلوا واستجابوا، وبهذه المعادن والنماذج أمُكن تغيير الأرض من الضلال إلي الهدى، بعد أن كان التغيير في النفوس كاملاً من الظلمات إلي النور، ومن الموت إلي الحياة.

كانت هذه رحمته صلى الله عليه وسلم مع رجل لم يكتف بالتخطيط لقتله فحسب، بل اجتهد في تطبيق ما خطَطَ، وحمل السيف واقترب، لولا أن الله عز جل حفظ رسوله صلى الله عليه وسلم.

عبرة:

يا شباب، في هذا الخبر مواقف منها: ما اشتمل عليه من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم العالية في العفو والتسامح، والحلم حيث واجه من كان يريد قتله بالبشاشة وعفا عنه، وتوجه لدعوته إلي الدين الحق، إن الذي كان يشغل بال النبي صلى الله عليه وسلم هو أن يهدي الله تعالي علي يديه أكبُر قدر ممكن من البشر، وكانت هذه المهمة تطغي في حياته علي كل أمر دنيوي، ولهذا حينما علم بما كان يضمره فضالة من إرادة الفتك به لم يلْق لأمر حمايته منه بالاً، ولم يشغل فكره بكيفية الانتقام منه، وإنما توجه فكره حالاً لمحاولةَ هدايته من الضلال.

ولقد كان لمظهر النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتسم له ويأمره بالاستغفار مع شعوره بأنه قد عرف مقصده، وما يتضمنه ذلك من حلم النبي صلى الله عليه وسلم وعفوه عنه أثر ظاهر في محو كل أثر للشرك والكراهية من قلب فضالة، إلي جانب بركة يد النبي صلى الله عليه وسلم التي وضعها علي صدره، لقد تحاول أبغض الناس إليه إلي رجل هو أحبُ الناس إليه في لحظات يسيرة، وما ذاك إلا لأنه صلى الله عليه وسلم عامُلهُ بأعلى ما يُتصورَ من مكارم الأخلاق من الحلم والعفو والبشاشة، في الوقت الذي كان يتوقع لو انكشف أمره أن يعامل بأقسى ما يمكن أن يتصور من المعاملة.

في هذا الخبر أيضاً: موقف فضالة بن عُمير في الورع والاستقامة رغم حداثة عهده بالإسلام فقد رفض أن يتحدث مع تلك المرأة التي كان يتحدث إليها قبل إسلامه، وأشعرها بأن ذلك لا يحل له في الإسلام، لقد كان إسلامه قوياً وإيمانه صادقاً حيث تكوَن لديه بهذه السرعة الوازع الديني الذي جعله يرفض الاستجابة للحرام إجلالاً لله تعالي ولشرف الشهادتين اللَتين نطق بهما عن يقين وقناعة، وهذا مثل ظاهر علي أثر إيمان الصحابة رضى الله عنهم البالغ في سلوكهم ومعاملتهم مع الناس.

من الذكريات ذكريات لا يطويها الزمان، ولا يعتريها النسيان، لأنها حفرت لها في الأذهان مكاناً مثُلت فيه، لا تبارحه ما دامت الأذهان باقيةَ، هناك رجال سطر التاريخ لهم في أنصع صفحاته مآثر خصهم الله بها دون غيرهم من الناس، تفضلاً منه ونعمة، فهل يستطيع إنسان في هذه الدنيا أن يتصور أو يتخيل مدى الفرحة التي يشعر بها من رأى النبي صلى الله عليه وسلم ولو مرة واحدة في منامه؟! فكيف بمن رآه حال اليقظة؟ فكيف بنا ونحن نريد أن نصف مدى فرحة أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنه الذي نزل النبي صلى الله عليه وسلم في ضيافته؟ إنني والله أجد نفسي عاجزاً عن وصف هذا المشهد المهيب.

كان نزول النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة في دور بني النجار، واختيار الله عز وجل له ذلك منقبة عظيمة، وقد كان في المدينة دور كثيرة تبلغ تسعاً كل دار محلة مستقلة بمساكنها ونخيلها وزروعها وأهلها كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلتهم وهي كالقرى المتلاصقة فاختار الله عز وجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم دار من دور بني مالك بن النجار.

وقد اغتبط أبو أيوب رضى الله عنه لاختصاصه بنزول النبي صلى الله عليه وسلم عنده، وهذا ما جعله في سجل الخالدين من العظماء ولنترك المجال لأبي أيوب رضى الله عنه، لكي يحدثنا عن تلك الفرحة الشديدة التي ملأت عليه جوانحه وجوارحه لنزول النبي بيته.

كانت دار أبي أيوب مؤلفاً من غرفتين واحدة فوق الأخرى، ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم علي أبي أيوب في الأسفل، وطلب أبو أيوب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصعد إلي الأعلى فقال: إن أرفق بنا، وبمن يغشانا يا أبو أيوب، يجب أن نكون في سُفل الدار.

وصعد أبو أيوب الغرفة العليا، ولكن لم تكتحل عيناهما هو وزوجته بنوم، وجعلا يتحركان خيفة أن يتناثر الغبار، ويؤذي النبي صلى الله عليه وسلم، وحدث يوماً أن انكسرت جرة كبيرة مملوءة ماء فقاما ينشفان الماء المسكوب بكساء يلتحفانه خوفاً من أن يصل شيءٌ منه يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي الصباح نزل أبو أيوب، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: لا ينبغي أن أكون فوقك فاصعد أنت وكن في العلو، ثم طلب منه مستعطفاً ومتضرعاً أن ينتقل إلي العلو حتى انتقل صلى الله عليه وسلم عندها قرت عينا الزوجين بذلك، وحظيا بمرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عبرة:

يا أيها القارئ الكريم، أنظر إلي هذا الموقف فأبو أيوب وزوجته رضى الله عنهما لم تسكن نفسهما بعض السكون إلا حينما انحاز إلى جانب العلية، الذي لا يقع فوق رسول الله، والتزاماه لا يبرحانه إلا ماشيين على الأطراف متباعدين عن الوسط، نام هو على طرف الحائط، وزوجته على الطرف الآخر، يعني ابتعداً عن مكان نوم النبي صلى الله عليه وسلم.

يا أخوة، إذا طبَّق الإنسان هذه القاعدة في بيته، فما أكل طعاماً أكثر مما يأكل أولاده وزوجته وأهله، إذا سوى نفسه مع مَن حوله، فهذا الذي يجعل المسلم يتألق، وهذا الذي يجعل المسلم تهفو القلوب إليه.

إن حياة المؤمن مبنية على المؤاثرة لا على الأثرة، حياة المؤمن مبنية على العطاء لا على الأخذ، المؤمن الصادق الذي يريد تأليف القلوب يسوّي نفسه مع الضعفاء، ومع عامة الناس، هكذا كان

الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم في جميع مراحل حياته، وهكذا يجب أن يكون المؤمن، لما لا ورسول الله هو القدوة والأسوة.

لا شيء يميّز الطبائع المتفوقة السوية، مثل نأْيها عن الغرور، ولو كان ثمة رجل لابد للغرور أن يتسور حصونه المنيعة، لفرط مزاياه وروعةَ أمجاده وانتصاراته، لكان عمر، فهو يدخل الإسلام في حفاوة بالغة من الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه، وهو يرى كيف صار الإسلام ديناً جهوري الصوت، صادح الكلمة، في اليوم نفسه الذي اعتنقه فيه، ويبصر المسلمين الذين كانوا من قبل يستخفون من طغاة مكة، ويواجهون اليوم الأذى في شموخ، ويرجون مكة بتكبيرهم بعد أن صار لعمر بينهم مكان.

ويرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ينعته بالفاروق، بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل، وبين الملاينة والمواجهة، ويرى نفسه يقترح علي رسول الله بعض آرائه، فلا يوافقه الرسول في الأمر، فيتنزل الوحي بمثل رأيه، ويصير قرآنا يُتلى إلي يوم الناس، فتعالوا بنا لنرى موقف الفاروق في أسرى بدر، وكيف نزل القرآن من فوق سبع سموات يؤيد رأي الفاروق.

استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في أمر التصرف في أسري بدر، فرأى أبو بكر الصديق رضى الله عنه: أن يأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الفداء من الأسرى مراعاةَ للقرابة، وتحصيلاً للمال، وهو أحد عناصر القوة، ورجاءً أن يُسْلموا.

أما الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان تأثره أكبر بجانب العدالة الذي يرسخه الإسلام في الضمير، فكان رأيه قضاء، فلقد كان رأيه أن يستفاد من أمر الأسرى في إزالة ما قد يكون قد بقى في نفوس البعض من اعتبار لوشائج القرابة بينهم وبين أئمة الكفر، تلك الوشائج التي أهدرها المشركون عملياً حين أصروا علي القتال، وحين أصروا علي أن تكون المبارزة الأولى للمعركة بين بني العمومة، فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم لرأي أبو بكر، ولم يهو رأي عمر.

وشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء الأسرى، ثم جاء الوحي معلناً أن ليس من حارب نبياً كمن حارب غيره، فقد نزل الوحي برفض مبدأ فداء أسرى بدر، وبتأيد رأي عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

قال عمر: فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبكي للذي عرض علي أصحابك من أحدهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدني من هذه الشجرة، وكانت شجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله عز وجل: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} إلي قوله تعالي {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالًا طَيِّباً} فأحل الله الغيمة لهم.

عبرة:

يا شباب، كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلًا ملهماً ربانياً، وهذا لا يأتي إلا من الإخلاص مع الله في السرائر والعلن، وأن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه وخير من يتصف بهذه الصفات هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم الفاروق عمر بن الخطاب.

فهذا العبقري الفذ أوتي ذكاءً مبدعاً متوقداً، أفاضه عليه ربه سبحانه فكانت الحكمة تخرج من نواحيه، وارتفع الفاروق إلى أعلى مستويات الذكاء الإنساني وشجاعة التفكير، وحسن التعليل، فالتقت في عبقريته أعمق رؤى البصيرة وأدق أسرار الشريعة.

يا شباب، المؤمن عميق الإحساس بما منَ الله عليه من فضل عميم، وإحسان عظيم، ونعم تحيط به عن يمينه وشماله، ومن بين يديه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته، إنه يشعر دائماً بنعمة الله عليه منذ كان في المهد صبياً بل منذ كان في بطن أمه جنيناً، كان صبياً وليداً لا سن له تقطع، ولا يد له تبطش، ولا قدم له تسعى، فأجرى الله له عرقين رقيقين في صدر أمه يجريان لبناً خالصاً كامل الغذاء دافئاً في الشتاء بارداً في الصيف، وألقى الله محبته في قلب أبويه فلا يطيب لهما طعام ولا شراب ولا يهنأ لهما نوم ولا عيش حتى يكفياه ما أهمه ويدفعا عنه كل سوء.

وورع الجيل الرباني

إن مفتاح شخصية الفاروق إيمانه بالله تعالي، والاستعداد لليوم الآخر، وكان هذا الإيمان سبباً في التوازن المدهش والخلاب في شخصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ولذلك لم تطغ قوته علي عدالته، وسلطانه علي رحمته، ولا غناه علي تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، فقد حقق شروط التوحيد من العلم، واليقين، والقبول، والانقياد، والإخلاص، والمحبة، وكان علي فهم صحيح لحقيقة الإيمان، وكلمة التوحيد، فظهرت آثار إيمانه العميق في حياته.

مرة قيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه من بعض أصحابه: إن الناس هابوا شدتك - أي أنهم خائفون منك -، هنا صعد أمير المؤمنين المنابر، وقال: بلغني أن الناس هابوا شدتي، وخافوا غِلظتي، وقالوا: قد كان عمر يشتد ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، ثم اشتد علينا وخليفة رسول الله أبو بكر ألين منه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟!

أصبحت هنا مشكلة، كان يشتد والنبي الكريم يخفف عن الناس، وكان يشتد والصديق يخفف، فكيف الحال وقد أصبح الحاكم الأول لدولة الإسلام.

فقال: ألا من قال هذا فقد صدق، فإني كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عونه وخادمه، وكان صلى الله عليه وسلم لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة، وكان كما قال الله تعالى: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}(التوبة: ١٢٨).

فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يُغمدني، فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض، والحمد لله على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد كنت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم قوة، إما أن يستخدمني وإما ألا يستخدمني، هو كان رحيم، وأنا شديد.

قال: ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر، فكان من لا تنكِرون دعته وكرمه ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلِط شدتي بلينه فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني، أو يدعني فأمضي، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عزَّ وجل، وهو عني راض، والحمد لله على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد.

فقال: ثم إني قد وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا إن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم بعضاً.

عبرة:

يا شباب، إن الإيمان في حياة الفرد أهمية كبيرة جداً، وذلك أن نور الإيمان عندما يدخل في القلب يبدد جميع الظلمات، ويحرق جميع الشهوات، فقد قال رب العزة سبحانه: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} (الأنبياء: ١٨). وكذلك الإيمان يصنع المعجزات ويتخطى كل الحدود والمقاييس الأرضية، كما أن للإيمان دوراً في تقويم السلوك وحل المشكلات، وعندما يدخل الإيمان إلي قلب العبد وتشتعل جذوته تتبعه العديد من التغيرات القلبية، والحياتية للعبد.

أرأيتم أيها الأخوة، هو للمؤمنين رؤوف رحيم، لين مطواع، أما أهل الظلم والتعدي فهو شديد عليهم.

يا أيها القارئ الكريم، متى دخل الإيمان إلي قلب المسلم أورث صاحبه قوة كبيرة، وذلك لأنه يركن إلي الله تبارك وتعالي القوى المتعال، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، كما أن الإيمان يجعل المؤمن يشعر بالعزة والاستعلاء والمنعة، حقاً إن العزة الحقيقية تكمن في صاحب الإيمان.

أبعدوا هذا الطعام عنَي

كان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه كلما نظر إلي الثراء الضخم الذي رزقها الله به، اشتد خوفه من أن يكون الله تعالي قد عجل له به زينة الحياة الدنيا وحرمه نعيم الآخرة، فكان رضى الله عنه يعين المحتاج، ويعطي المسكين، والفقير، ويبر ذوى القربى، ويجهز الجيوش الغازية في سبيل الله، حتى بلغ من كثرة عطائه أن يقال: إن أهل المدينة شركاء لعبد الرحمن بن عوف في ماله، فقد كان يعيهم ثلثه قرضاً، ويقضى بالثلث الثاني ديونهم، ويصلهم بالثلث الباقي.

ومن شدة ورعه رضى الله عنه إنه كان صائماً ذات يوم، ولما أُحضر له طعام الإْفطار، ورأى كثرته وألْوانه المتعددة الفاخرة، كفَّ يده عنه، وجعل يصيحُ فيمن حوله باكياً، ويقول في خوف شديد: ارفعوا هذا الطعام من أمامي، فإني أخشى أن نكون أعطينا ما في الدنيا، ولم يعد لنا في الآخرة من نصيب وجعل يردد قول رب العزة سبحانه: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْأَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} (الشورى: ٢٠).

ثم زادت دموعه انهماراً، وهو يقول لهم مشدداً: أبعدوا هذا الطعام عني، فقد استشهد مصعبُ بن عمير، وهو خيرٌ مني، فلم يوجد له كفنٌ، فكفناهُ في ثوب إن ستر رجليه بدا رأْسه، وإن ستر رأْسه بدت رجلاه**!!**

واستشهد حمزة بن عبد المطلب عم الرسُول صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد، وهو خيرٌ مني، فلم نجد له ما يكفن فيه سوى ثوب إن ستر رجْليه بدا رأْسه، وإن ستر رأسه بدت رجْلاهُ**!!** ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما شبع هو وأهله من خبز الشعير.

عبرة:

يا أيها القارئ الكريم، الإيمان بالله يورث القلب المراقبة لله، والتقوى منه سبحانه وتعالي، والمراقبة حين تستقر في القلب ترتفع بالإنسان إلي آفاق عالية من النور والشفافية، فعلى المسلم أن يراقب الله في سره وعلانيته وعلي كل حال من الأحوال، ومن كان الله مراقبه فيحذر أن يراه الله تعالي علي حال من تقصير أو تفريط.

يا شباب، أقول لكم هذا الكلام: إذا كثر رفه المؤمن فهو في خوف مِن سوء المصير، أما إذا كان بالكفاف فهذه نِعمة، هذه دار عمل وليس دار بَسط ولا دار نعيم، هي دار أبتلاء وامتِحان وطاعة ومجاهدة والتِزام، فالمؤمن الصادق إذا شعر أن رفاهته أكثر مما يجب يحُسّ بِضيقٍ، حاله حال طالب دخل إلى المدرسة، له أحلى طاولة، وأحلى كرسي، ومن جهة الشمس، هذه مدرسة للعلم وليست للتشمس.

يا أيها القارئ الكريم، اعلم أن الله تعالي إذا أراد بعبد خيراً بصّره بعيوب نفسه، فمن كانت له بصيرة لم تخف عليه عيوبه، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم، يرى كل واحد من القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه، فلا يشغله عيب نفسه فيصلحه، وينشغل بذلك عن الناس (خيركم من شغله عيبه عن عيوب الناس).

كدت أن تهلكني

إن مظاهر العظمة تعرف ولا توصف، مثلها في ذلك كمثل الجمال، فإنه وصف مركب من جملة خصائص وسمات روحية وعقلية وجسدية متشابكة يدل كل منها علي الآخر، ثم يدل الجميع أن هذا الكائن جميل وعظيم ونفيس ولطيف إلي آخر هذه الأوصاف التي يعبر قائلها عن إعجابه بما يراه ببصره وبصيرته.
ولقد كان الصديق رضى الله عنه قدوة في وروعه وزهده يأسر القلوب ويبهر الألباب، فالزهد في نظره دعوة عملية للإسلام، ومن شدة يقظة الصديق وروعه لم يطق أن تستقر في جوفه لقمة يشك في مأتاها مجرد شك، لأنه يعلم أن من نبت جسمه من الحرام فالنار أولى به، ويعلم أنه من لم يطب مطعمه لا يكون مجاب الدعوة، فتعالوا بنا لنري هذا المشهد الرائع.
كان لأبي بكر الصديق رضى الله عنه مملوك يغل عليه، فأتاه ليلة بطعام فتناول الصديق منه لقمة، فقال له المملوك: كنت تسألني كل ليلة عن الطعام من أين، ولم تسألني الليلة عن هذا الطعام الذي أكلت منه؟ قال الصديق: حملني علي ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟ قال المملوك: مررت بقوم في الجاهلية، فرقيت لهم فوعدوني، فلما أن كان اليوم مررت بهم، فإذا عرس لهم فأعطوني. قال الصديق: إن كدت أن تهلكني. فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ، وجعلت اللقمة لا تخرج. فقال المملوك له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدعا الصديق بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها. فقال له المملوك: يرحمك الله، كل هذا من أجل هذه اللقمة. قال الصديق: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها.
عبرة:
يا أيها الأخوة الكرام، هذا مثال علي ورع أبي بكر الصديق رضى الله عنه حيث كان يتحرى الحلال في مطعمه ومشربه، ويتجنب الشبهات، وهذه الخصلة تدل علي بلوغه رضى الله عنه درجات عُليا في التقوى، ولا يخفى أهمية طيب المطعم والمشرب والملبس في الدين وعلاقة ذلك بإجابة الدعاء.
يا أيها الأخوة الكرام، لم يكن الصديق رضى الله عنه يلتزم القناعة لمجرد الزهد، بل كانت قناعته جزءاً من حياته، فهو يقدس اللقمة الحلال، ويحاذر أن يدخل جوفه كسرة فيها شبهة حرام، وكان أيضاً يرى أن الحلال ليس من الكثرة بحيث يتسع للإسراف، فقد كان ليؤثْر أن يشد علي بطنه الحجر كما فعل مُعلمه ورسوله وحبيبهُ صلى الله عليه وسلم، علي أن يدخل أمعاءهُ لقمة فيها شبهة، وهكذا يجبُ أن يكون الصديق رضى الله عنه قدوتنا في عدم مساسُ الحرام.

إن الصحابة الكرام هم أعلم الخلق بالله، وأعرف البشر بدين الله عز وجل، كانت نظرتهم إلي الدنيا هي النظرة الأكمل والأصوب جعلوها مزرعة للآخرة؛ وعرفوا أنها ظل زائل، وعارية مسترجعة، وأن الآخرة خير وأبقى، فالله جل جلاله رباهم علي ذلك في كتابه وهم أول من استجاب له وهم أصدق من انقاد لحكم الله عز وجل، ولقد غرس فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق الذهد في هذه الدار وعظمة الرغبة في الآخرة الباقية، فلذلك خرج هذا الجيل الرباني الفريد في أبهى صورة من السمو والبهاء، ونحن في هذا السطور نعيش سوياً مع أستاذ الزهد والورع الفاروق رضى الله عنه.

قبل أن يلي عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمور المسلمين ويصير علي رأس الدولة الإسلامية، كان تاجراً يكسب عيشه ورزق أهله من التجارة، كان عمر يقول: يا قوم إني كنت امرءاً تاجراً يغني الله عيالي بتجارتي، وقد شغلتموني بأمركم هذا فما ترون أنه يحل لي من هذا المال؟

فقال علي بن أبي طالب: لك ما أصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره، ففرض له من بيت المال ما يعيش به هو وعائلته في مستوى الكفاف.

وكان مع الأيام تزداد تبعاته، وتزداد احتياجاته ونفقاته، ويرفع كلما هب الرخاء رواتب جميع المسلمين في المدينة وخارجها، لكنها لا يفكر في أن يزيد نفسه درهماً، حتى سمع أصحابه يوماً أن أمير المؤمنين يقترض ليعيش، فاجتمع نفر من كبار الصحابة فيهم عثمان، والزبير، وطلحة، وعلي، واتفقوا علي أن يتحدثوا معه، ويطلبوا إليه أن يزيد في راتبه، ومخصصاته، لكنهم عادوا وتهيبوا محادثته، لأنهم يعرفون أنه في هذه المسألة بالذات شديد الوطأة، شديد الغضب.

فقال عثمان: هلم فلنعلم ما عنده من وراء، وراء، فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضى الله عنها فأعلموها الحال وأوصوها ألا تخبر بهم عمر حتى لا يغضب.

ذهبت حفصة رضى الله عنها إلي أبيه متهيبة، وأخذت تسوق الحديث بحذر ورفق.

فقال عمر: من بعثك إلي بهذا؟

قالت: لا أحد يا أمير المؤمنين.

قال: بل بعثك بهذا قوم، لو عرفتهم لحاسبتهم.

ثم قال لابنته: لقد كنت زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فما أفضل ما اقتني رسُول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملبس؟

قالت: ثوبين بمشقين كان يلبسهما للوفد والجمع.

قال: فما أطيب الطعام ناله عندك؟

قالت: خبز شعير طري مثرود بالسمن!!

قال: فما أوطأ فراش كان له في بيتك؟

قالت: كساء ثخين، كنا نبسطه في الصيف، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه، وتدثرنا بنصفه!!

قال: يا حفصة فأبلغيهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية، فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجية، وإنما مثلي ومثل صاحبيَ -يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر - كثلاثة سلكوا طريقاً، فمضى الأول وقد تزود فبلغ

المنزل، ثم اتبعه الآخر، فسلك طريقه فأفضى إليه، ثم الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما!!
عبرة:
تأمل يا أخي الكريم، معي كيف أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع إقبال الدنيا علي المسلمين وتغير الأحوال عما كانت في عهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وعن عهد الصديق رضى الله عنه، لم يجد لنفسه مسوغاً أن يزيد عما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل اتبع هديه وسار بسيرته ليلقاه آمناً، وكان رضى الله عنه يقول: أنا كوصي علي مال اليتيم إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف.
يا أيها القارئ الكريم، إن الإسلام يقرن بين مطالب الجسم، والنفس في تعاليمه، ويكف طغيان أحدهما علي الآخر، ويرى في تنسيق حاجاتهما عوناً للمرء علي أداء رسالته في هذه الدنيا وما بعدها، والفلسفات التي نبتت في الأرض، والتي اصطنعها الناس ليحيوا في نظافتها عندما غابت عنهم هدايات السماء، هذه الفلسفات قلما نجحت في التوفيق بين ضرورات البدن، وأشواق الروح، وبين كفالة الآخرة التي سنصير إليها، ورعاية الدنيا التي بدأنا المسير منها!!

للمرأة المسلمة أن تقرأ سيرة هذه العجوز الصابرة الوفية لدينها، فتأخذ منها العظة والعبرة، فتصبر علي ما أصابها، ثقة بالله، وطمعاً في ثوابه، محتسبة أجرها عليه في جميع ما تقوم به من عمل صالح، وجهد مشكورٌ، إنها امرأة من أهل الجنة، أنها صحابية جليلة صابرة محتسبة، إنها صاحبة جلباب العفة والطهارة، أبثُ أن تكشف شيئًا من عورتها أو جسدها مع أنها كانت مريضة بالصرع، ومجبرة علي كشف سوأتها.

إنني أزف هذه البطلة النجمة في سماء العفة والطهارة لنساء العصر الحديث اللاتي كشفن مفاتنهن، وأظهرن عوراتهن، وتفنن في العرى والسفور بكافة السبل، وبسائر الأساليب، وجمعن مع التبرج والسفور، وتغيير خلق الله تعالي، فظفرت بلعنات ولعنات من رب الأرض والسماوات، فيا من تخافين عذاب الله كوني كهذه الصحابية الجليلة.

يقول عطاء بن أبي رباح رحمه الله: قال لي ابن عباس رضى الله عنهما: ألا أُريك امرأة من أهل الجنة يا عطاء؟، فقلت له: بلي يا عبد الله، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إني أُصرع، وإني أُتكشف، فادع الله لي، فقال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالي أن يعافيك، فقالت: بل أصبر يا رسول الله، ثم قالت: يا رسول الله إني أتكشف أمام الناس، فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها.

نعم صبرت علي الصرع من أجل الجنة، ولكنها تطلب الدعاء حتى لا تظهر مفاتنها، فقالت: أن صابرة، لكن السفور ولو مع المرض، لا أرضاه ولا أهواه، وأخشى ما أخشاه، وهل المرأة السوداء يمكن أن تقول: ومن ينظر إلي وأنا سوداء، أو أنني في مجتمع طاهر بيئة صالحة، وحكومة تقية مؤمنة، وصحابيات تائبات عابدات طاهرات مُطهرات، ولكنه الإيمان العميق يا أخوات.

عبرة:

أيتها الأخوات المؤمنات إن هذا الموقف لهذه المرأة لقصة عظيمة تروى في مكارم الأخلاق وجميل الصفات، ومحاسن القيَم، وجمال الحياء، ونقاء القلب وصفاءه، نعم**!!** قالت: يا رسول الله إِنّي أتكشف فادع الله لِي أن لَا أتكشف، فكان هذا التكشف الذي يقع عن غير طوعٍ واختيار، وعلى وضع لا ملامة عليه فيه، كان تكشفا يؤرقها ويقلقها، إذا كانت هذه حالها - وما أكرمها من حال وما أعظمه من وصف - فكيف الحال بامرأة تتكشف مبدية محاسنها مظهِرة مفاتنها مبرزة جمالها مع طوعها واختيارها غير مبالية ولا مكترثة لا بحياء ولا إيمان**!!** تسمع آيات الله وتسمع أحاديث رسول الله، وتسمع ما في التبرج والسفور من وعيدٍ وتهديد فلا تبالي بشيء من ذلك، ولا تكترث بهذا الأمر.

أيتها الأخوات المؤمنات هذه المرأة التي هي من أهل الجنة كان تكشفها بسبب الصرع، وكانت تكره ذلك التكشف أشد الكراهة، لكن ما يقع في عدد من النساء من تكشف وتبرج وسفور سببه، صرع أصيب به هؤلاء النساء، ولكنه من نوع آخر، صرْعٌ شديد على من يصاب به وسببه ضعف الإيمان، وقلة الدين، وذهاب الحياء، إنه صرع الشهوات، أن يكون الإنسان صريع شهواته، وصريع تتبع ملذاته، فيكون بهذا الصرع ليس مبالياً ولا مكترثاً بما يفعله، أهو آمن من سخطه عز وجل أما لا؟ وبسبب كثرة الفتن، وكثرة دواعي الشهوات، وبروز أصناف رضا الله المغريات في

حياة الناس في هذا الزمن، وما استجدَّ فيه من وسائل حديثة كثير منها تؤجِّج الفتن، وتثير في النفوس الشهوات.

لقد رأينا في سيرة الفاروق عمر رضى الله عنه كيف تفوق بمسئولياته علي كل خوالج النفس، ورغبات الأهل، فلنظر كيف باشر مسئوليته تجاه حقوق الرعية التي استخلفه الله عليها، وهنا نلتقي مثلما التقينا من قبل - وكما سنلتقي دائماً معه - بالرجل الذي هو نسيج وحده، إنه يرى مسئوليته مباشرة عن كل رجل في سرْبه، وعن كل امرأة في بيتها، وعن كل رضيع في مهده، بل عن كل حيوان تابع لبيت المال، فقد كان رضى الله عنه يقسم لو أن بعيراً من إبل الصدقة ضاع علي ضفاف دجلة أو الفرات، وعمر بالمدينة، لخاف أن يسأله الله عنه، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الماتع للفاروق.

في يوم صائف قائظ يكاد حره يذيب الجبال، أطل عثمان بن عفان رضى الله عنه من بناية له بالعالية، فرأى رجلاً يسوق أمامه بعيرين صغيرين، والهواء الساخن يغشاه كلفح السمُوم،

فقال عثمان: ما علي هذا الرجل لو قام بالمدينة حتى يرد ثم يروح؟، وأمر خادمه أن ينظر من هذا الرجل العابر من بعيد، والذي تخفي الزوبعة والرمال معالمه.

ونظر الخادم من فرجة الباب، فقال: أرى رجلاً معمماً بردائه يسوق بكرين من الإبل أمامه، وانتظر الخادم حتى اقترب الرجل، فعرفه الخادم وصاح: إنه أمير المؤمنين، إنه عمر بن الخطاب!!

فأخرج عثمان رضى الله عنه رأسه من كوة صغيرة متوقياً سخونة الريح، ونادي: ما أخرجك هذه الساعة يا أمير المؤمنين؟!

فقال عمر: بكران من إبْل الصدقة تخلفَا عن المرعى، وخشيت أن يضيعا، فيسألني ربي عنهما!!

فقال: عثمان: هلم إلي الظل والماء يا أمير المؤمنين، ونحن نكفيك هذا الأمر.

فقال عمر: بل عد إلي ظلك يا عثمان.

فقال عثمان: عندنا من يكفيك هذا الأمر يا أمير المؤمنين.

قال عمر: جزاك الله خيراً عد إلي ظلك يا عثمان، ومضى لسبيله، والحر يصهر الصخر.

فقال عثمان: من أحب أن ينظر إلي القوي الأمين، فلينظر إلي عمر بن الخطاب.

عبرة:

أيها الأخوة، ليس غريباً أن أقول لكم: إننا أمام وقائع كالأساطير، ولكنها وقعت، الأساطير قصص لا يمكن أن تقع، وإن دلت هذه الأخبار على شيء فإنما تدل على أثر الإيمان الصحيح في نفس الإنسان، فالإنسان إذا آمن ففي اللحظة التي يستقر فيها الإيمان في قلبه، يعبّر عن ذاته بذاته بحركة نحو خدمة الخلق، ونحو اتصاله بالحق، الإيمان حركة، الإيمان عمل، الإيمان مثل، الإيمان قِيَم.

يا أخي الكريم، عمرك الذي تمضيه بين الولادة والوفاة لا قيمة له إطلاقاً، هذا أتفه أعمالك، لكن عمرك الحقيقي هو حجم عملك الصالح، هذا العمل كلما اتسعت رقعته، وكلما عم خيره، وكلما أمتد أمده، وكلما اشتد أثره، كان أعظم عند الله عز وجل، وهذا العمل الصالح كلما كثرت المعوّقات أمامه، وكلما كثرت الصوارف عنه فهناك صوارف كثيرة، والأعوان قلائل، وكلما كان هذا العمل في زمن الفساد، إذا تجبّر الأقوياء، وجار الأمراء، وأُترف الأغنياء، وداهن العلماء، وظهرت الفاحشة، كلما كان العمل أعظم عند الله عز وجل.

مازلنا نتعايش بقلوبنا مع هذا البستان الذي لا ينتهي عبيره ولا تجف أرضه، ولا تنقطع ثماره وأزهاره، نحن في هذه السطور علي موعد مع زهرة يانعة غُرست في حقل الإسلام، وسُقيت بماء الوحي فنثرت عبيرها في الآفاق علي مدار الأيام والأعوام فكانت سيرتها وما زالت تطيب القلوب والأسماع بذكرها، إننا علي موعد مع الصحابية الشهيدة أم ورقة بنت عبد الله فلو أردت أن أجمع مناقبها في كلمة واحدة فسوف أقول: العابدة، فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع موقف رائع من سيرتها العطرة.

كانت أمُ ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصارية رضى الله عنها، إحدى نساء الأنصار الفضليات، ممن نذرن أنفسهن للعبادة والطاعة، والسعي لمرضاة الله عز وجل، ورسوله صلى الله عليه وسلم، وقد تفردت رضى الله عنها بين النساء بمكرمة جليلة، رفعتها عالياً في سماء العبادة والزهد والتقى، فقد كانت هذه المرأة الرزان الحصان جمعت القرآن الكريم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وحفظته، وفهمت معانيه، فأعظم بها من فضيلة، وأُكرم بها من حافُظة، وكانت رضى الله عنها من جموع السابقات إلي الإسلام، وتشرفت بمبايعة النبي صلى الله عليه وسلم، كما تشرفت بالرواية عنه.

عرفت أمُ ورقة بنقاء السريرة، وصفاء النفس، وكثرة العبادة، وتلاوة القرآن، فقد وصلت نهارها بليلها في طاعة الرحمن، وكانت صلاتها موصولةً بصيامها، فحظيت بالإكرام من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يخصها بالزيارة بين الفينة والأخرى، وذات مرة زفَ إليها نبأ ملأ جوانبها سروراً، حيث أخبرها أنها ستكون شهيدة، فكانت تعرف بهذا اللقب، وتسمى الشهيدة، وكانت أمُ ورقة رضى الله عنها قد أغرمت بالعبادة والصلاة غراماً شديداً.

ولما دعا داعي الجهاد إلي غزوة بدر، ابتدر المسلمون يسارعون إلي الفوز بمرضاة الله سبحانه وتعالي، ويتسابقون للظفر بشرف الجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم، والخروج إلي بدر، جاءته أمُ ورقة من أقُصى المدينة تسعى وقالت: يا رسول الله، ائذن لي أن أخرج أداوي جرحاكم، وأمرض مرضاكم، لعل الله يكتب لي الشهادة، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يهديك الشهادة، وقرَي في بيتك فإنك شهيدة.

وقرَت أمُ ورقة في بيتها تنتظر الشهادة، وما أخبرها به النبي صلى الله عليه وسلم من فوزها بالشهادة، فرسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وتبعت أمُ ورقة رضى الله عنها حياة الزهد والعبادة، إلي أن توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنها، وظلت أمُ ورقة ترجو الشهادة في سبيل الله، وتسأل الله أن يرزقها الشهادة، فنالتها في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وتحققت بشراه لها بالشهادة.

فقد كان لأمُ ورقة رضى الله عنها غلامٌ وجارية، وكانت قد وعدتهما بالعتق بعد موتها، ولما علم الغلام والجارية بهذا الشرط ظنا أن الحياة ستطول بأمُ ورقة رضى الله عنها، فسوَلت لهما أنفسهما أمراً رديئاً، فقاما إليها بالليل فغمياها ثم قتلاها وهربا.

وكان من عادة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يسمع قراءة أمُ ورقة كل ليلة، ولكنه لم يسمع صوتها في هذه الليلة، فلما أصبح قال: والله ما سمعت قراءة خالتي أمُ ورقة البارحة، فدخل دارها فلم يرَ شيئًا، ولم يسمع صوتاً، فدخل البيت فإذا هي ملفوفة في قطيفة في جانب البيت، فقام عمر في

الناس وقال: صدق الله ورسوله، إن أمُ ورقة غمها غلامها وجاريتها فقتلاها، وإنهما هربا، فأمر بطلبهما فأدركا وأتي بهما، فسألهما الفاروق فأقرا أنهما قتلاها، فأمر بهما فصلبا فكان أول مصلوبين بالمدينة، عندئذ قال عمر: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: انطلقوا بنا نزور الشهيدة.

عبرة:

يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد شغفت أمُ ورقة رضى الله عنها بالقرآن الكريم شغفاً جعلها من الحافظات لكتاب الله عز وجل، تتلوه حق تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وظفرت بما كانت تتمناه فرزقها الله الشهادة، وصدق رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بما حدث من الغيوب المستقبلة، وهذا من دلائل صدق نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونالت بذلك أمُ ورقة أجُر الشهداء الذين آتاهم الله من فضله، وحظيت بالجنة التي وعد المتقون بها.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، مها حاول الإنسان جاهداً أن يغير ما لم يقدره الله تعالي فلن يفلح، ومهما حاول النجاة من الموت، إن قدر له فلن يستطيع، ومهما حاول النجاة بنفسه من مرض أو غرق أو قتل، فلن يقدر تماماً، فالإنسان يرفع يده بالدعاء كي يرد البلاء، أو يخفف عنه هذا البلاء، ولكن إذا أتى أمر الله فلا محيص عنه.

إن القربى من عمر، لا تعني أن العدل في إجازة، ولا تعني أن القانون لغو، بل تعني أضعافاً مضاعفة من التبعة والمسئولية والحرمان، تنعي البعد عن كل شبهة، والتخلي عن كل متعة، تعني أن يتقدم هؤلاء الأقرباء عند الخطر، ويتأخروا عند المغنم، بل هي كذلك تعني عند عمر حرمانهم من حق مكتسب، تفادياً لشبهة محتملة.

ولو رأيناه وهو يعاتب ولده عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لرأينا عجباً، مع أن عبد الله كان إماماً في الورع والزهد والتقى، وكان يتبع خطى أبيه في الأعمال الصالح، وشدة الخوف ومراقبة الله عز وجل في كل شيء، ولم تكن نفسه لتزين له شبهة من سوء، ومع هذا فما كان عمر يراه يستروح نعمة متواضعة من نعم الحياة الدنيا، إلا قال له: لأنك ابن أمير المؤمنين؟!

وكانت هذه العبارة: لأنك ابن أمير المؤمنين، تمثّل الشعار الحيّ الذي رفعه عمر لأهله بخاصة، وللناس كافة في خلافته تجاه الحق والعدل، فيدخل يوماً دار ابنه عبد الله، فيجده يأكل شرائح لحم، فيغضب ويقول له: لأنك ابن أمير المؤمنين تأكل لحماً، والناس في خصاصة.

ويخرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذات مرة إلى السوق في جولة تفتيشية، ليرى أحوال الناس، فيرى إبلاً سمينة تمتاز عن بقية الإبل بنموها وامتلائها، فيسأل: إبل من هذه؟، فقالوا: هي إبل عبد الله بن عمر يا أمير المؤمنين، هنا انتفض أمير المؤمنين، وكأن القيامة قد قامت، وقال: عبد الله بن عمر، بخٍ بخٍ يا ابن أمير المؤمنين.

وأرسل في طلبه فوراً، وأقبل عبدُ الله يسعى، وحين وقف بين يدي والده خليفة المسلمين، أخذ عمر يفتل سبلة شاربه، وتلك عادته إذا أهمَّه أمرٌ خطيرٌ، فأحياناً الإنسان منا يحكُّ رأسه، أو يحرِّك ثيابه، كل إنسان له طريقة.

فقال:ما هذه الإبل يا عبد الله؟

فأجاب: إنها إبل أمضاء - يعني هزيلة - اشتريتها بمالي، وبعثت بها إلى الحمى - أي إلى المرعى - أُتاجر فيها، وأبتغي ما يبتغي المسلمون.

فقال عمر متهكماً تهكماً لاذعاً، ويقول الناس حين يرونها: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين، وتسمن إبل ابن أمير المؤمنين، فبع هذه الإبل يا ابن أمير المؤمنين، وخذ رأس مالك منها، واجعل الربح في بيت مال المسلمين.

هذا يا سادة إدراك نادر، أن هذا ابن أمير المؤمنين، فلعل الناس أعطوه فوق ما يستحق، ولعلهم أكرموه، أرأيتم هذه النزاهة.

يا خالق هذا الإنسان، سبحانك!!

إن عبد الله بن عمر لم يأت أمراً نكراً، إنما يستثمر ماله الحلال في تجارة حلال، وهو بدينه القوي، وأخلاقه الأمنية فوق كل شبهة، فقد كان رضى الله عنه من أتقى وأعلم الصحابة بالحلال والحرام، ولكن لأنه ابن أمير المؤمنين، يحرمه أمير المؤمنين مما هو له حق، مظنة أن تكون بنوته لعمر، قد هيأت له من الفرص ما لا يتوافر لغيره من الناس.

عبرة:

يا أيها القارئ الكريم، هذا حاكم يمسك الميزان في رهبة لا تماثلها رهبة، وهو لا يدرأ أهله عن أن يكونوا أهل حظوظ ومزايا فحسب، بل إنه ليضطرهم إلي أن يعيشوا معه فوق صراط أحد من

الشفرة، وأرق من الشعرة، حتى لكأنما رزئوا بقرابة عمر بدل أن يهنوا بها ويتبذخوا فيها.
ما أروع الفاروق ورعاً عن مال الله، وما أعظمها من حجة علي كل حاكم وأمير، فالواجب علي كل من تولى أمانة المسلمين أن يكف يده عن الظلم والخيانة، وأن يرقب الله في السر والعلانية.
يا أخوة، هذه الأعمال لا تنبع إلا من نفس تحاسب نفسها علي كل شيء، ولا يصدر عن قلب إلا من قلب يخشي الله ويتقيه، ولقد كان شعار الفاروق دائماً المحاسبة فقد كان يقول: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا فإنه أهون عليكم في الحساب غداً، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتجهزوا للعرض الأكبر.

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كالنجوم الزاهرة، والكواكب النيرة، إذا نظرت في كل جانب من جوانب سيرهم: رأيت فيه شعاعاً قد اقتحم قلبك، وملَك عليك مشاعرك، ووجدت فيه ما يهديك إلي رشد تنتظره، ويدفعك إلي خير ترجوه، وقد فضَل الله بعضهم علي بعض، كما فضل النبيين بعضهم علي بعض، وهذا التفضيل يتفاوت بحسب تفاوتهم في الإخلاص والسَبْق إلي الإسلام، وغير ذلك مما خصهم به من قدرات وملكات، وعلي رأس هؤلاء الغر الميامين الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة رضى الله عنه الشاعر الشهيد.

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يبعث عبد الله بن رواحة الأنصاري رضى الله عنه، إلي يهود خيبر يخرص عليهم النخل، فكان يخرصها، فإذا خرص قال: إن شئتم فلكم أربعين ألف وسق، فجمعوا حُليا من حُلي نسائهم.

فقالوا له:يا ابن رواحة هذا لك، وتجاوز في القسْم.

فقال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه:يا معشر يهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ، وما ذاك بحاملي علي أن أحيف عليكم، والرشوة سحت، ونحن لا نأكل السحت معشر المسلمين. فقال اليهود: بهذا قامت السموات والأرض.

عبرة:

يا شباب، في هذا الخبر موقف جليل لعبد الله بن رواحة رضى الله عنه في الورع والعدل، فقد عرض عليه اليهود الرشوة من أجل أن يخون الأمانة، وذلك بأن يزيد في نصيبهم من التمر عند الخرص، فأبي أن يأخذ منهم ما عرضوا عليه، وبين لهم أن العدل يقتضي منه أن يعطيهم حقهم كاملاً، وإن كانوا أبغض خلق الله إليه، فاعترفوا بحكم الحق والعدل وقالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

إن تقديم هذا اطلب من اليهود دليل علي عدم تصورهم لما ينتجه الدين الصحيح من تصحيح للفكر، وتقويم للسلوك، ذلك لأن دينهم المحرف لا أثر له في سلوكهم، ولو أنهم عقلوا ودرسوا دين الإسلام دراسة دقيقة وسبرُوا حياة الصحابة رضى الله عنهم لعرفوا أن تحقيق هذا المطلب بعيد المنال منهم.

إن الذين قطعوا حبال الصلة مع كل أحلافهم في الجاهلية مع ما يترتب علي ذلك من ضرر مادي، والذين قابلوا في الميدان الحربي أصدقاءهم وحلفاءهم بل أقاربهم، والذين باعوا أنفسهم لله تعالي، وطلبوا الموت في مظانَه رغبة في الشهادة في سبيل الله عز وجل، والذين سهروا الليالي يناجون الله تعالي وكابدوا ظمأ الهواجر تقرباً إليه جل وعلا، إن هؤلاء العظماء لا يتصور عاقل أن نفوسهم ستصعف حتى يأخذوا الرشوة ويخونوا الأمانة.

لقد كانت أخلاق الإسلام، وأمور الحلال والحرام مطبقة عند هؤلاء الصفوة من قبل أن يرتفعوا إلي مستوى الجهاد الأختياري الذي يتنافسون علي الاشتراك فيه، ويتسابقون إلي المواطن الفدائية في ملاحمه.

لقد حرم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه نفسه من طيبات كثيرة، ومن مناعم لم يحرمها الله عليه، لأنه كان يرى نفسه عاجزاً عن شكر القليل، فلم يرد أن يتورط في عجز أكثر أمام النعم الكثيرة، ولأنه كان يحمل في أمانة كاملة مسئولية القدوة، ولو شاء رضى الله عنه أن يظفر بالمناعم المباحة علي كثرتها لظفر بها جميعاً، لكن بطولة روحه، وعظمة نفسه، واستقامة قلبه، واستقامة نهجه حملته دائماً علي أن يلتزم الكفاف ويختار شظف العيش، ويروى في كتب السير هذا الموقف الرائع له، فتعالوا بنا لنعيش سوياً من خلال تلك السطور هذا المشهد النادر في دنيا البشر.

في يوماً من الأيام زاره حفص بن أبي العاص، وكان أمير المؤمنين عمر جالساً إلي طعامه، فدعا حفص إلي الطعام، لكن حفصاً رأي القديد اليابس الذي يأكل منه أمير المؤمنين، فلم يشأ أن يكبد نفسه عناء ازْدراده، ولا أن يجشم معدته مشقة هضمه، فاعتذر شاكراً.

وأدرك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سر عزوفه عن طعامه، فرفع بصره نحوه وسأله:

ما يمنعك عن طعامنا يا حفص؟

ولم تنقص الصراحة حفصاً فقال: يا أمير المؤمنين، إنه طعام جشب غليظ وإني راجع إلي بيتي فأصيب طعاماً ليناً قد صنع لي!!

فقال عمر: أتراني عاجزاً عن أن آمر بصغار المعزى، فيلقي عنها شعرها، وآمر برقاق البر، فيخبز خبزاً رقاقاً، وآمر بصاع من زبيب فيلقى في سمن، حتى إذا صار مثل عين الحجل صُبَ عليه الماء، فيصبح كأنه دم غزال فآكل هذا وأشرب هذا؟!

فقال له حفص وهو يضحك: إنك بطيَب الطعام لخبير يا أمير المؤمنين!!

واستأنف عمر حديثه فقال: والذي نفسي بيده، لولا أن تنقص حسناتي لشاركتكم في لين عيشكم، ولو شئت لكنت أطيبكم طعاماً، وأرفهكم عيشاً، ولنحن أعلم بطيب الطعام من كثير من آكليه، ولكننا ندعه ليوم تذهل فيه كل مرضعة عمَا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، وإني لأستبقي طيباتي، لأني سمعت قول الله تعالي عن أقوام: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا}(الأحقاف: ٢٠).

عبرة:

يا أيها القارئ الكريم، لم تدعه نفسه رضى الله عنه إلي لذيذ العيش، ونعيم الدنيا، ولم يهتم إلا بشيء واحد، ألا هو رفع المعاناة عن المسلمين ما استطاع إلي ذلك سبيلاً، فقد أخذ نفسه وأهله بحال من الزهد حتى ساوى نفسه بفقراء ومساكين المسلمين، وتحت يده خزائن الأرض.

إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إنسان قد تجسدت فيه معاني الإنسانية، ورجل قد اكتملت فيه معالم الرجولة، وجندي قد سمت جنديته إلي المعالي حتى قيل إنه لا شيء منها لم يبلغه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد كان شديد الخوف من الله سبحانه وتعالي تنهمر دموعه أمام كل ما يذكره بيوم القيامة، وكان رضى الله عنه من شدة خوفه من الله تعالي يحاسب نفسه حساباً عسيراً.

يا شباب، أن حياة المؤمن المصدق بالدار الآخرة ليست كحياة الكافر الذي يعتبر عمره فوق ظهر الأرض هو دنياه وآخرته معًا هو فرصته الأولى والأخيرة لقضاء لباناته، وإدراك غاياته، وأكثر

الذين يفقدون عفتهم، ويتبعون نزواتهم، ويعيشون للمتع وحدها، فهم كالحيوانية كقائمة علي عبث الشهوات ومطاوعة الأهواء.

كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه رجلٌ عظيم القدر، رفيع المنزلة، عاش متأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد جاهد في سبيل الله، وأنفق كل ماله في سبيله، نصر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يوم خذله الناس، وآمن به يوم كفر به الناس، وصدقه يوم كذبه الناس، جهل فعله الكثير من أبناء الأمة، وبخسوه حقه، وهضموه منزلته، ولم يقدروه قدره، رغم أنه أفضل البشر بعد الأنبياء عليهم السلام، وأفضل الصحابة بلا خلاف.

لله در خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق رضى الله عنه من إمام عظيم متفوق لم تفلت منه مزية، ولم تغب عنه فضيلة، فالله دره من خليفة كان ولاؤه لتطبيق هدى نبيه صلى الله عليه وسلم حرفياً حتى في الظروف التي تجيش فيها العواطف، وهو أرق الناس أفئدة، ومن شاء أن يرى جلالَ الحكم، وعظمة الحاكم، فلينظر أبا بكر غداة اسْتخْلافه، إذا خرج من داره حاملاً علي كتفيه لفافة كبيرة من الثياب فقد أراد أن يمضي إلي السوق كعادته لتجارة.

وفي الطريق يلقاه الفاروق عمر، والأمين أبو عبيدة رضى الله عنهما فيسألانه: إلي أين يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيجيبهما الصديق: إلي السوق، فيقول عمر: وماذا تصنع بالسوق، وقد وُلِّيت أمْر المسلمين؟! فيقول الصديق: فمن أين أُطْعمُ عيالي يا عمر؟

لم يدخل منصب الخلافة علي النفس الكبيرة لهذا الرجل العظيم أيَ زهْو، ولم يحركَ لها رغبة، أي رغبة في تغير أسلوب الحياة.

فقال له عمر: انطلق معناً نفرض لك شيئاً من بيت مال المسلمين، وصحبهما هذا الرجل العظيم إلي المسجد حيث نودي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعرض عليهم عمر رأيه في أن يفرض للخليفة - بدل تفرغ -، وفعلاً فرضوا له كفافاً، بعض شاة كل يوم، ومائتي دينار وخمسين في العام، ثم زيدت بعد ذلك إلي شاة في اليوم وثلاثمائة دينار في العام.

وعاش الصديق بهذا الكفاف وهو وأسرته الكبيرة، حتى بعد أن فتح الله عز وجل للمسلمين أبواب الرزق والرغد، وبدأت خيرات الشام والعراق تفد إلي المدينة.

لم يكن الصديق رضى الله عنه يلتزم القناعة لمجرد الزهد، بل كانت قناعته جزءاً من فلسفته.

عبرة:

أيها الأخوة الكرام، هكذا وقف الصحابة في فهمهم الراقي لولاية الدين وأمانة الحكم أن يفرضون لإمامهم رزقاً يغتني به عن التجارة بعد إذ صار عاملاً للأمة تملك منه الوقت والجهد والفكر، ومن ثم يقررون معنى في الإسلام بديعاً يفصل الذمة المالية للأمة عن ذمة الحاكم، هذا المعني الذي لم يعرفه الغرب إلا في عهوده القريبة، إذا ظلت راية ما لقيصر لقيصر مشرعة خفاقة يقاتل الناس دونها أزماناً طويلة.

ويظهر من هذه المواقف أيضاً ورع الصديق في المال العام، فقد ترك هذا الخليفة العظيم تجارته، وتخلى عن ذرائع كسبه اشتغالاً عنها بأمور المسلمين، وقياماً بوظائف الخلافة، فيضطر إلى أخذ نفقته من بيت المال بما لا يزيد عن الحاجة إلى سد الجوع، وستر العورة، ثم هو يؤدي للمسلمين خدمة هيهات أن تؤدي حقها الخزائن، ولما أشرف على وفاته وعنده فضلة من مال المسلمين، وهي ذلك المتاع الحقير يأمر بردها إلى المسلمين ليلقي ربه آمنا مطمئنا، نزيه القلب طاهر النفس،

خفيف الحمل إلا من التقوى، فارغ اليدين إلا من الإيمان، إن في هذا لبلاغًا، وإنها لموعظة لقوم يعقلون.

وهكذا خرج أبو بكر الصديق من الدنيا بعد جهاد عظيم، في سبيل نشر دين الله في الآفاق، وستظل الحضارة الإنسانية مدينة لهذا الشيخ الجليل الذي حمل لواء دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، وحمى غرسه عليه الصلاة والسلام، وقام برعاية بذور العدل والحرية، وسقاها أزكى دماء الشهداء، فأتت من كل الثمرات عطاءً جزيلاً.

فحقق عبر التاريخ تقدما عظيماً في العلوم والثقافة والفكر، وستظل الحضارة مدينة للصديق؛ لأنه بجهاده الرائع، وبصبره العظيم حمى الله به دين الإسلام في ثباته في الردة، ونشر الله به الإسلام في الأمم والدول والشعوب بحركة الفتوحات العظيمة، التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً.

التوكل معناه اعتماد القلب علي الله عز وجل، واستناده إليه وسكونه إليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها بل يخلع السكون إليها من قلبه ويُلبسه السكون إلي مسببها سبحانه وتعالي، والله تعالي يقول بأحلى بيان: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}: الطلاق: ٣)، وضيفنا علي هذه الصفحات، ضيف كريماً يضرب لنا المثل والقدوة في حسن التوكل علي الله تعالي، والرضا به سبحانه، مع إخلاص النية، وحسن القصد، وقصته عظة وعبرة لمن أساءوا الظن بربهم، فقلَ توكلهُم، وضعف تعلقهم بمسبب الأسباب سبحانه وتعالي،
إن قصته لتنادي عليهم، إن الله لا ينْسى من توكل عليه، وهل ينسى ربُك من ركن إليه واعتمد عليه؟! فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع لهذا الصحابي الجليل.
بعث النبي صلى الله عليه وسلم أحد السرايا، وكان في هذا الجيش رجل يقال له حُدير، وكانت تلك السنة قد أصابهم سنة من قلة الطعام، فزودهم رسول الله ونسي أن يزود حُديراً، فخرج حديراً في الجيش صابراً محتسباً، وهو في آخر الجيش، يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، نعم الزاد هو يا رب.
نزل جبريل عليه السلام إلي النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: إن ربَي أرسلني إليك يخبرك أنك زودت أصحابك ونسيت أن تزوّد حُديراً، وهو في آخر الرَكب يردد: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ويقول: نعم الزاد هو يا رب.
قال: فكلامه من ذلك له نورٌ يوم القيامة ما بين السماء والأرض، فابعث إليه بزاد.
فدعا النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً، فدفع إليه زاد حُدير، وأمره إذا انتهى إليه، ودفع إليه الزاد وحفظ عليه ما يقول، ويقول له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام ورحمة الله، ويخبرك أنه كان نسي أن يزوَدك، وإن ربي تبارك وتعالي أرسل إليّ جبريل يذكّرني بك، فذكّره جبريل وأعلمه مكانك.
فانتهى إليه وهو مازال يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، نعم الزاد هو يا رب.
ثم دنا منه وقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام، وقد أرسلني إليك بزاد معي، ويقول: إني إنما نسيتك، فأرسل الله إليَ جبريل من السماء يذكرني بك.
قال حدير: فحمد لله وأثني عليه، وصلي علي النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: الحمد لله رب العالمين، ذكرني ربي من فوق سبع سموات، ومن فوق عرشه، ورحم جوعي وضعفي، يا رب كما لم تنس حُديراً، فاجعل حُديراً لا ينساك.
فحفظ الرجل ما قاله حُدير، ورجع إلي النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بما سمع منه حين أتاه وبما قال حين أخبره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إنك لو رفعت رأسك إلي السماء لرأيت لكلامه ذلك نوراً ساطعاً ما بين السماء والأرض.
عبرة:
يا شباب، هناك لُطف خفيَ يكتنُف المؤمنين من أمامه، ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحت قدمه، صاحب اللُطف الخفيَ هو الله ربُ العالمين، فلقد سلَم محمداً صلى الله عليه وسلم في الغار، ورحم أهل الكف في الغار، وفرّج عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في

الغار، وأنْجى إبراهيم من النار، وأنْجى موسي من الغرق، ونُوحاً من الطُوفان، ويوسف من الجُبّ، وأيوب من المرض.

وحين يتأمل المؤمن اتصاف الله تعالى باللطف فإنه يوقن بدقة علمه سبحانه، وإحاطته بكل شيء صغيراً كان أم كبيراً، فيدعوه ذلك لمراقبته عز وجل، ومحاسبة نفسه على كل قول وفعل، ولطف الله تعالى بالعبد يحيط به في كل شؤونه وأحيانه، ويسعفه في كل مخاطرة، ويؤمنه من كل مخاوفه، ولولا لطف اللطيف الخبير لامتلأت القلوب وحشة وخوفاً ورعباً، ولما طابت بالحياة عيشاً.

الإيمان يورث القلب المراقبة لله والتقوى منه سبحانه وتعالي، والمراقبة حين تستقر في القلب ترتفع بالإنسان إلي آفاق عالية من النور والشفافية، فعلى المسلم أن يراقب الله في سره وعلانيته وعلي كل حال من الأحوال، فمن كان الله مراقبه فيحذر أن يراه الله تعالي علي حال من تقصير أو تفريط، وفي المراقبة سعادة الفرد في الدنيا والآخرة، وهكذا كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان الفاروق عمر رضى الله عنه.

لقد أهدى رجل من عمال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه نمرقتين لامرأته - نمرقة هي الوسادة الصغيرة -

فدخل عمر رضى الله عنه الدار فرآهما، فقال: من أين لك هاتين؟!

فقالت: اشتريتهما.

قال: أخبريني ولا تكذبيني.

قالت: بعث بهما إلي فلان.

فقال: قاتل الله فلانا إذا أراد حاجة فلم يستطعها من قبلي أتاني من قبل أهلي، فاجتذبهما اجتباذا شديدًا من تحت من كان عليهما جالسًا.

ثم خرج يحملهما فتبعته جاريتها.

فقالت: إن صوفهما لنا يا أمير المؤمنين،

ففتقهما وطرح إليها الصوف وخرج بهما، فأعطى إحداهما امرأة من المهاجرات، وأعطى الأخرى امرأة من الأنصار، وعزل ذلك العامل.

عبرة:

يا سادة، لم تقف مسئولية عمر عن ولاته عند حسن اختيارهم، وحسن توجيههم، بل تنهض إلي إقامة كل الضمانات التي تجعل ولايتهم علي الناس رحمة، ورخاء، وأمناً، وسبيله لهذا، أن يجعل الحاكم تحت رقابة المحكوم، وأن يحقق بنفسه، وعلي الفور كل شكوى يشكوها مواطن من حاكم، وأن يتتبع في يقظة عارمة سلوك ولاته في كل الأمصار.

ما أروع الفاروق عمر رضى الله عنه ورعاً عن مال الله، وما أعظمها من حجة علي كل حاكم وأمير، فالواجب علي كل من تولى أمانة المسلمين أن يكف يده عن الظالم، والخيانة، وأن يراقب الله في السر والعلانية في نفقاته، فهذا الورع من الفاروق كان يدعوه إلي الشفقة، والرحمة بالرعية.

وصبرُ الجيل الرباني

تحتسب أولادها الأربعة

من أراد أن يعرف كيف يقلب الله القلوب من حال إلي حال، وكيف يصنع في النفوس الأبية صنعاً يثير الإعجاب، وكيف ينزع منها العبث والهزل والقنوط، ويبعث فيها الرجاء والأمل، والرضا بالقضاء والقدر، فلينظر إلي تماضر بنت عمرو رضى الله عنها - الخنساء - كيف كانت في الجاهلية، ثم كيف صاغها الإسلام صياغة جديدة، تحولت معها إلي امرأة مجاهدة صبور، تحرض أولادها علي الجهاد في سبيل الله، وتدفعهم إلي ميادين القتال، لكي يسطروا في البطولة والتضحية أنصع الصفحات، ولكي تنال باستشهادهم عز الدارين.
لقد كانت شهرة الخنساء رضى الله عنها في الجاهلية قد ذاعت وطار صيتها، بعد مراثيها التي سارت بها الركبان، فلقد تركت بعد موت أخيها صخر ديواناً كان الأول من نوعه في شعر المراثي والدموع، وعندما جاءت الخنساء مع قومها بني سليمان، وأسلمت لله تعالي، حزنت علي الخير الذي فاتها، وعلي العمر الذي مضى بعيداً عن هذا النور، ولكنها عزمت علي أن تستدرك كل ما فاتها، وأن تضحي بكل ما تملك من أجل نصرة هذا الدين العظيم.
وفي يوم القادسية تقدم الخنساء أولادها الأربعة لينالوا شرف الشهادة في سبيل الله، نعم هذه هي الخنساء التي ملأت الدنيا بكاءً وعويلاً في الجاهلية علي موت أخيها صخر، نعم ألم أقل لكم أن الإيمان قد صاغها صياغة باهرة يعجز البيان عن وصفها، لقد كانت الخنساء رضى الله عنها معجزة من معجزات الإيمان، لقد علمنا كيف كان حزنها علي أخيها، وجزعها لموته، وتصدع قلبها، واضطرام حشاها، لقد استحال كل ذلك إلي صبر أصاغه الإيمان، فلم تأس علي فائت من متاع الحياة الدنيا.
أولئك أبناؤها، وهم أشطار كبدها، ونياط قلبها، خرجوا إلي القادسية الطاحنة، فقالت لهم حين نادي قائد الجيش الإسلامي سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه: يا عباد الله، حي علي الجهاد: يا بني، لقد أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو إنكم بنو رجل واحد، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله تعالي:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}(آل عمران: ٢٠٠).
يا بني: إذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجللت ناراً علي أرواقها، فيمموا وطيسها، وجالدوا عدوكم، تظفروا بجنات الخلد والمقامة، لقد قدمتهم جميعاً إلي المعركة، ولم تدخر منهم أحداً يعولها، ويقوم بشأنها، لأنها تحسن التوكل علي الله، وتثق في فضله العظيم، وترجو من أعماق قلبها أن ينتصر المسلمون نصراً عزيزاً علي تلك القوة الغاشمة التي جاءت من كل صوب وحدب بأعداد غفيرة لا أول لها ولا آخر، ومعهم من العتاد والعدد ما لا يكاد يحصى ولا يعد، لوقف زحف هذا النور.
فلما باشروا القتال بقلوب فتية، وأنوف حمية، فإذا فتر أحدهم ذكره إخوته وصية الأم العجوز، فزأر كالليث، وانطلق كالسهم، وانقض كالصاعقة، ونزل كقضاء الله علي أعداء الله، وظلوا كذلك حتى استشهدوا جميعاً في ليلة الهرير الحاسمة، وكل منهم أنشد قبل أن يستشهد رجزاً:
فأنشد الأول:
يا إخواتي إن العجوز الناصحة

قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
بمقالة ذات بيان واضحة
وإنما تلقون عند الصائحة
من آل ساسان كلأبا نابحة
وأنشد الثاني:
إن العجوز ذات حزم وجلد
قد أمرتنا بالسداد والرشد
نصيحة منها وبراً بالولد
فباكروا الحرب حُماة في العدد
وأنشد الثالث:
والله ما نعصى العجوز حرفاً
نُصحاً وبراً صادقاً ولطفاً
فبادروا الحرب الضروس زحفاً
حتى تلُفُوا آل كسرى لفاً
وأنشد الرابع:
لستُ لخنساء ولا للأخرم
ولا لعَمري ذي السناء الأقدم
إن لم أُرد في الجيش الأعجم
ماض علي الهول خضم حضرمي
وهكذا سقط الأبطال الأربعة في ساعة واحدة في ليلة الهرير، وبلغ الأم نعي الأسود الأربعة، فلم تلطم خذاً، ولم تشق جيباً، ولكنها استقبلت النبأ بإيمان الصابرين، وصبر المؤمنين، وقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.
هكذا استقبلت الخنساء رضى الله عنها نبأ استشهاد أُبنائها الأربعة، فما وهنت وما ضعفت، وما استكانت، وما تفوهت بما تتفوه به الثكلة عادة، لعلمها أنها ستحلق بهم، وتحشر معهم إن شاء الله، وتلقى جزاءً الصابرين في جنات النعيم.
عبرة:
يا أيتها الأخوات المؤمنات، لنا هنا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال، ما الذي حولها، وغيرها من حال إلي حال؟! إنه إكسير الإيمان الذي وضعه النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب المؤمنين، فنقلهم من دنيا الجهالة إلي عالم المثل العليا، والقيم الرفيعة، والأخلاق العالية، والشوق إلي رضوان الله.
هذه المرأة العظيمة التي بكت أخاها صخراً ورثته بالأشعار المبكية دهراً طويلاً في الجاهلية، نجدها في الإسلام تدفع بنيها جميعاً إلي حمام الموت، ثم تقول هذا الكلام الإيماني الرفيع بعد استشهادهم، وهذا شاهد من الشواهد الكثيرة التي تدلنا علي التحول الكبير الذي طرأ علي حياة العربية بعدما دخلوا في الإسلام.
للأسف إن بعض المسلمين يتهم النساء بأنهن لا يفقهن شيئًا؛ وليس لهم نظرة ولا رأي، وليس من حقهن التدخل في شؤن الجهاد وغيره، وكم من نساء الأمة الإسلامية من عظيمات خلدوا مجداً مسطراً عبر التاريخ، وفي كتب السير والتراجم الكثير، بحكمتهن وشجاعتهن وإدراكهن ووعيهن

وثقافتهن وفكرهن الراقي كانوا للإسلام حصن منيع، وكما أصابت المحنة الرجال، كذلك أصابت النساء، وقد شاركت النساء بنصيب وافر في الدعوة إلى الاسلام، والجهاد والتضحية في سبيله، ولو نظرنا فقط في تاريخ الجيل الرباني لوجدنا لأمهاتنا، ونساء المؤمنين، مواقفاً أثبتن فيها انهن كالجبال في صمودهن وبفعلهن نصرن الاسلام، ولقد رأينا في هذا الموقف الجليل كيف كانت نساء تضحي بكل شيء من أجل الإسلام، فهذه الخنساء قدمت جميع أولادها من أجل نصرة الإسلام.

حين يكون القلب معموراً بالإيمان بالله تعالي، واليوم الآخر، وممتلئاً يقينا بالحقائق الكبرى المنبثقة عن ذلك، فإن هذا الإيمان لا يبقى حبيساً في نفس صاحبه، بل لابد أن يظهر أمام الناس، وإن قاموا بمجابهته وإنكاره، لأن الإيمان القوى يولد الشجاعةَ العاليةَ في قول الحق والدفاع عنه، وكلما كان الإيمان أقوى كانت الشجاعة أبلغ، وأوسع مجالاً، وإن أصدق مثال علي ذلك، صمود الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص أمام طوفان الوثنية، وثباته علي الحق رغم المحن والابتلاء التي تعرض لها.

لقد شن كفار قريش حرباً نفسية رهيبة على المسلمين قبل الهجرة إلى المدينة المنورة حتى لا يشعروهم براحة، وقد تمثلت هذه الحرب في شكل ضغوط نفسية من قبل الأهل والأقارب على أبنائهم حتى يتركوا الإسلام، فاجتمع أهل الكفر وأعلنوا في مكة أنه على كل أب وعلى كل أم، وعلى كل شيخ قبيلة، أن يتصدى لأبنائه وذويه ممن دخلوا الإسلام وآمنوا به.

وكان ممن حورب بذلك السلاح النفسي الرهيب الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه، فقد حاولت أُمه أن تصرفه وترده عن الإيمان والإسلام بشتى الطرق، ولكن محاولاتها باءت بالفشل.

ولكنها لم تيأس فلجأت إلى وسيلة جديدة معتقدة أنه لن يجدي مع ذاك الابن الذي فارق دين الآباء غيرها، فأعلنت الإضراب عن الطعام والشراب حتى يرجع سعد رضى الله عنه عن دينه!

لقد مارست حرباً وضغطاً نفسياً كبيراً على ذلك الشاب الذي لم يتعد العشرين من عمره، وعلى الرغم من ذلك، فقد ثبت سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه، ورفض أن يترك الإسلام.

ومع أن الله عز وجل أمر سعداً - ومَن كان في موقفه - بعدم الطاعة للوالدين إذا أمرا بالشرك، فإنه سبحانه أراد من المسلمين أن يضربوا مثالاً أخلاقياً فريداً في معاملة الآباء والأمهات، فأمرهم بحسن الصحبة، وقول المعروف للوالدين، حتى في مثل هذه الظروف.

وأنزل الله عز وجل لذلك فِي القرآن هذه الآية: {وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (١٥: لقمان).

وأمام هذا الإصرار النابع من إرادة داخلية جادة لدى سعد بن أبي وقاص، وليس فقط مجرد إعلان التحدي مع أمه، لم تجد أمه أمامها إلا التراجع والاستسلام أمام صمود ابنها فأكلت الأم وشربت، وبقي سعدٌ مسلماً وفي نفس الوقت لم يقع في جريمة العقوق بأمه.

عبرة:

يا شباب، في هذا الخبر دلالة علي قوة إيمان الصحابة، ووضوح عقيدة التوحيد عندهم، فهذا سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قد أظهر إيمانه القوي حيث ثبت علي دينه، ولم يخضع لهذا الابتلاء الذي جعله في خيار بين طاعة الله عز وجل، أو طاعة أمه، فاختار سعد طاعة الله عز وجل علي الكفر.

إن أفراد هذا الجيل الرباني الفريد صدقوا مع ربهم فوفوا له بعهودهم وبذلوا أرواحهم ومهجهم ودماءهم وأموالهم في سبيل الله عز وجل، فهذه صفحة نابضة بالحياة، شاهدة بالعظمة؛ ناطقة بجلال وصدق الإيمان والتضحية عند هذا الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه.

يا أيها القارئ الكريم، وطن نفسك أنك إذا اتبعت منهج الله فسيكون لك خصومٌ وأعداء، ومنتقدون ومجرحون، ولك من يعيب عليك، ويبحث عن أخطائك الطّفيفة ويكبرها، ليثبِت لنفسه وللناس أن الدين لا يصلح لهذا الزمان.

قمة التضحية والبذل

ما دخل الإيمان قلب مؤمن إلا حمله أول ما يحمله علي البذل والتضحية والفداء، فكيف إذا كان إيماناً كإيمان أبي بكر الصديق رضى الله عنه، فقد ضحى بنفسه دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دفع كفار قريش عنه في فناء الكعبة وهي تريد أن تخنقه، فما كان من قريش إلا أن مالت علي الصديق تصفعه وتضربه حتى حمل مغشياً عليه إلي بيته، فلما أفاق ما سأل عن شيء إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وماذا فعل!!

ومشهد آخر من مشاهد هذا الإيمان الفريد يتجلى خلاله تهلل هذا الإيمان للتضحية والبذل، فقد ضحى أبو بكر رضى الله عنه بنفسه حين هاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم، وقريش تجد في طلبه تريد الفتك به، وانظر ما أروع هذا الموقف حين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لينطلق إلي الغار، ومعه الصديق، فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا أبا بكر ما لك تمشي ساعة بين يدي، وساعة خلفي؟!

فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أُذكر الطلب فأمشي خلفك ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك، فقال: يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني؟، قال: نعم، والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون من ملمة إلا أحببت أن تكون بي دونك.

ولما انتهيا إلي الغار قال الصديق: والله لا تدخله يا رسول الله حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخل فكسحه ووجد في جانبه ثقباً فشق إزاره وسدها به، وبقى منها اثنان فألقمهما رجليه، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادخل، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووضع رأسه في حجره ونام، فلُدغ أبو بكر في رجله من الجحر، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسقطت دموعه علي وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما لك يا أبو بكر؟ قال: لدغت فداك أبي وأمي، فتفل رسول الله فذهب ما يجده.

عبرة:

يا شباب، في هذا الموقف مثال عال من التضحية والفداء، فقد جعل أبو بكر من نفسه درعاً لوقاية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصار يمشي أحياناً أمامه ليتلقى هجوم الأعداء المترصدين له، وأحياناً خلفه ليتلقى هجوم الأعداء الذين يطلبونه، وقد ذكر وهو الصادق الصديق بأنه يفدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه في أي مُلمة.

وفي هذا الموقف مثال آخر وهو عند دخوله الغار قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم واستبرائه الجحور للتأكد من سلامتها من الهوام، ولم يترك في الغار حجراً إلا أدخل فيه إصبعه مخافة أن يكون فيه هامة، وهذا مثال واضح لتضحية بنفسه في سبيل الله، وذلك لاحتمال أن يكون بعض تلك الجحور حية أو عقرب فتلسعه وقد كان.

حينما يكون الإيمان بالله تعالي قوياً يقدم صاحبه علي تجشم الصعاب؛ واقتحام المخاطر من أجل نصرة هذا الدين الذي آمن به، وخالطت محبته شغاف قلبه، فتبرز قوة الإيمان، وتتفوق رغم قلة العدد، وضعف الإمكانات المادية، علي كثرة العدد، ووفرة القوة المادية، لأن عندما يكمل إيمان المرء بربه، ويخلص له دينه، يجد نفسه عبداً ربانياً مدفوعاً بكل قواه لنصرة دينه بكل ما ملكت يداه، ولا يبالي علي أي جنب يقتل إذا كان في الله مصرعه وإليه مرجعه، والجنة مستقرة ومنزله.

ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يبيعون أنفسهم لله، ابتغاء مرضاته وتثبيتاً من أنفسهم، فهم نجوم الهدى وقدوة الأمة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، والصدع بكلمة الحق كما نعلم فريضة محكمة، أداها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في ظروف قاسية مع قلة العتاد والعدد، ومن هؤلاء الأخيار الصحابي الجليل ثمامة بن أثال رضى الله عنه.

فقد مضى ثمامة بن أثُال بعد أن إسلام إلي غايته حتى إذا بلغ بطن مكة، وقف يجلجل بصوته الْعالي قائلاً: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، فكان رضى الله عنه أول مسلم علي ظهر الأرض دخل مكة مُلبياً.

سمعت قريشٌ صوت التلبية، فهبت غاضبة مذعورة، واستلت سيوفها مِن أغمادها، واتجهت نحو الصوت لتبطش بهذا الذي اقتحم عليها عرينها، ولما أقبل القوم على ثمامة، رفع صوته بالتلبية، وهو ينظر إليهم بكبرياء، فهم فتىً من فتيان قريش أن يرديه بسهمٍ، فأخذوا على يديه، وقالوا: ويحك أتعلم من هذا؟، إنه ثمامة بن أثال، ملك اليمامة، فقتله يشعل علينا نار حربٍ كبيرةٍ، أخذوا على يديه، ومنعوه أن يناله بسهم، وقال الناصح: والله إن أصبتموه بسوءٍ لقطع قومه عنا الميرة، وأماتونا جوعاً.

ثم أقبل القوم على ثمامة، بعد أن أعادوا السيوف إلى أغمادها، وقالوا: ما بك يا ثمامة، أصبوت؟، وتركت دينك ودين آبائك، قال: ما صبوت، ولكني اتبعت خير دينٍ، اتبعت دين محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أردف يقول: أُقسم بربِّ هذا البيت إنه لا يصل إليكم بعد عودتي إلى اليمامة حبة من قمحها، أو شيءٌ من خيراتها، حتى تتبعوا محمداً عن آخركم.

ولما عاد ثمامة رضى الله عنه إلي اليمامة التي كانت بمثابة الريف لأهل مكة، أمر قومه أن يحبسوا الميرة – أي الطعام – عن قريش فاستجابوا لأمره، وحبسوا الطعام عن أهل مكة، حتى جهدت قريش، وكتبوا إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلي ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام ففعل النبي صلى الله عليه وسلم.

عبرة:

يا أخوة هكذا استطاع ثمامة رضى الله عنه أن يقف هذا الموقف الإيجابي للذود عن حياض الإسلام فيمنع الخير عن أعداء الله رغبة في إسلامهم ليحقق بذلك تلك الخيرية التي امتن الله بها علي تلك الأمة {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}(آل عمران: ١١٠).

يا له من درس عظيم يا أخوة، فلو أن الأمة منعت خيرها عن اليهود، وسائر أعداء هذا الدين لجاءوا جميعاً ووضعوا رؤوسهم علي عتبة الإسلام بدلاً من الذل الذي تعيشه الأمة المسلمة في ظل هذا التخاذل الجماعي من أبنائها إلا من رحم ربي، عن نصرة دين الله وعن العمل لهذا الدين.

لقد كانت كل صحابية بمثابة زهرة نبتت في حقل الإسلام؛ فلما جاءت سحابة الإيمان وسكبت ماءها في هذا الحقل؛ إذا بتلك الزهرة النقية التقية تتغذى من خلال النبعين الصافيين كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا بها تنشر عطرها وعبيرها ليملأ الكون كله بعطر الإيمان والتوحيد، فأولئك هن الأمهات اللواتي ابتهج بزغ فجر الإسلام، وسمت بهن عظمته، وصرعت بقوتهن قوته، وعنهن ذاعت مكارمه، ورسخت قوائمه، وهكذا كانت الأم في عصور الإسلام الزاهية، ونحن في هذه السطور نعيش سوياً في رحاب موقف لأمراة من أعظم النساء، إنها عمة النبي صلى الله عليه وسلم صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها.

لما أشرق نور الإسلام في سماء مكة المكرمة، انضمت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها إلي موكب النور هي وفتاها الزبير بن العوام رضى الله عنهما، وعانت ما عاناه المسلمون السابقون من بأس قريش، وعنتها وطغيانها، فلما أذن الله لنبيه والمؤمنين معه بالهجرة إلي المدينة خلفت صفية رضى الله عنها وراءها مكة بكل ما لها فيها ذكريات، ويممت وجهها شطر المدينة، مهاجرة بدينها إلي الله ورسوله، وعلي الرغم من أن هذه السيدة العظيمة كانت يومئذ تخطو نحو الستين من عمرها المديد الحافل، فقد كان لها في ميادين الجهاد مواقف ما يزال يذكرها التاريخ بلسان ندى ومنها يوم أُحُد، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع.

في معركة أُحُد خرجت مع جند المسلمين، في ثلةٍ من النساء جهادًا في سبيل الله، فجعلت تنقل الماء، وتروي العطاش، وتبري السهام، وتصلح القسي، وكان لها مع ذلك غرض آخر هو أن ترقب المعركة بمشاعرها كلها، ولا غرو في ذلك فقد كان في ساحتها ابن أخيه نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، وأخوها حمزة بن عبد المطلب أسد الله ورسوله، وابنها الزبير بن العوام حواري رسول الله والفتي الباسل، وفي المعركة قبل كل ذلك مصير الإسلام الذي اعتنقته راغبة، وهاجرت في سبيله راضية محتسبة، وتركت من أجله كل شيء في صحراء مكة المكرمة.

وعندما أصبحت الريح للمشركين، وحاول المشركين قتل النبي صلى الله عليه وسلم، ورأت المسلمين ينكشفون عن رسول الله إلا قليلاً منهم، ووجدت المشركين يوشكون أن يصِلوا إلى النبي ويقضوا عليه، طرحت سقاءها أرضاً.

طبعاً هذا موقف شخصي، المرأة ليست مكلفة بالجهاد، لكن هذا موقف شخصي، للمرأة عمرها ستون عاماً، وعملها في المعركة عمل إنساني.

لكن لما رأت النبي صلى الله عليه وسلم، ابن أخيها قد انكشف، واضطرب المسلمون، ألقت السقاء، وهبت كاللبؤة التي هوجم أشبالها، وانتزعت من يد أحد المنهزمين رمحه، ومضت تشق به الصفوف، وتضرب بسنانه الوجوه، وتزأر في المسلمين قائلة: ويحكم انهزمتم عن رسول الله، فلما رآها النبي صلى الله عليه وسلم، مقبلة خشي عليها أن ترى أخاها حمزة، وهو صريع، خاف على مشاعرها، فهو يعرف مدى حبها لحمزة.

فأشار النبي الكريم صلى الله عليه وسلم إلى ابنها الزبير قائلاً: المـرأة يا زبيـر، المرأة يا زبير، أمّك يا زبير، أبعِدها عن ساحة المعركة، فأقبل عليها الزبير، وقال: يا أمـي إليك، يا أمي إليك، قال: ضربتني في صدري، فقالت له: تنح عني لا أم لك، قال: إن رسول الله يأمرك أن ترجعي،

قالت: ولم؟ إنه قد بلغني أنه مُثِّل بأخي، وذلك في الله، فقال له النبي الكريم: خلِّ سبيلها يا زبير، فخلى سبيلها.
فلما وضعت المعركة أوزارها، وقفت صفية وهي في الستين من عمرها على أخيها حمزة، فوجدته قد بقِر بطنه، وأُخرِجت كبده، وجدِع أنفه، وثلمت أذناه، وشوه وجهه، فاستغفرت له وجعلت تقول: إن ذلك في الله، ولقد رضيتُ بقضاء الله، واللهِ لأصبرن، ولأحتسبن إن شاء الله.
هنا عظمة المؤمن، فهو كالجبل الرواسي، ليس أقل مصاب يقلبه ويهز أعماقه، وأخذت تردد، قول تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} (آل عمران: ١٦٩).
ما رأوها رضى الله عنها إلا راضية النفس، مطمئنة القلب بذكر الله تبارك وتعالي، ولا تقول إلا ما يرضي ربها عز وجل في كل ما يصيبها من ألم وشدة.
هكذا كان ثباتها وجلدها في مواجهة هذا الخطب العظيم، وهكذا واجهت مصيبة كهذه بقوة المرأة المؤمنة، التي ضربت للأجيال المتتابعة مثلاً رائعاً عالياً في الصبر والتجلد عند المصائب والشدائد.
عبرة:
يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد كان إيمانها الصادق الراسخ في أعماق قلبها خير معين لها علي مواجهة الصعاب التي مرت بها، والملمات التي أصابتها في نفسها وفي خير من تحبه وتجله وترعاه، فما وهن عزمها، ولا ضعفت إرادتها، ولا لانت لها يوماً قناة في سبيل الله، ولا وقفت موقفاً رأى فيه ضعف المرأة وانكسارها في مثله، ولا رأوا منها إلا شهامة الأحرار، وشجاعة الأبطال، وإقدام الرجال الأشداء في ميادين القتال.
هنا يا أيها القارئ الكريم، يظهر عظمة المؤمن، فهو كالجبل رسوخاً، وليس أقل مصاب يقلبه ويهز أعماقه، فمِن الناس اليوم من يشك في القضاء والقدر، ولأَقلِ مصاب يقول لك: واللهِ أنا محتار، إيماني تزلزل، ما هذا الإيمان الذي عندك؟ هذا ليس إيماناً، هذا مِن ضعف الإيمان، لقد رضيت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها، وسلمت لأمر النبي صلى الله عليه وسلم لها بالرجوع، بينما كانت قبل ذلك تخاطب ولدها الزبير رضى الله عنه بعنف وتضرب صدره ظنا منها أنه هو الذي يمنعها من رؤية أخيها حمزة رضى الله عنه، والوقف عند أوامر النبي صلى الله عليه وسلم دليل علي قوة الإيمان.

تمضي الأيام والأعوام والمحن متتالية علي الصحابة رضوان الله عليهم، فيأذن رب العزة للنبي صلى الله عليه وسلم وصحبته بالهجرة، فيهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وتتلمظ قريش بأحقادها، وتعِد عدة باطلها، لتواصل مطاردتها الظالمة لعباد الله الصالحين، وتقوم غزوة بدر، فيتلقون فيها درساً يفقدهم بقية صوابهم، ويسعون إلى الثأر، وتجيء غزوة أُحُد، ويعبئ المسلمون أنفسهم، ويقف النبي صلى الله عليه وسلم، وسط صفوفهم يتفرس الوجوه المؤمنة ليختار من بينها من يحمل الراية، ويدعو مصعب الخير، فيتقدم ويحمل اللواء.
وتنشب المعركة الرهيبة، ويحتدم القتال، ويخالف الرماة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويغادرون موقعهم في أعلى الجبل، بعد أن رأوا المشركين يَنسحِبون منهزمين، لكن عملهم هذا، سرعان ما يحوِل نصر المسلمين إلى هزيمة كاملة، ويفاجأُ المسلمون بفرسان قريش تغشاهم من أعلى الجبل، وتعمل فيهم على حين غِرة السيوف الظامئة المجنونة.
حين رأوا الفوضى، والذعر في صفوف المسلمين، ركزوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لينالوه، وأدرك مصعب بن عمير رضى الله عنه الخطر الغادر، فرفع اللواء عالياً، وأطلق تكبيرة كالزئير، ومضى يجول ويتواثب، وكل همه أن يلفت نظر الأعداء إليه، ويشغلهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه، وجرد من ذاته جيشاً بأسره، أجل ذهب مصعب يقاتل وحده كأنه جيش لَجِبٌ غزير فقد سقط كل الأبطال حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت يد تحمل الراية في تقديس، ويد تضرب بالسيف في عنفوان، ولكن الأعداء يتكاثرون عليه، يريدون أن يعبروا فوق جثته إلى حيث يلقون رسول الله صلى الله عليه وسلم.
يقول ابن سعد: حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أُحُد، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب، فأقبل ابن قميئة وهو من صناديد قريش، فضربه على يده اليمنى فقطعها، ومصعب يقول: {وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}. وأخذ اللواء بيده اليسرى، وحنا عليه، فضرب يده اليسرى فقطعها، فحنا على اللواء، وضمه بعضديه إلى صدره، وهو يقول: {وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}. ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه واندقَّ الرمح، ووقع مصعب، وسقط اللواء.
سقط الفتي المنعم، سقط مصعبٌ صريعاً علي أرض المعركة، وسقط اللواء، وقع حلية الشهادة، وكوكب الشهداء، وقع بعد أن خاض في استبسال عظيم معركة الفداء والإيمان، كان يظن أنه إذا سقط، فسيصبح طريق القتلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خالياً من المدافعين والحماة، ولكنه كان يعزي نفسه في رسول الله صلى الله عليه وسلم، من فرط حبه له، وخوفه عليه، حين مضى يقول مع كل ضربة سيف تقتلع منه ذراعاً وهو يقول: {وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} (هذه الآية التي سينزل الوحي فيما بعد يرددها، ويكملها، ويجعلها قرآنا يتلى).
وبعد انتهاء المعركة المريرة، وجد جثمان الشهيد الرشيد راقداً، وقد أخفى وجهه في تراب الأرض المضمخ بدمائه الزكية، لكأنما خاف أن يبصر وهو صريعاً رسول الله صلى الله عليه وسلم، يصيبه السوء، فأخفى وجهه حتى لا يرى هذا الذي يحاذره، ويخشاه، أو لكأنه خجلان إذا سقط شهيداً قبل أن يطمئن على نجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبل أن يؤديَ إلى النهاية واجب حمايته والدفاع عنه.

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه يتفقدون أرض المعركة، ويودعون شهداءها، وعند جثمان مصعب، سالت دموع وفية غزيرة.
يقول خباب بن الأرت رضى الله عنه هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله، نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله فمنا من مضى، ولم يأكل من أجره في دنياه شيئًا، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أُحُد، فلم يوجد له شيء يكفن فيه إلا نمرة، فكنا إذا وضعناها على رأسه تعرت رِجلاه، وإذا وضعناها على رِجليه برزت رأسه، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوا على رجليه من نبات الإذخر.
وعلى الرغم من الألم الحزين العميق الذي سببه رُزْءُ الرسول صلى الله عليه وسلم، في عمه حمزة، وتمثيل المشركين بجثمانه تمثيلاً أفاض دموع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوجع فؤاده.
وعلى الرغم من امتلاء أرض المعركة بجثث أصحابه، على الرغم من كل هذا، فقد وقف على جثمان أول سفرائه، يودعه وينعاه.
أجل وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مصعب بن عمير، وقال وعيناه تلفانه بضيائهما، وحنانهما، ووفائهما: {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}(الأحزاب: ٢٣).
ثم ألقى في أسى نظرة على بردته التي دفن بها، وقال: لقد رأيتك بمكة، وما بها أرق حلة، ولا أحسن لمة منك، ثم ها أنت ذا شعث الرأس في بردة؟!
عبرة:
يا شباب، هذا مصعب بن عمير رضى الله عنه الذي كان من أرفه، ومن أنعم، ومن أكثر فتيان قريش أناقةً، ونعومة، ورخاء، وغنى، باع دنياه في سبيل الله عز وجل، وإذا اختار الإنسان عملاً نظيفاً، عملاً شريفاً، وعاش حياة مع الله وادعة مطمئنة، فهذا وسام شرف له، فالإنسان يا أخوة، عندما يخلص لله عز وجل، ويتوكل على الله عز وجل فقد ربح ورب الكعبة، فهذا الصحابي الجليل حياته كلها دعوة إلى الله، حياته كلها جهاد، ثم مات شهيداً، فقد فاز ورب البيت.
إن من حقائق الإيمان يا سادة، أن الموت حق، وأن الأجل محدود، وأن العمر واحد لا ينقص ولا يزيد، وإن الجبن لا يؤخر الوفاة، وأن الشجاعة لا تدني الموت، وأن قدر الله وراء ذلك كله ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.
وإن من حقائق الإيمان أن مات الإنسان في سبيل الله أو قتل مجاهداً فهو شهيد، حي يرزق عند الله تبارك وتعالي، وأنه لا يجد من مس الموت إلا كما يجد الإنسان الحي من قرصة نملة، وأنه لا يفتن في موته ولا في قبره، وكفى ببارقة السيوف علي رأسه فتنة، وأنه يبعث يوم القيامة بكلومه وجروحه الطاهرة الزكية، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، وأن له عند الله تبارك وتعالي من المثوبة والأجر، وأفضل مما عند الله لسائر الذين ماتوا بغير شهادة.

ذهبَ شباب مكة ليشاهدوا مصرعَ خبيب بن عدي رضى الله عنه، فقد كان خبيب بن عدي شاباً موفور الشباب، فتىً متدفقاً موفورَ الفتوة، وصلت هذه الجموع الحاشدة بأسيرها إلى المكان المعدِّ لقتله، فوقف الفتى سعيد بن عامر الجمحي رضى الله عنه بقامته الممدودة يطل على خبيب، ولم يكن مسلماً يومئذٍ، وقف يطل على خبيب، وهو يقدم إلى خشبة الصلب، وكأنه ليس من البشر، بل فوق البشر، إنساناً أُلقِي القبض عليه غدراً، وسيق ليقتَل، ويمثل به، وهو في أسعد لحظات حياته.
وسمع صوته الثابت الهادئ من خلال صياح النسوة والصبيان، وهو يقول: إن شئتم أن تتركوني أركع ركعتين قبل مصرعي فافعلوا، فالصلاة عنده أعظم شيء في حياته، أنا راضٍ بما كتبه الله لي، فنظر إليه سعيد بن عامر الجمحي رضى الله عنه وهو يصلي ركعتين، ويستقبل الكعبة ويصلي.
يا لحسنهما، ويا لتمامهما، صلاة متقنة فيها خشوع: رجل سيموت بعد قليل ويعدم، ويصلي صلاة ما أروعها من صلاة، دهش زعماء قريش من هذا الشاب القادمة علي الموت فما خاف، ولا فزع، ولم يجزع، ولم يتوسل، أين البكاء، أين الصياح بالويل؟ لقد كان الشاب كأنه قادمة إلي العرس، وليس إلي الموت؟!
كانت صلاة الفتى صلاة خفيف وقد كان حكيماً، فما أطال الركعتين، ولو أنه أطالهما لظنوا أنه خائف من الموت، ويؤخِّر وقت الإعدام، فاتجه إلى زعماء قريش، وقال: واللهِ لولا أن تظنوا أني أطلت الصلاة جزعاً من الموت لاستكثرت منها، لكن اقتصرت على ركعتين خفيفتين لئلا تظنوا أني خائف من الموت، شهد سعيدٌ قومه بعيني رأسه وهم يمثلون بخبيب، وهو حي، فيقطعون من جسده القطعة تلو القطعة.
وهم يقولون: أتحب أن يكون محمداً مكانك، وأنت ناجٍ في بيتك؟! فيقول والدماء تنزف منه: واللهِ ما أُحبّ أن أكون آمناً وادعاً في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب محمّد صلى الله عليه وسلم بشوكة.
ما هذا الإيمان، ما هذا الحب للنبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، إنسان يقطع لحمه، وتقطع أعضاؤه، ثم يسأَل: أتحب أن يكون محمدٌ مكانك؟ ماذا فعل له النبي صلى الله عليه وسلم؟ لقد هداه إلى طريق الله، ماذا أعطاه النبي حتى قِتل من أجل إيمانه برسول الله؟ لقد أعطاه الهدى والإيمان.
يا شباب، إذا جاء أحدنا شرٌّ من شريكه، يقول: لعن الله الساعةَ التي شاركته فيها، أليس كذلك؟ وإذا جاءته متاعب من شخص يلعن الساعة التي رآه فيها، لكن خبيباً سيق إلى القتل، وإلى التمثيل لأنه آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، لذلك دهش أبو سفيان رضى الله عنه - وكان وقتها مشركاً -، بل صعق، فقال: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمدًا.
لكن سعيد بن عامر رضى الله عنه نظر إلى خبيب بن عدي، وقد رفع بصره إلى السماء مِن فوق خشبة الصلب، وكان يقول: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبقِ منهم أحداً، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة، وبه ما لم يستطع على إحصائه من ضربات السيوف، وطعنات الرماح، فقد صبوا كل حقدهم وكل ضيقهم على هذا الصحابي الجليل، وقتلوه ومثلوا به، وكان مما قال قبل موته بيتين من الشعر:
ولست أبالي حين أُقتَل مسلماً على أي شق كان لله مصرعِي

وذلك في ذات الإلهِ وإن يشأ يبارك على أوصال شِلوٍ ممزعِ
عادت قريش إلى مكة، ونسيت في زحمة الأحداث الجسام خبيباً ومصرعه، لكن الفتى اليافع سعيد بن عامر الجمحي لم يغِب خبيبٌ عن خاطره لحظة، فصورة خبيب وكيف قتلوه؟ وكيف قطعوا من لحمه؟ وكيف عذبوه؟ وكيف صلى؟ وكيف دعا عليهم؟ هذه الصورة لم تغِب عن ذهنه إطلاقاً، فكان يراه في الحلم إذا نام، ويراه بخياله إذا استيقظ، ويمثل أمامه وهو يصلي ركعتين هادئتين مطمئن أمام خشبة الصلب، ويسمع رنين صوته في أذنيه، وهو يدعو على قريش، فيخشى أن تصعقه صاعقة، أو تخرّ عليه صخرة من السماء، يشعر نفسه أنه مجرم، لأنه ما نصره، ولأنه سكت.
عبرة:
يا أخوة، هذا مشهد من مشاهد الإيمان والفداء، حيث تعلو النفوس الزكية عن الاستجابة لرغبات الأجسام، فتضرب الأمثلة الحية للموازين العادلة، والمفاهيم العالية، فما في الأرض جميعاً من متاع لا يساوي شيئًا في جانب الهداية إلي الصراط المستقيم، والبقاء علي قيد الحياة مطلب رخيص إذا قورن بالثبات علي الإيمان، والاستشهاد في سبيله، وقد جاء هذا المعني في كلام خبيب رضى الله عنه، عندما جعلوا يقولون له: ارجع يا خبيب، فقال: لا أرجع أبداً، فقالوا: أمام واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنك، فقال: إن قتلي في الله لقليل.

لبلال بن رباح رضى الله عنه سيرة من أروع سير النضال، والبطولة في سبيل الله، وقصة بلال رضى الله عنه لا يمل الإنسان من ترديدها، ولا تشبع الأذان من سحر نشيدها، نعم فمن هذا الحبشي الذي كان بالأمس قبل ظهور الإسلام عبْداً، يرعى إبل سيده من أجل حفنات من التمر، وكان من المحتوم عليه لولا الإسلام أن يظل عبداً تائهاً في الزحام، حتى يطويه الموت، ويذهب به إلي أعماق النسيان، لكن بصدق إيمانه، وعظمة الدين الذي آمن به جعله من عظماء الإسلام، بل ومن أعظم عظماء التاريخ البشري.
لإن كثيرين من عظماء البشر، وذوي الجاه والنفوذ، والثروة فيهم، لم يظفروا بمعشار الخلود الذي ظفر به بلال العبد الحبشي، بل إن كثيرين من أبطال التاريخ لم ينالوا من الشهرة التاريخية بعض التي ناله بلال بن رباح رضى الله عنه، فلقد صمد لأقسى ألوان التعذيب صمود الجبال الرواسي، فلقد أعطى رضى الله عنه درساً للذين في زمانه، وفي كل زمان، درساً أن الدين والعقيدة لا يباعان بمل الأرض ذهباً، ولا بملئها عذاباً، وهذه ومضات من قصته.
لما أشرقت مكة بأنوار الدعوة المحمدية، وهتف الرسول الأعظم صلوات ربي وسلامه عليه بكلمة التوحيد، كان بلالٌ من السابقين الأولين إلي الإسلام، فقد آمن ولم يكن علي ظهر الأرض من مسلم إلا هو وبضعة نفر من السابقين الأولين، وقد لقي بلالٌ من أذى المشركين ما لم يلقه سواه، وعاني من قسوتهم، وبطشهم، وغلظت قلوبهم ما لم يعانه غيره، وصبر بلال ومن معه من المستضعفين علي الابتلاء في سبيل العقيدة كما لم يصبر أحدٌ.
وقدْ أطالت قريشٌ تعذيب هؤلاء المساكين، فقد كانوا إذا توسطت الشمس كبد السماء، والتهبت رمال مكة القاسية بالرمضاء ينزعون عنهم ثيابهم، ويلبسونهم دروع الحديد، ويصرونهم بأشعة الشمس المتقدة، ويلهبون ظهورهم بالسياط، ويأْمرونهم بأن يسبوا محمداً صلى الله عليه وسلم.
فكانوا إذا اشتد عليهم التعذيب، وعجزت طاقاتهم عن تحمله، يستجيبون لهم فيما يريدونه منهم، وقلوبهم معلقة بالله ورسوله الكريم، إلا بلالاً رضى الله عنه، فقد كانت نفسه تهون عليه في سبيل الله عز وجل، وكان الذي يتولى تعذيبه طاغية قريش أُمية بن خلف وزبانيته، فقد كانوا يأتون بحجر مستعر كالحميم ينقله من مكانه بضعة رجال، ويلقون به فوق جسد بلالُ وصدره.
وكان هذا العذاب الوحشي يتكرر كل يوم، حتى رقت لبلال من هول عذابه بعض قلوب جلاديه، فرضوا آخر الأمر أن يخلوا سبيله، علي أن يذكر آلهتهم بخيرٌ، ولو بكلمة واحدة لا غير تحفظ لهم كبرياءهم، ولا تتحدث قريش أنهم انهزموا صاغرين أمام صمود بلال، لكن هذه الكلمة الوحيدة رفض بلال أن يقولها، وهو يقول لهم: إن لساني لا يحسنها!!
فيلجون في إيذائه، ويمعنون في تعذيبه، وكان الطاغية الجبار أُمية بن خلف إذا مل من تعذيبه طوق عنقه بحبل غليظ، وأسلمه إلي السفهاء والولدان، وأمرهم أن يطوفُوا به في شعاب مكة، وأن يجروه في أباطحها، أمعن في تعذيبه، فكان رضى الله عنه يستعذب العذاب في سبيل الله ورسُوله، ويردد علي الدوام كلمته الخالدة: أحدٌ أحدٌ، أحدٌ أحدٌ، فلا يمل من ترداده.
عبرة:
يا أيها القارئ الكريم، إن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يجمع أصحابه علي مغنم عاجل أو آجل، إنه أزاح الغشاوة عن الأعين، فأبصرت الحق الذي حجبت عنه دهراً، ومسح الران عن القلوب،

فعرفت اليقين الذي فطرت عليه، وحرمتها الجاهلية منه، إنه وصل البشر بربهم فربطهم بنسبهم العريق، وسببهم الوثيق، وكانوا قبلاً حيارى محسورين، إنه وازن للناس بين الخلود والفناء، فآثروا الدار الآخرة علي الدار الزائلة، وخيرهم بين أصنام حقيرة، وإله عظيم، فازدروا الأوثان المنحوتة، وتوجهوا للذي فطر السموات والأرض.

يا شباب، لقد كان بلال بن رباح رضى الله عنه يستعذب العذاب في سبيل الله مع أن الله قد رخص للمؤمنين وقتها أن ينطقوا بكلمة الكفر طالما أن قلبهم مطمئنٌ بالإيمان لكي ينجو كل واحد منهم من بطش هؤلاء المجرمين، ولكن بلالٌ كره أن يشمت أعداء الإسلام بالإسلام وأهله وأراد أن يعرف الكون كله أن المؤمن لو اجتمعت عليه الدنيا بأسرها فلن تستطيع أن تحرك ذرة واحدة من جبال الإيمان الراسخة في قلبه، وذلك لأن الذي ثبت تلك الجبال الرواسي هو الخالق جل جلاله.

يترقب المحب الصادق بكل شوق وحماس فرصة يتمكن فيها من بذل راحته ونفسه، وما ملكت يمينه دون حبيبه، والمحبون الصادقون للنبي الحبيب الكريم صلى الله عليه وسلم من الصحابة سجلوا أروع أمثلة الفداء والتضحية دونه صلى الله عليه وسلم، والذين جاءوا من بعدهم من محبيِّه صلى الله عليه وسلم يجدون في صدورهم حسرة لا توصف لفواتهم تلك السعادة العظمى، والأمنية الغالية، وهنا نروى نموذج بطولة من معركة أُحُد هذه المعركة التي خرجت فيها مئات البطولات من الصحابة رضوان ربي عليهم، وهذه صورة رائع لأحد هذه البطولات النادرة.

بينما كان الجيش الإسلامي الصغير يسجل مرة أخرى نصراً ساحقاً علي كفار قريش، لم يكن أقل روعة من النصر يوم بدر، وقع الرماة في غلطة فظيعة قلبت الوضع العام للمعركة تماماً، وأدت إلي إلحاق خسائر فادحة بالمسلمين، وكادت تكون سبباً في مقتل الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه، وقد تركت هذه الهزيمة أسوأ أثر علي سمعتهم، والهيبة التي كانوا يتمتعون بها بعد بدرٌ.

فلقد أصدر الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه الأُوامر الشديدة إلي هؤلاء الرماة، بلزومهم موقفهم من الجبل في كل حال من النصر أو الهزيمة، لكن علي رغم هذه الأُوامر المشددة، لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين يأخذون غنائم العدو، غلبت عليهم أثارة من حب الدنيا، فقال بعضهم لبعض: الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟!

أما قائدهم الباسل عبد الله بن جبير رضى الله عنه، فقد ذكرهم بأوامر الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه، وقال: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالاً، وقالت: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، ثم غادر أربعون من الرماة مواقعهم من الجبل والتحقوا بسواد الجيش الإسلامي لجمع الغنائم، وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من أصحابه، التزموا مواقفهم مصممين علي البقاء حتى يأذن لهم رسول الله.

انتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فاستدار بسرعة خاطفة حتى وصل إلي مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه، ثم انقض علي المسلمين من خلفهم، وكانت مأساة كبرى علي المسلمين.

عبرة:

يا أيها القارئ الكريم، إن إيثار الدنيا علي الآخرة ليوقع الفشل والمعصية بين المؤمنين، وهؤلاء الصحابة الأجلاء من الرماة الذين نزلوا ليجمعوا الغنائم قد أنساهم الشيطان تعليمات القائد الواضحة بعدم النزول لهو جرس إنذار لكل من يقدم دنياه علي أخراه من أجل لعاعة من الدنيا لعل هلاكه يكون فيها، وإن ها هنا إشارة إلي أن حب الدنيا قد يتسلل إلي قلوب المؤمنين في غفلة منهم، وهذا يستدعي التفكير الدائم في النوايا وخبايا النفوس، وتذكر الآخرة ومتطلباتها حتى لا تحول الدنيا بشهواتها وأهوائها بين المؤمنين ورضوان الله عز وجل.

في الخبر أيضاً بيان ثبات أمير الرماة عبد الله بن جبير هو ومن بقي من الرماة، ولقد حاول عبد الله منع خيل المشركين من الاقتحام علي المسلمين فنشر أصحابه في طريقهم، ولكنهم كانوا أقل من

أن يقفوا في وجه أولئك الفرسان، فدخلوا معهم في معركة غير متكافئة كانت نتيجتها القضاء علي أولئك الرماة، وتطويق جيش المسلمين.
لقد ضرب ابن جبير وصحبه في ذلك مثلاً عالياً في طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والتضحية بالنفس في سبيل حماية المسلمين، لقد استعمل رضى الله عنه كل ما في جعبته من سلاح فرماهم بالنبل حتى فنيت سهامه ثم طاعنهم بالرمح حتى انكسر ثم كسر جفن سيفه مُشعراً أعداءه بأنه يقاوم هو وأصحابه حماية للمسلمين، وهذا يصور لنا قوة المقاومة التي شنها هؤلاء الأبطال.
قد يقال: ما قيمة عشرة من رماة في مقابل جيش من الفرسان؟ أفلا انحازوا إلي جيش المسلمين ليحموا أنفسهم وليكثَّروا الجيش الإسلامي؟!
فيقال: إن هؤلاء أوَلاً من قوم لا يلقون بالاً لحماية أنفسهم، بل إن أسمى أمانيهم أن يفوزوا بالشهادة في سبيل الله تعالي، وثانياً: هم ينفذون أمر النبي صلى الله عليه وسلم فهم لا يلتفتون إلي أي سلوك آخر يتعارض مع طاعة الأمر النبوي، وثالثاً: فإن وقوفهم في وجه الأعداء يؤخر هجومهم بعض الوقت، وربما تنبه لهم المسلمون فيقومون بهجوم مضاد عليهم، فوقوف هؤلاء النفر وجه الأعداء المهاجمين كان هو عين الحكمة لهذه الوجوه المذكورة وغيرها.

برزت شخصيات كثيرة من الرعيل الأول، وتألقت في سماء العظائم تطاول عنان السحاب، ولمعت في سجل الخالدين، وبقيت في ذاكرة المحبين تشع بما قدمته للدعوة من جلائل الأعمال ولطائف الأقوال، وفضائل الخصال، ومن الرجال البارزين، والأذكياء النهابين الذين تداركتهم العناية الإلهية، ولاحظتهم عيون السعادة الأبدية، وجعلتهم خدماً لأفضل البرية، وصار لهم العز الممدود، والخير المعقود، إنه الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه مثل من الأمثلة الصادقة في الإيمان، والإخلاص، والتفاني في سبيل المبدأ، اجتمع له من الخصال الكريمة ما لم يكد يجتمع لسواه، إنه رجل كان يرعى الغنم، فجاء الإسلام فصنع منه قمة تضئ في سماء الكون، بل كان معجزة من معجزات الإسلام، ومثل صادق من معجزات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، يوم أن استطاع بإذن الله أن يصنع من كل صحابي قرآنا يمشي بين الناس يراه الناس فيرون الإسلام من خلاله.

ولعل مواقفه الذي لا ينسي في فجر الدعوة المحمدية يوم أن صدع بالقرآن بين صناديد قريش، فكان أول من جهر بالقرآن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان لذلك أول من يصدع بالحق غير الأنبياء، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الجليل.

في بيت من بيوت مكة، اجتمع رهط من الصحابة رضوان ربي عليهم بعيداً عن أعين قريش وسفهائها، يتحدثون في شئون الدعوة المحمدية، وما تلاقيه من أذى قريش وصدودها، قال صحابي من المجتمعين: والله يا أخوة ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، وإني لأرجو أن يقع في قلوبهم شيء منه لو سمعوه، فمن رجل يجهر لهم به؟

فما كاد يتم كلامه حتى اندفع الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول: أنا أجهر به، كان ابن مسعود رضى الله عنه صغير الجسم، ولم يكن له عضد من عشيرة تحميه من أذى قريش، فقيل له: يا ابن أم عبد، إنا نخشاهم عليك، وإنما نريد رجلاً له عشيرة تمنعه إن أراده سفهاؤهم بسوء.

فقال ابن مسعود رضى الله عنه، وقد زاده هذا الكلام إصرار علي طلبه: لا عليكم يا إخوة، دعوني، فإن الله سيمنعني.

مضى ابن مسعود رضى الله عنه من غده إلي مجلس قريش بجانب الكعبة، فقام إلي جانب البيت، وارتفع صوته بخشوع يجهر بالقرآن بصوت ندى جميل في عقر دار الكفر ومقر سطوتهم، بسم الله الرحمن الرحيم: {الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣(}(الرحمن: ١ إلي ٣).

ومضى في تلاوتها، وسفهاء قريش من حوله يتهامسون، وقد أذهلتهم المفاجأة، وأطارت أحلامهم، فتواثبوا نحو ابن مسعود يتصايحون: ويحك يا ابن أم عبد، ما جرأك علي أن تغشي مجلسنا بهذا الذي جاء به محمد، واللات والعزى لنؤدبنك حتى لا تعود لمثلها أبداً.

وانهالوا علي ابن مسعود يؤذونه ويسبونه، وتقدم أبو جهل، وكان ضخم الجسم، فرفع ابن مسعود من أذنه، فقيل إنه شجها، وابن مسعود رضى الله عنه، لا ينفك يتلو آيات الله، حتى أوهنته الضربات، فانسل من مجلس قريش وقد تملكه فرح عظيم، فتلقاه إخوانه يلومونه، ويقولون: هذا والله ما خشيناه عليك يا عبد الله، وقد كنا نعذرك لو تقم بينهم مقامك ذاك.

فيجيبهم ابن مسعود، وقد تهلل وجهه: والله ما كان أعداء الله أهون علي منهم اليوم، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غداً فأسمعهم ما يكرهون من آيات الله العظيم.

عبرة:

يا شباب، إذا عظم ذكر الله سبحانه وتعالي في قلب المؤمن الصادق هان عنده كل شيء، فقد هان هؤلاء الكفار علي عبد الله بن مسعود رضى الله عنه علي الرغم من شراستهم وتحزبهم ضد دعوة الحق، فتحداهم بما يكرهون، وذلك لأن وجود الإيمان بالله عز وجل في قلبه كانت نسبته عالية جداً، بينما كان وجود هيبة الكفار في قلبه ضئيلاً جداً، فأقدم علي مواجهتهم بذلك، وبهذا نعلم يا أخوة أن الرهبة من أعداء الإسلام تتضخم في قلب المسلم بقدر تضاؤل وجود الإيمان بالله تعالي في قلبه، بينما تتضاءل رهبته منهم بقدر قوةُ إيمانه بالله تعالي وهيمنة هذا الإيمان علي مشاعره وسلوكه.

الدنيا معبر وطريق للآخرة، والمؤمن فيها إما غريب أو عابر سبيل، فهو لا يركن إليها، ولا يشغل بزخرفها ويخدع بما فيها، إنما يستشعر المؤمن في نفسه وقلبه دائماً وأبداً، أن يعيش في هذه الدنيا عيش الغريب عن وطنه، البعيد عن أهله وعياله، فهو دائماً وأبداً في شوق إلي الوطن، وفي حنين إلي لقيا الأهل والعيال والأحباب، ولا يزال قلبه يتلهف إلي مفارقته فهو لا يشيد فيه بناء، ولا يقتنى فراشاً ولا أساساً، بل يرضى بما تيسر له، ويدخر من دار الغربة، ويجمع من الهدايا والتحف، ما يتنعم به في بلده، بين الأهل وذوى القربى، لأنه يعلم أن هناك المقام والمستقر، وهكذا المؤمن يزهد في الدنيا، لأنها ليست بدار مقام، بل هي لحظات بالنسبة للآخرة {فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ} (التوبة: ٣٨).

بل أن المؤمن يعيش في هذه الدنيا ويستقر أقل مما يعيشه الغريب عن بلده ويقيم، فإن الغريب ربما طاب له المقام، واتخذ المسكن والأهل والعيال، وليس هذا حال المؤمن في الدنيا بل هو كالمسافر في الطريق، يمر مرّ الكرام، ونفسه تتلهف إلي الوصول لموطنه ومستقره، والمسافر لا يتخذ في سفره المساكن بل يكتفي من ذلك بالقليل، قدر ما يؤنسه لقطع مسافة عبوره، ويساعده علي بلوغ غايته وقصده، وهكذا عاش أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وهكذا عاش الصحابي الجليل أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع.

كان أبو عبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه علي جبهة الشام يقود جيوش المسلمين من نصر إلى نصر، حتى فتح الله على يديه الديار الشامِيَّة كلها، فبلغ الفرات شرقاً وآسيا الصغرى شمالاً، وحينما جاءت السنة الثامنة عشر من الهجرة دهم بِلاد الشام طاعون ما عرف الناس مثله قط، فجعل يحصد الناس حصداً، حتى يقدر من مات فقط من المسلمين بالشام ثلاثون ألفا مسلم.

فلما وصل خبر الطاعون إلي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أصابه الذعر، وتعاظم قلقه علي أبي عبيدة رضى الله عنه، ففضلاً عنْ حبه الشديد له، فقد كان يتمنى أن يستخلفه علي المسلمين، ففيه من صفات القيادة ما يؤهله للخلافة.

فما كان من عمر بن الخطاب إلا أن وجه رسولاً لأبي عبيدة بِرِسالةٍ، بلّغ الرسول أبا عبيدة وهو في الشام قائِداً للجيوش، فكتب إليه يقول: إني بدت لي إليك حاجة، لا غِنى لي عنك فيها، فإن أتاك كِتابي هذا، إن أتاك ليلاً فإني أعزم عليك ألاَّ تصبِح حتى تركب إلَيَّ، وإن أتاك كِتابي نهاراً فإني أعزم عليك ألاَّ تمسي حتى تركب إلَيَّ.

ففهم أبو عبيدة ما يريده عمر رضى الله عنهما، واسمعوا يا أخوة ما قاله هذا الصحابي الجليل: قد علمت حاجة أمير المؤمنين إليّ، فهو يريد أن يستبقي ما هو ليس بِباقٍ، ثم كتب يقول: يا أمير المؤمنين، إني قد عرفت حاجتك إلَيّ، وإني في جندٍ من المسلمين، ولا أجد بِنفسي رغبة عن الذي يصيبهم.

فهو رضى الله عنه ما أراد أن يغادر الجيوش لِينجو وحده من الطاعون، ويهلك الجند هناك، ثم قال: ولا أريد فِراقهم حتى يقضِي الله فيَّ وفيهم أمره، فإذا أتاك كِتابي هذا فخللني من عزمك، وأْذن لي بالبَقاء.

فهو رضى الله عنه كبر عليه أن يأخذ ميزة على جنوده، فلا بدَّ من أن يكونوا معهما.

فلما قرأ عمر الكتاب بكى حتى فاضت عيناه، فقال له من عنده من شِدّة ما رأوه يبكي: أمات أبو عبيدة؟ قال: لا، ولكن الموت قريبٌ منه، وقد كان.

كانَ أبو عبيدة رضى الله عنه رحيماً بِجنوده، وأبت نفسه أن يمتاز عليهم، فرضوان ربي علي الأمين الصادق.

عبرة:

يا شباب، شعرت بأحاسيس أردت أن أُعبرها لكم، شعرت أن الله عز وجل إذا تجلى على قلب المؤمن بالرحمة أسعده سعادة لا توصف، فما هؤلاء الرجال؟ واللهِ إن كانوا بشراً فنحن لسنا من بني البشر، وإن كنا بشرٌ فهم فوق البشر، هم ملوك الدار الآخرة، وما هذا الحب الذي في جوانِحِهم؟ وما هذا الشوق الذي ينبض بِه قلوبهم؟ كلما قرأت تاريخ هذا الصحابي مهما تعددت مرات القراءة تشعر أنك تَقِف أمام إنسانٍ عظيم، من أي جامِعةٍ تخرج؟ هل يحمِل دكتوراه؟ كم كِتاباً قرأ؟ لقد تخرّج من مدرسة أعظم البشر محمد صلى الله عليه وسلم، يا أخوة، إذا اتصل الإنسان بالله أصبح شيئًا آخر، يمكن أن يلغى عنده مع الاتصال بالله كل شيء.

إذا استحكمت الأزمات، وتعقدت حبالها، وترادفت الضوائق، وطال ليلها، فالصبر وحده هو الذي يشع للمسلم النور العاصم من التخبط، والهداية الواقية من القنوط، والصبر فضيلة يحتاج إليها المسلم في دينه، ولابد أن يبنى عليها أعماله وآماله وإلا كان هازلاً، فيجب أن يوطن نفسه علي احتمال المكاره دون ضجر، وانتظار النتائج مهما بعدت، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت، بقلب لم تعلق به ريبة، وعقل لا تطيش به كربة، يجب أن يظل موفور الثقة، بادي الثبات، لا يرتاع لغيمة تظهر في الأفق ولو تبعتها أخرى وأخرى، بل يبقى موقناً بأن بوادر الصفو لابد آتية، وأن من الحكمة ارتقابها في سكون ويقين، وقد أكد الله أن ابتلاء المؤمنين لا محيص عنه، حتى يأخذوا أهبتهم للنوازل المتوقعة فلا تذهلهم المفاجآت ويضرعوا لها، وكان هذا حال الصحابي الجليل خالد بن سعيد بن العاص رضى الله عنه، وهذه ومضة من محنته رضى الله عنه.

أسلم خالد بن سعيد بن العاص رضى الله عنه، وكان خامس خمسة، أو سادس ستة، أسلموا علي وجه الأرض، ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يتنقل معهم بين شعاب مكة، يحفظ ما ينزل من قرآن، ويعبد الله سراً خوفاً من أذي قريش، فلما طالت غيبة خالد عن البيت افتقده أبوه فبعث العيون وراءه فجاءته الأخبار أنه أسلم، فجن جنون سيد بني عبد شمس لذلك، فما كان يظن ظنا أن أحد أولاده تبلغ به الجرأة أن يخرج علي سلطانه، ويكفر باللات والعزي، ويلحق بمحمد صلوات ربي وسلامه عليه.

أرسل سعيد بن العاص مولاه رافعاً، وأولاده أبان وعمر، إلي خالد فوجدوه يصلي في بعض الشعاب صلاة هزت قلوبهم هزاً، و ملأت أفئدتهم راحة، وملأت نفوسهم سلاماً وأماناً، فقالوا له: إن أباك يدعوك للقائه، وقد استشاط غضباً لتركك المنزل دون إذن منه.

مضي خالد معهم حتى صار عند أبيه، حياه أبيه بتحية الإسلام، فقال له أبوه: تبا لك أصبات. قال خالد: لم أصبأ، وإنما آمنت بالله، وصدقت بنوة رسوله، ونبذت هذه الأصنام.

قال أبوه: ويحك أتقول إنك صدقت هذا المدعي.

قال خالد: ما هو بمدع.. إنما هو صادق، يبلغ رسالات ربه، وينصح الناس.

فقال أبوه: لَا بد لك أن تعرض عنه، وتكذبه.

قال خالد: لاَ أفعل ما دام في عرق ينبض.

فقال أبوه: إذن أحرمك من رزقي.

قال خالد: ذلك أهون ما انتظرته منك، وأقل ما توقعته، فالله الذي رزقك ويرزقني.

فتميز سيد بني عبد شمس غيظاً، وانهال عليه بالعصا فشج رأسه، حتى جعل الدم ينبثق من رأسه وجسده انبثاقاً، ثم أمر به فشد عليه وثاقه، وحبسه في غرفة مظلمة، ومنع عنه الطعام، والشراب ثلاثة أيام، ثم جاءه في اليوم الرابع مع نفر من أهله، وقالوا له:كيف أنت يا خالد؟

قال خالد: أتقلب في نعَم الله عز وجل.

فقالوا له: أما آن لك أن تثوب إلي رشدك، وتطيع أباك؟! قال خالد: أما رشدي فما فارقني.

وأما أبي فلا أطيعه فيما يغضب الله.

فقالوا: قل لأبيك كلمة ترضيه في اللات والعزي يفرج عنك.

فقال خالد: إن اللات والعزي، حجران أصمان أبكمان، وإني لا أقول فيهما إلا ما يرضي الله ورسوله، وليفعل بي ما يشاء.
شد أبوه وثاقه، وأمر أتباعه أن يخرجوا به كل يوم في وقت الهاجرة - أي وقت الظهيرة - إلي بطحاء مكة، وأن يلقوه بين الحجارة حتى تصهره الشمس، فكان كلما أخرجوا وألقوه في الهاجرة، يقول: الحمد لله الذي أكرمني بالإيمان، وأعزني بالإسلام، إن ذلك كله أهون علي من لحظة من عذاب جنهم التي أراد أن يلقيني فيها أبو أحيحة - يقصد أبوه وكان هذا لقبه -.
وحانت لخالد فرصة فتفلت من سجن أبيه، ومضي إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولحق به أخواه عمر وأبان، وانضما معه إلي موكب النور، عند ذلك قرار أبوه ترك مكة، وذهب إلي قرية بجوار الطائف، وظل فيها حتى مات، وهو علي الشرك.
عبرة:
يا أخوة، هكذا هدى الله تعالي خالد بن سعيد رضى الله عنه وأخرجه من ظلمات الشرك إلي أنوار التوحيد، وكان يقينه رضى الله عنه بالإسلام قوياً حيث لم يتزعزع إيمانه لما وبخه أبوه وضربه وهدده بقطع رزقه مع أن أباه كان من سادة أهل مكة الكبار، بل أعلن خالد استغناءه عن أبيه واعتماده الكامل علي الله تعالي وحده، وثبت رضى الله عنه علي حياة الفقر لأنه أحس بأن الإسلام هو سعادة الروح، وأيقن بأن الحياة الدنيا لا تساوي شيئًا أمام الآخرة، فلتكن الدنيا كما يريد الكفار المتسلطون حياة بؤس وفاقة علي المسلمين، فإن الموازين ستتبدل في الآخرة فيصبح المسلمون هم أصحاب الحياة السعيدة الخالدة، وقد تتبدل في الدنيا حينما ينتصر المسلمون، وتكون لهم الدولة، والهيمنة في الأرض.
يا أيها القارئ الكريم، المؤمن عميق الإحساس بما لله عليه من فضل عميم، وإحسان عظيم، ونعم تحيط به عن يمينه وشماله، ومن بين يديه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته، إنه يشعر دائماً بنعمة الله عليه منذ كان في المهد صبياً بل منذ كان في بطن أمه جنيناً، كان صبياً وليداً لا سن له تقطع، ولا يد له تبطش، ولا قدم له تسعى، فأجرى الله له عرقين رقيقين في صدر أمه يجريان لبناً خالصاً كامل الغذاء دافئاً في الشتاء بارداً في الصيف، وألقى الله محبته في قلب أبويه فلا يطيب لهما طعام ولا شراب ولا يهنأ لهما نوم ولا عيش حتى يكفياه ما أهمه ويدفعا عنه كل سوء.

بجوار الله تعالى جوارا
إن من أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، وعلي قدر الصبر يكون الأجر، وعلي قدر أهل العزم تأتي العزائم، والإسلام دين يرد الإنسان إلي فطرته، وهي فطرة نقيةَ صافُية قيمة لا عوج فيها ولا انحراف، إذا رد الإنسان إليها تخلص من جميع العوائق التي تحول بينه وبين الإقدام في سبيل الله الواحد الأحد مجاهداً يكر ولا يفر، ولا يولي الأدبار إلا متحرفا لقتال، أو متحيزاً إلي فئة يستعين بها علي الكر والفر في ساحات القتال مرة بعد أخرى، والابتلاء جزء من ضريبة التحرر والانتصار، فلولا قوة الاحتمال من الرجال للشدائد والأهوال ما حرروا داراً، ولا حققوا الأماني التي يسعون إليها في خدمة دين رب العزة.
ولقد تعرض كثير من الصحابة إلي الأذى والتعذيب في سنوات الدعوة الأولى في مكة فما ضعفوا وما استكانوا، بل صبروا واحتسبوا، وواصلوا المسيرة الإيمانية، رغم شدة المحن في قناعة وحب حتى جاء نصر الله لعباده المؤمنين، وعثمان بن مظعون رضى الله عنه واحد من أولئك الأبرار الأطهار، فتعالوا بنا لنرى ومضة من قصة هذا الصحابي الجليل.
كان عثمان بن مظعون رضى الله عنه من الذين كانوا في الحبشة، فلما سمعوا أخبار كاذبة أن قريش قد دخلوا في دين الله، كان من أول العائدين، وما إن وطئت أقدامهم مكة حتى استقبلتهم قريش بمثل ما ودعتهم به من تعذيب وتنكيل، فدخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، وعاش عثمان في عهد الوليد في سلاَم وأمن، وكان المسلمون يتعرضون لتنكيل وتعذيب.
لكنه فكر رضى الله عنه فيما يصيب إخوانه من ضعفاء المسلمين علي يد الكفار من الأذى، وما يترتب علي صبرهم العظيم من الأجر الجزيل، والإيمان القوي، فلنترك هنا الكلام لعثمان رضى الله عنه ليحكي لنا ما حدث له.
يقول عثمان بن مظعون رضى الله عنه: لما رأيت ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء وأنا أغدو وأروح في أمان من الوليد قلت في نفسي: تبا لك يا بن مظعون،
إنك تعيش آمنَا في جوار رجل مشرك، والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبك، إن في ذلك لنقصاً كبيراً في نفسك، وضعفاً خطيراً في إيمانك.
ثم قال: مشيت إلي الوليد بن المغيرة، وقلت له:يا أبا عبد شمس لقد وفيت لي بذمتك، ولقيت في حماك السلامة والأمن، ولكني أريد أن أرد إليك جوارك، قال: ولم يا ابن أخي؟! لعله آذاك أحد من قومي؟، فقلت: لا، ولكني آثرت جوار الله علي كل جوار، فلا أريد أن أستجير بأحد غيره، قال: إذا كان لا بد فانطلق معي إلي المسجد فاردد علي جواري علي ملا من قريش كما أجرتك علي ملا منهم.
فانطلقنا حتى أتينا المسجد، فقال الوليد: يا قوم هذا عثمان بن مظعون جاء يرد علي جواري،
فقلت: صدق وإني وجدته وفياً كريم الجوار، ولكني أردت أن لا أستجير بغير الله، فرددت عليه جواره.
فقال عثمان: ثم انصرفت فمررت بمجلس لقريش توسطه لبيد الشاعر، وجعل يقول للناس: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، فقلت: صدقت، فأتبع يقول: وكل نعيم لا محالة زائل، فقلت: كذبت، إن نعيم الجنة لا يزول، فاستشاط لبيد غيظاً من كلمتي وقال: يا معشر قريش والله ما كان يؤذي جليسكم

فمتى حدث فيكم هذا؟! فقال رجل من قريش: إن هذا رجل سفيه من جماعة سفهاء قد تركوا آلهتنا، وفارقوا ديننا فلا يغيظنك قوله.
فأقبلت علي الرجل الذي قال هذا في ديننا ما قال فتنازعت معه، فلطمني لطمة أسالت عيني فما عدت أبصر بها، وكان الوليد بن المغيرة قريباً مني فالتفت إليّ، وقال:إن عينك يا ابن أخي كانت والله غنية عما أصابها، فقلت له: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلي مثل ما أصاب أختها في الله، فقال الوليد: هلم يا ابن أخي فعد إلي جواري إن شئت، فقلت: إني لا أعدل بجوار الله تعالي جواراً.
عبرة:
في هذه القصة يتبين لنا باب من أبواب الجهاد في سبيل الله تعالي تمثل بمحاولة إظهار عزة الإسلام، وذلك بالاعتزاز بالله تعالي وحده وإن تمكن المسلم من الاحتماء بأقاربه وعشيرته، وذلك فيما إذا لم تتطلب مصلحة الدعوة غير ذلك، وفيها إشارة إلي ما كان عليه الصحابة رضى الله عنهم من التنافس في سبل الخير، والعمل الصالح، وهذا يدل علي الإيمان القوى بالله تعالي والرغبة الصادقة فيما عنده من الثواب.
كما أن في الموقف فضيلة إنكار المنكر، وإن كان المسلم في حال ضعف وقلة ناصر، لأن في ذلك إظهاراً للحق الذي قد ينطمس في غمرة الباطل، فقد أنكر عثمان رضى الله عنه قول لبيد: وكل نعيم لا محالة زائل، حيث كذبه في ذلك وبين أن نعيم الجنة لا يزول، وتحمل في سبيل ذلك الأذى من المشركين حيث أصيبت عينه في سبيل الله تعالي، وإن كان الأولى أن يخفف من أسلوب الإنكار، لكنه مدفوعاً بالرغبة في تثبيت مفاهيم الإسلام، وطمس معالم الجاهلية.
ويبلغ عثمان رضى الله عنه قمة الإيمان حينما لم يندم علي ترك جوار الوليد بن المغيرة الذي حصل له هذا الأذى بسبب تخليه عنه حيث يبين للوليد حينما لامه علي تخليه عن جواره بأنه يتمنى أن تصاب عينه الأخرى في سبيل الله تعالي، وهذا هو الفرق بين من يقدم علي التضحية عن قناعة ويقين راسخ، وبين من يتحمس للإقدام علي أمر من أمور الجهاد ثم يتراجع حينما يتعرض للأذى في سبيل الله تعالي فإن هذا يعرض إيمانه للضعف، ويضر بالدعوة الإسلامية.

أرأيت ذلك الكوكب الذي ما كاد يلمع في سماء الإسلام إلا قليلاً حتى غيبته يد الردى، وهو أشد ما يكون تألقاً وازدهاراً، أنه الصحابي الجليل والنجم الساطع في سماء الإسلام أنس بن النضر رضى الله عنه - وهو عم الصحابي أنس بن مالك خادم النبي - كان أنس بن النضر غاب عن غزوة بدر في تجارة له خرج المدينة، فشق عليه ألا يشهد مع الرسول القائد صلى الله عليه وسلم أول يوم قتال في الإسلام، وأهمه ذلك الأمر وأغمه، فجعل يلوم نفسه، ويقول: ويحك يا أنس أتغيب عن أول مشهد للنبي صلى الله عليه وسلم، هل أنت ضامن بأن يمتد بك العمر للقاء آخر يعادل بدر، وقال: والله لئن أكرمني ربي بيوم ألقي فيه المشركين ليرين ما أصنع.
لم يمض علي العهد الذي قطعه أنس بن النضر علي نفسه إلا عام حتى جاء يوم أُحُد، وأُحُد كان يوم قاس علي المسلمين، محص الله فيه قلوب المؤمنين، وأبرز في ساحاته الأبطال الغر الميامين من طلاب الشهادة وأبناء الفراديس بطولات وتضحيات تكتب بماء الذهب.
وقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لقي، فرمي بالْحجارة، وأُلقي في الحفرة، وشج وجهه، وجرحت شفته، وسال دمه الشريف علي وجهه، وأرجف المرجفون أنه قتل، وصدق أكثر المسلمين المجاهدين معه ما ذاع عنه وشاع، ففر كثير منهم من أرض أُحُد حتى وصل بعضهم إلي المدينة.
وكان أنس بن النضر غائب في سفر له عن المدينة، وجاء المدينة وبعض المسلمين قد فروا من أرض المعركة بعد سماع نبأ موت رسول الله، فقال لهم: لم تهربون! قالوا: لقد قتل رسول الله صلي الله عليه عند أُحُد، فقال أنس: وما الحياة بعده، ماتوا علي ما مات عليه رسول الله.
وذهب رضى الله عنه إلي الميدان، فاطلع علي ساحة المعركة، ونظر إلي المسلمين وقد انكشفوا، وشاهد الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه، وقد أحدق به المشركين من كل جانب، وهم يقصدون قتله، ليطفئوا نور الله بحد السيوف.
فقال أنس: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين الفارين -، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين-، وسل سيفه، وكسر غمده، وصمم علي موصلة القتال،
وألقي بنفسه في خضم أهوال المعركة العصيبة، وبينما هو مندفع نحو المشركين رأي سعد بن معاذ رضى الله عنه قريباً منه فالتفت إليه وقال: الجنة يا سعد الجنة، ورب النضر إني أجد ريحها دون أُحُد، ثم مضي لا يلوي علي شيء، فقال سعد: فهممت أن ألحق به، وأن أسلك سبيله، وأفعل فعله، غير أني ما استطعت أن أعزم علي ما عزم عليه.
ثم انجلت المعركة، وإذا بأنس بن النضر قد ثوي شهيداً علي أرض أُحُد، وفيه بضع وثمانون ضربة بالسيف، و طعنة بالرمح، و رمية بالسهم، وقد بلغ من كيد المشركين له أنهم مثلوا به ميتاً، فلم يعرف أحد معالمه، فما عرفه أحد إلا أخته « الربيعه بنت النضر » أم حارثة أول شهيد في بدر عرفته من بنانه، ولقد أكرم الله أنس فأنزل فيه قرآنا سيظل يتلي إلي قيامة الساعة فيه وفي أمثاله من المجاهدين:{مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}(الأحزاب:٢٣).
عبرة:

يا شباب، في هذا الخبر بيان موقف في الثبات والتضحيةَ لأنس بن النضر رضى الله عنه حيث ثبت في ميدان المعركة، وتلقى هجوم الأعداء العنيف بعد كرتهم، ولقد ظل يقاوم مع إصابته ببضع وثمانين ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم حتى سقط علي الأرض، وهذا يدل علي قوة احتماله، وصبره الشديد.

وفي قوله إني أجد ريح الجنة دون أُحُد، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: يحتمل أن يكون ذلك علي الحقيقة بأن يكون شم رائحة طيبة زائدة عما يعهد فعرف أنها ريح الجنة، ويحتمل أن يكون أطلق ذلك باعتبار ما عنده من اليقين حتى كأن الغائب عنه صار محسوساً عنده، والمعنى أن الموضع الذي قاتل فيه يؤول بصاحبه إلي الجنة.

تألق أقوام من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من الأمجاد والمآثر، وضربوا في البطولة والتضحية والفداء بسهم وافر، وباعوا أنفسهم للذي وهبهم الحياة، فأحياهم الله حياة طيبة في الدنيا ورزقهم الشهادة، فكانوا بها أحياء في الدار البرزخية، ثم يبعثون ودماؤهم تشهد لهم عند ربهم بأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه حتى قضوا نحبهم، فكان لهم ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، ومن هؤلاء الصحابي الجليل، والمؤمن التقى، والفدائي المغوار عبد الله بن جحش رضى الله عنه.

كان رضى الله عنه وأرضاه سليم القلب نقي السريرة، حميد السيرة، يقضي ليله ونهاره في التعبد والذكر مع الجهاد المتواصل في سبيل الله عز وجل، ولا ينسى أحد له موقفه البطولي يوم أُحُد، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الماتع لهذا الصحابي الفذ.

لم يهدأ بال قريش منذ غشيها في بدر ما غشيها، وكان ما جد من الحوادث بعد بدر لا يزيد أحقادها إلا ضراماً، فلما استدارت السنة، كانت مكة قد استكملت عدتها واجتمع إليها أحلافها من المشركين، وانضم إليهم كل ناقم علي الإسلام وأهله، فخرج الجيش الثائر في عدد يربو علي ثلاثة آلاف، وتحرك التحالف الوثني إلي عاصمة الإسلام لتدمير سفينة الإيمان وأهلها.

عرف النبي صلى الله عليه وسلم بتحرك الوثني، فنادي منادي الرسول في المدينة: حي علي الجهاد، فاندفع المسلمون يجيبون نداء رسولهم القائد صلوات الله وسلامه عليه، للخروج إلي أُحُد بعد أن استشار الشباب، فأشاروا عليه بالخروج للقتال قريش خرج المدينة.

وفي الطريق مشى عبد الله بن جحش بجانب أخوه سعد بن أبي وقاص رضى الله عنهما، فقال عبد الله بن جحش: يا سعد، ألا ندعو الله عز وجل بدعاء خير؟ قال سعد: بل يا أخي ندعوه، ورفع يديه إلي السماء وقال:اللهم إذا لقيت العدو غداً، فلقني رجلاً شديداً بأسه من الكافرين، فأقتله في سبيلك، وآخذ سلبه.

ثم رفع عبد الله بن جحش يديه إلي السماء وقال:اللهم إذا لقيت العدو غداً، فارزقني رجل شديد بأسه من الكافرين، فأيقتلنى في سبيلك، فيجدع أنفى وأذني، فإذا لقيتك قلت: يا عبد الله فيما جدع أنفك؟ فأقول: فيك، وفي رسولك يا رب.

وفي المعركة اشتبك الجمعان في قتال طاحنة مرير، وأبلى عبد الله بن جحش وغيره من أبطال المسلمين رضى الله عنهم بلاء من يقرع أبواب الجنة بصدق، وقد قابله أبو الحكم بن الأخنس بن شريق، وكان من صناديد قريش، فتقاتلا قتالاً مريراً، وجدع أبو الحكم أنف عبد الله بن جحش، وأذنه، ثم أجهز عليه فأرداه شهيداً في سبيل الله.

فلما توقف القتال هرع كل فريق يتفقد قتلاَه، وجرحاه، فمر سعد بن أبي وقاص بأخيه عبد الله بن جحش رضى الله عنهما، فتذكر ما كان من أمر دعائهما بالأمس، فذرفت عيناه الدمع، وقال: أي عبد الله، قد كانت دعوتك خيراً من دعوتي، ولقد رأيتك آخر النهار وأنفك وأذنك معلقان بخيط.

دفن الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه عبد الله بن جحش في قبر واحد مع خاله سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما.

عبرة:

يا شباب، هكذا كانت أمنية عبد الله بن جحش رضى الله عنه أن ينال الشهادة، وأن يمثل به الكفار لينال أجر ذلك بعد أن يقارع الأقران الأشداء، وقد استجاب الله تعالي دعاءه فنال الشهادة علي

الصورة التي أحبها.
لقد وفقه الله تعالي لهذا الدعاء لأنه سبحانه أراد أن يتخذ منه شهيداً مع إخوانه الشهداء الأبرار، ووفق سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه إلي الدعاء المذكور الذي لم يشتمل علي طلب الشهادة لأنه سبحانه أراد منه أن يعز الإسلام وأهله، وأن يذل الكفر وأهله علي يديه، ولقد تأخر أجله حتى فتح الله تعالي به مملكة الفرس، وأعز به دولة الإسلام.
يا شباب، إن الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم، ويوجهون زمامه بعزماتهم، هم الذين صلوا هذه الحرب، وحفظوا بها مصير الإسلام في الأرض، وفي هذا الموقف صورة للرجولة الفارعة التي اصطدم بها الكفر أول المعركة وآخرها فماد أمامها، واضطربت من تحت أقدامه الأرض، فما ربح شيئًا في بداية القتال، ولا انتفع بما ربح آخره.
وهذا اللون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامي القائم إلي اليوم، وما يقوم للإسلام صرح، ولا ينكشف عنه طغيان، إلا بهذه القوى المذخورة المضغوطة في أفئدة الصديقين والشهداء.

الأنصار هؤلاء الصحابة الأخيار الذين تذوقوا حلاوة الإيمان، فسرت في نفوسهم محبة الله ورسوله، وتغذوا بلبان الإسلام فعاشوا سعداء في حياتهم، وسينالون بأذن الله حسن الثواب في الدار الآخرة فهم من السابقين الأولين إلي الإسلام، وهؤلاء الفائزون بالإيمان أسهموا رجالاً ونساء، في مجالات الخير جميعها من جهاد وعلم وإيثار وكرم وغير ذلك، وجعلوا نصب أعينهم الفوز بمرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تتفاوت أقدار الرجال بحسب ما يؤدونه من عمل صالح ينفعهم في الدنيا والآخرة، ويعم نفعه علي أمتهم، وتمتد آثاره إلي عصور غير عصرهم، ويسجل التاريخ لهم هذه الآثار في أنصع صفحاته، فالعمل الصالح هو الفخار لأهله في الدنيا، وهو النجاة لهم في الآخرة، وتتفاوت الأعمال الصالحة بحسب نفعها، والإخلاص فيها، فرأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله.

وها هو تاريخنا الإسلامي المناضل يقدم إلينا نموذجاً فريد من نماذج المجاهدين الأبرار الأوفياء أصحاب الإقدام والتضحية والفداء، ومن هؤلاء الفائزين بالرضوان والشهادة وجنات النعيم أبو طلحة " زيد بن سهل " رضى الله عنه.

لقد شهد أبو طلحة الأنصاري مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المعارك كلها، وأبلى فيها أشرف البلاء وأعزه، لكن كان أعظم أيام أبي طلحة مع الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه يوم أُحُد، فلقد فر الجيش الإسلامي، ولم يبق في ميدان المعركة إلا رسول القائد في ثلاثين من أبطال المسلمين منهما أبو طلحة الأنصاري رضى الله عنه، وإليك خبره في هذا اليوم.

كان أُحُد يوم صعب على الرسول القائد صلى الله عليه وسلم، وعلي المسلمين، فلما انكشف المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفذ إليه المشركون من كل جانب، فكسروا رباعيته، وشجوا جبينه، وجرحوا شفته، وأسالوا الدم على وجهه الشريف، حتى إن المرجفين أرجفوا بأن الرسول القائد قد قتل، فازداد المسلمون وهنا على وهن، وأعطوا ظهورهم لأعداء الله، عند ذلك لم يثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غير نفر قليل، انتصب أبو طلحة أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم كالطود الراسخ بينما وقف النبي صلى الله عليه وسلم خلفه يتترس به.

شد أبو طلحة قوسه، وركب عليها سهامه التي لا تخطئ الهدف، وجعل يذود بها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويرمى جنود المشركين واحداً إثر واحد، وكان الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه يتطاول من خلف أبي طلحة ليرى مواقع سهامه، فكان يرده خوفاً عليه ويقول له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا تشرف عليهم فيصيبوك، نحري دون نحرك، وصدري دون صدرك، وجعلت فداك.

وكان بعض الرجال من جند المسلمين يمر برسول القائد صلى الله عليه وسلم هارباً ومعه الجعبة من السهام، فينادي عليه النبي صلى الله عليه وسلم يا فلان: انثر سهامك بين يدي أبي طلحة ولا تمض بها هارباً، وما زال أبو طلحة ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم طول اليوم حتى كسر ثلاث أقواس، وقتل ما شاء الله أن يقتل من صناديد قريش.

عبرة:

يا شباب، في هذا الخبر بيان من مواقف أبي طلحة في غزوة أُحُد، وقد تبين لنا مظاهر خبرته الحربية ومهارته في الرمي، وجهود الكبيرة في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم والإثخان في الكفار بسلاح الرماية، هذا إضافة إلي ما قام به من وقاية النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه حيث جعل جسده ترساً له دون سلاح الأعداء، لقد كان أبو طلحة من الذين ثبتوا مع النبي صلى الله عليه وسلم وبايعوه علي الموت في حال إصابة المسلمين وتفرقهم، وقد كان من الرماة المشهورين، فبذل طاقة كبيرة في الرماية حماية لرسول صلى الله عليه وسلم ودفاعاً عنه.
في هذا الخبر وأمثاله نستشف مثلاً من أمثلة العظمة حيث تذوب الأجسام في مراد العقول السليمة يتمثل بالطموح العالي نحو بلوغ رضوان الله تعالي والجنة، فيتعرض أولو الألباب لمواطن الشهادة التي فيها رجاء الوصول السريع لتحقيق ذلك الهدف الغالي.

لقد كان كل صحابي كأنه قرآنًا يمشى علي الأرض يراه الناس فيرون الإسلام من خلاله لما لا وهم من خريجي المدرسة النبوي المحمدية، فلقد نسخ النبي صلى الله عليه وسلم عشرات النسخ من المصحف، بل مئات، بل أُلوفاً، ولكنه لم ينسخها بمداد من الحبر علي صفحات الورق، ولكنه نسخهًا بمداد من النور علي صفحات القلوب.

وذلك هو شأن الإيمان إذا عمقت جذوره، وقوى سلطانه علي النفس، إنه يمد صاحبه بيقين لا يهن، وهمة لا تني، وأمل لا يخبو، ودافع لا يتوقف، وعزم لا يخور، فهو يملك الدنيا ولكنها لاَ تملكه، ويجمع المال ولكنه لا يستعبده، وتحيط به النعمة ولكنها لا تبطره، وينزل به البلاء ولكنه لا يقهره، لا تزيده الشدائد إلا عزيمة مع عزيمته، وقوة إلي قوته، كالذهب الأصيل، لا تزيده النار إلا نقاءً وصفاءً.

وأنا أسألكم بالله من كان يصدق أن مجموعة قليلة العدد، ضئيلة العدة، من جزيرة العرب، لم يكن لهم فلسفة اليونان، ولا مدنية الرومان، ولا حكمة الهند، ولا صنعة الصين، تملك الدنيا بزمامها، وترث ملك الأكاسرة، وتحطم إمبراطورية القياصرة، وتنشر ديناً جديداً، وحضارة جديدة في الآفاق، وفي أقل من ربع قرن من الزمان.

وها نحن علي موعد مع رجل من أبطال معركة أُحُد، طوي التاريخ اسمه، ولم يعرف سيرته كثيرٌ من أبناء الأمة، إنه الصحابي الجليل وهب بن قابوس المزني رضى الله عنه، فتعالوا بنا لنرى ومضة من بطولته يوم أُحُد.

أقبل وهب بن قابوس المزني، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس رضى الله عنهما، بغنم لهما من جبل مزينة، فوجدا المدينة خلوا، فسألا: أين الناس؟ فقالوا: بأُحُد، لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين من قريش، فقالا: لا نبتغي أثراً بعد عين.

فخرجا حتى أتيا الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بأُحُد فيجدان القوم يقتتلون، والدائر علي المشركين، ثم جاءت الخيل من ورائهم بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فاختلطوا، فقاتلا الطرفين أشد القتال.

ثم أحدق المشركين بالمسلمين من كل جانب، والرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه وسط الميدان، والكتائب تطلع علي المسلمين من كل جانب، فهاجمت فرقة منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول من لهذه الفرقة؟

فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع، فهاجمت فرقة أخرى علي النبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من لهذه الكتيبة؟ فقال وهب المزني: أنا يا رسول الله، فقام فذبها بالسيف حتى ولوا، ثم رجع المزني**!!**

ثم طلعت كتيبة أخرى فقال رسول الله: من يقوم لهؤلاء؟ فقال وهب المزني: أنا يا رسول الله، فقال رسول الله: قم وأبشر بالجنة، فقام المزني مسروراً يقول: والله لا أقيل ولا أستقيل، فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه، حتى خرج وهب من أقصاهم**!**، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم ارحمه، ثم يرجع وهب فيهم فما زال كذلك، وهم محدقون به، حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه، فوجد به يومئذ عشرون طعنة برمح، كلها قد خلصت إلي مقتل، ومثل به أقبح المثل يومئذ.

ثم قام ابن أخيه الحارث بن عقبة فقاتل كنحو قتاله حتى قتل، فكان عمر بن الخطاب يقول: إن أحب ميتة أموت عليها ما مات عليه المزني!!
قال سعد بن أبي وقاص: أشهد إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً عليه وهو مقتول، وهو يقول: رضي الله عنك فإني عنك راض، ثم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قام علي قدميه، وقد نال النبي صلى الله عليه وسلم من الجراح ما ناله، وإني لأعلم أن القيام ليشق عليه، فقام علي قبره حتى وضع في لحده، وعليه بردة لها أعلام خضر، فمدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم البردة علي رأسه فخمره، وأدرجه فيها طولاً وبلغت نصف ساقيه، وأمرنا فجمعنا الحرمل فجعلناه علي رجليه وهو في لحده، ثم انصرف.
عبرة:
يا شباب، في هذا الموقف بيان للجهد الكبير الذي بذله وهب بن قابوس المزني وابن أخيه الحارث بن عقبة رضى الله عنهما حيث تركا ما قدما من أجله من بيع غنمهما في المدينة وخرجا إلي موقع المعركة، ولم يكن لهما دافع إلي الخروج إلا نصرة الإسلام والمسلمين، ولقد بذل كل واحد منهما جهداً كبيراً في صد الأعداء والنكاية بهم حتى سقطا شهيدين.
وإننا لنجد في هذا الخبر مثلا لقوة تمثل الحياة الآخرة في أذهان الصحابة، فحينما بشر النبي صلى الله عليه وسلم وهباً المزني بالجنة قام مسروراً وهو يقول: لا أُقيل ولا أستقيل فقد اشترى الجنة بنفسه، وطلب موطن الشهادة بعدما أثخن في العدو، ونجد أن الصحابة يتمنون أن يموتوا تلك الميتة التي رافقها ضمان دخول الجنة.
وهذا الشعور القوي نحو الحياة الآخرة هو الذي أنتج العجائب في حياة الصحابة رضى الله عنهم، حيث أصبحوا قوة عظمى علي قلة العدد وضعف العدد، واشتهر في أوساط الأمم أن المسلمين لا يمكن أن يقف لهم أحد مهما كانت قوة استعداده وكثرة جنوده.

الفدائي الجسور

لقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم النموذج المثالي في صدق محبتهم لله تعالي ورسوله صلى الله عليه وسلم، وحبهم ما يرضيهما وبغضهم ما يسخطهما، وتقديم محبتهما علي كل شيء، وتكييف أهوائهم تبعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى بذلوا في سبيل ذلك نفوسهم وأرواحهم وأموالهم، وقاتلوا عليه آباءهم، وهجروا أزواجهم وعشيرتهم وأوطانهم، لأنهم كانوا أعرف بحقه وأدرك لفضله صلى الله عليه وسلم.
والآن مع هذا النموذج المثالي لحب الصحابة رضوان الله عليهم للنبي صلى الله عليه وسلم، مع الصحابي الجليل أبو سفيان بن الحارث رضى الله عنه، فتعالوا بنا لنرى مشهد هذا الصحابي الجليل في غزوة حنين.
لما كان يوم حنين جمعت العرب لحرب الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ما لم تجمع قط، وأعدت للقائه ما لم تعد من قبل، وعزمت علي أن تجعلها القاضية علي الإسلام وأهله، وقد خرج الرسول القائد صلى الله عليه وسلم مسرعاً للقاء العدو قبل الهجوم علي مكة، فكان ممن خرج في الجيش الإسلامي أبو سفيان بن الحارث رضى الله عنه، فلما رأي أبو سفيان جموع المشركين الكبيرة قال: والله لأكفرن اليوم عن كل ما سلف مني من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليرين النبي من أثري ما يرضي الله ويرضيه.
فلما التقى الجمعان اشتدت وطأة المشركين علي المسلمين، فدب الوهن والفشل في صفوف المسلمين، وجعل الناس يتفرقون عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكادت تحل بنا الهزيمة المنكرة، فإذا بالرسول الله صلى الله عليه وسلم - فداه أبي وأمي - يثبت في قلب المعركة على بغلته الشهباء كأنه الطود الراسخ، ويجرد سيفه، ويجالد عن نفسه وعمن حوله كأنه الليث عادياً، عند ذلك وثبت عن فرسي، وكسرت غمد سيفي، والله يعلم أني أريد الموت دون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذ عمي العباس بلجام بغلة النبي صلى الله عليه وسلم، ووقف بجانبه، وأخذت مكاني من الجانب الآخر، وفي يميني سيفي أذود به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما شمالي فكانت ممسكة بركابه، فلما نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلي حسن بلائي قال لعمي العباس بن عبد المطلب: من هذا!
فقال: هذا أخوك وابن عمك أبو سفيان بن الحارث، فارض عنه يا رسول الله.
فقال: قد فعلت، وغفر الله له كل عداوة عادانيها.
فاستطار فؤادي فرحاً برضي رسول الله عني، وقبلت رجاله في الركاب، ثم التفت إلي فقال: أخي لعمري، تقدم فضارب.
ألهبت كلمات الرسول صلوات الله عليه حماستي، فحملت على المشركين حملة أزالتهم عن مواضعهم، وحمل المسلمون معي حتى طردناهم قدر فرسخ، وفرقناهم في كل وجه.
عبرة:
يا شباب، في هذه المعركة تبين لنا بوضوح شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم الفائقة وثباته الراسخ، فحينما حدث الهجوم المفاجئ علي المسلمين لم ينهزم، بل اختار مكانا من الوادي مناسباً وثبت فيه، وصار ينادي أصحابه بأن يفيئوا إليه، لم يستخف النبي صلى الله عليه وسلم حتى لا

يكون عرضة لهجوم الأعداء بل كان ينادي بأعلى صوته ويقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما يقود المعارك بنفسه ويتعرض لبأسها وضراوتها إنما يسنُ السنة الحسنة للقادة من بعده، إنه لا يقود المعارك من أبراج محمية وهو لا يدري عما يدور من تفاصيل المعركة فيصدر الأوامر علي غير هدى، بل كان صلى الله عليه وسلم يتقدم مع أصحابه وينظم الصفوف، ويتفقد جيشه، فإذا أصيب الجيش بشيء من الخلل فتفرق ثبت في مركز القيادة ونادي بالناس ليجتمعوا إليه كما في هذه الغزوة، وكما حدث في غزوة أُحُد.

أيها الأخوة، لله درُّ هذا الصحابي الجليل الذي كان مثلاً أعلى في البطولة، وفي التواضع، وفي العدل، وفي الشجاعة والإقدام، وفي الإدراك العميق للأشياء، نحن لا نقرأ هذه السيرة إلا من أجل أن نقتدي بها في حياتنا اليومية، الحقيقة أن الدين ليس قصصاً تتلى، ولا متعة تستفاد، إنما هي دروسٌ وعبر نأخذها من أجل أن تكون قدوةً لنا في حياتنا، وأنا أنصح أخوتنا الكرام أن يقفوا عند السيرة وقفة متأنية.

العقيدة المكينة، معين لا ينضب للنشاط الموصول، والحماسة المذخورة، واحتمال الصعاب، ومواجهة الأخطار، بل هي سائق حثيث يدفع إلي لقاء الموت دون تهيب، إن لم يكن لقاء محب مشتاق، تلك هي طبيعة الإيمان إذا تغلغل واستمكن من النفوس، إنه يضفي علي صاحبه قوة تنطبع في سلوكه كله، فإذا تكلم كان واثقاً من قوله، وإذا اشتغل كان راسخاً في عمله، وإذا اتجه كان واضحاً في هدفه، ومادام مطمئناً إلي الفكرة التي تملأ عقله، وإلي العاطفة التي تغمر قلبه، فقلما يعرف التردد سبيلاً إلي نفسه، وقلما تزحزحه العواصف العاتية عن موقفه.

ونحن هنا من رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الرجال الأبرار، إنه الصحابي الذي قال عنه الصديق رضى الله عنه يوماً: عجزت النساء أن يلدن مثل خالد.

وها هي الأيام تمر، والسنوات تمضى، وما رأينا واحداً مثله أبداً، مع أن الأمة في أشد الحاجة إلي خالد يولد في كل يوم ليحمل لواء الإسلام الذي انتكس منذ قرنين من الزمان ولم يجد من يحمله.

ومن المواقف التي لا تنسى لخالد بن الوليد رضى الله عنه موقفه يوم موقعة عين التمر، والاختطاف المدهش لقائد نصارى العرب عقة بن أبي عقة، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الأسطوري.

لما قام خالد بن الوليد رضى الله عنه بفتح الأنبار، وتم له إخضاع ما حولها من القرى، توجه إلي التجمع الثاني في شمال العراق، وذلك في عين التمر حيث قد اجتمع فيها جيش كبير للفرس بقيادة مهران بن بهرام، وجيش كبير من العرب من قبائل النمر وتغلب وإياد ومن انضم إليهم بقيادة عقة بن أبي عقة، فلما سمعوا بمجيء خالد قال عقة بسذاجة وتهور لمهران: إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً، فقال مهران بخبث ومكر: صدقت لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب، وإنكم لمثلنا في قتال العجم، فخدعه واتقى به، وقال: دونكموه وإن احتجتم إلينا أعناكم.

فسار عقة لملاقاة خالد، فقدم عليه خالد وهو في تعبئة جنده، فعبي خالد جنده، وقال لميمنة الجيش وميسرته: اكفونا ما عنده، فإني حاملٌ عليه، ووكل بنفسه حوامي، وأراد خالدٌ أن يفاجئ قائد النصاري لا بقتله، ولكن بأخذه أسيراً، كي يفهم ذلك المغرور أي رجال حرب هم المسلمون، ثم ليدخل الرعب والفزع في قلوبهم.

وقد كان المتبع في الحروب المبارزة، فكيف بخالد عاشق المفاجآت يريد ما هو أُعظم من المبارزة، وهو اختطاف قائد الأعداء، وانتزاعه من قلب صفوف جيشه، فانقض خالد علي عقه كما ينقض الصقر علي فريسته، وعقة مشغولٌ بتسوية صفوف جيشه، واندهش نصاري العرب للجريدة الصغيرة من الخيل التي خرجت تركض نحوهم، وماذا عسي أن يفعل عشرة من رجال مع عشرات الألوف من الرجال المدججين بالسلاح من رجال عقة، وبينا هم غارقون في دهشتهم، إذا بخالد يتجه نحو عقة يحتضنه، ثم يحمله ويعود به حياً - كالبرق - أسيراً إلي صفوف المسلمين.

هنا تجمدت الدماء في عروق نصارى العرب، وهي تري انتزاع خالد لعقة من بينهم في أسلوب صاعق مفاجئ، ما كان أحدٌ يتوقعه، وحمله بين يديه علي فرسه كأنه طفلٌ رضيع، فلم يتحملوا الصدمة اختطاف قائدهم من بين أيديهم وهم ينظرون إليه، فلاذوا بالفرار، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون، وقد كثر من بينهم الأسرى الذين استسلموا بدون مقاومة من هول المفاجأة،

وهرب الباقون ودخلوا حصن عين التمر، ولما جاء الخبر لمهران هرب في جنده وتركوا الحصن، ثم استسلم بقية جيش عقة من العرب، وهكذا دمر خالدٌ جيشاً بأكمله دون أن يخسر جندياً واحداً.
عبرة:
يا شباب، إن مغامرة الاختطاف التي قام بها سيف الله لعملٌ مدهش حقاً، فقد انقض انقضاض الصقر علي فريسته، وكأن الذي أمامه جثة هامدة، وليس رجلاً مدججا بالسلاح، وحوله جيش كامل العدد يمكن أن يدافعوا عنه جميعاً.
وإن العقل المجرد ليعجز عن تصور مثل هذا الموقف الذي يندر في التاريخ وجود مثيل له، ولكن الأمر في الحقيقة إلي جانب كونه صدر من رجل يعدُ في القمة في الشجاعة، فإن خالداً قد نصر بالرعب الذي يعد من خصائص هذه الأمة، التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر.
وإن الرعب ليلاحظ جلياً في هذه المعركة وفيما سبقها من معارك علي جبهة العراق، حيث لم يكن الأعداء يقدمون علي قتال المسلمين إلا وقد اكتنفهم الرعب منهم حتى قال أحد قواد الفرس وهو جابان: أما والله مادخلتني من رئيس وحشة قط حتى كان اليوم، وذلك في معركة أُليس.
ولو أن خالداً بارز قائد القوم لكان قائد ضد قائد، أما أن يهجم عليه وهو في منعة من جيشه فيلتقطه التقاطاً، فهذا دليل واضح علي أن الرعب قد ملأ قلب ذلك القائد؛ وقلوب جنده ففروا جميعاً بعد أسر قائدهم.

الأسد الشيخ

لله رجال ارتسمت علي وجوههم سمات العزة والعفةَ والشرف، وانساقت إليهم المفاخرة من قرونها، ولم تكن لهم أنساب ولا أُحساب ولا أُموال يتفاخرون بها، ولكن أُعزهم الإسلام بعزه الذي لا يرام، وانعكس نور الإيمان من قلوبهم النقيةَ علي وجوههم فزانها وإن لم تكن ذات جمال، وظهرت مآثرهم للناس واضحةَ جليةَ فشهدوا لهم بها، وأُحبوهم من أجلها، وخلد التاريخ ذاكراهم فكانوا بعد موتهم أحياء يذكرهم الأخيار في مجالسهم كلما جد الجد واحتاجوا إلي القدوة، فالأواخر يكملون ما بناه الأوائل من صروح المجد والشرف، إذا ما أحسنوا القدوة، وأُخلصوا النيةَ، وصدقوا الله في القول والعمل، وفي تاريخنا الكثير مثل هؤلاء الرجال الإفذاذ، وكان منهما الصحابي الجليل عبادة بن صامت رضى الله عنه، فتعالوا بنا لنرى هذا الموقف الذي سجله له التاريخ في صحائف من الذهب.

لما وصل عمرو بن العاص رضى الله عنه إلي مصر، بعث إلي المقوقس حاكم مصر عشرة رجال علي رأسهم الصحابي الجليل عبادة بن الصامت رضى الله عنه، وجعله أمير الوفد، والمتحدث عن الأمير، وكان عبادة رضى الله عنه شديد السواد، مفرط الطول مهاباً، فلما دخل الوفد الإسلامي علي المقوقس هابهم، وقال: نحوا عني ذلك الأسود وقدموا غيره ليكلمني، فقالوا: إن هذا أُفضلنا رأياً وعلماً، مقدَم علينا، نرجع جميعاً إلي قوله ورأيه، أمره الأمير علينا، وأمرنا ألا نخالفه، ولا نعصى له أمراً، وإن الأسود والأبيض في ديننا سواء، لا يفضل أحدٌ علي أحدًا إلا بدينه وتقواه.

أشارة المقوقس لعبادة أن يتكلم وطلب منه أن يتكلم برفق حتى لا يزعجه، فقال عبادة: إن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي، وأشد وأُفظع سوداً مني، لو رأيتهم كنت أُهيب لهم مني، ولقد وليت وأدبر شبابي وإني مع ذلك والحمد لله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً، وأصحابي همُ هم، رغبتنا وهمتنا الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله في الأرض، والله ما يبالي أحدنا أكان له قناطير من الذهب أم كان لا يملك إلَا الدرهم، نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاؤها ما هو برخاء، بذلك أمرنا الله وعهد إلينا نبينا، تقضى زمن الحل وهذا زمن العقد.

وقع الكلام في نفس المقوقس موقعاً عظيماً، فقال لأصحابه: هل سمعتم مثل هذا الكلام قط، لقد هبت منظره، وإن قوله لأهيب عندي من منظره، وما أظن ملكهم إلا سيغلب الأرض كلها.

ثم أقبل علي عبادة ليسلك معه طريق الإرهاب في قالب الدنيا، فيقول: قد سمعت مقالتك، ولعمري إنكم ما ظهرتم علي من ظهرتم إلاَ بحب الدنيا، ولقد توجه لقتالكم ما لا يحصى عدده من الروم ما يبالي أحد من لقى ولا من قاتل، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم، فنفرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة، ولخليفتكم ألفاً، خذوها وانقلبوا إلي بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به.

كان المقوقس يعلم علم اليقين إن هؤلاء القوم ليسوا بطلاب دنيا، ولكنها محاولة الرجل اليائس، أراد أن يصنع شيئًا يعذر به أمام قومه.

دائماً يحاول الأقزام يا سادة، أن يستنزلوا العظماء من عليائهم ليشاركوهم تدني أفكارهم إنه يعرض هذه المساومة، وهو يدرك ويعترف أن المسلمين بلغوا منزلة تخولهم لملك الأرض، ومع هذا يعرض عروضه المتدنية عليهم.

تعجب عبادة رضى الله عنه من هذه العقلية التي لا تعرف رباً غير المال، وقال بصوت كله ثقةَ وإيمان: يا هذا لا يغرنك من حولك، ولا تغرنك نفسك، ولا يغرنك أصحابك، ولا يغرنك جيشك، لعمر الله، ما هذا بالذي تخوفنا به، لا والله هذا بالذي يردنا عما نحن فيه، ولئن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوان الله وجنته، والله ما من شيء أقرّ لأعيننا، ولا أحب إلينا من أن نقتل لتعلو كلمة الله، والله ما منا رجل إلا وهو يدعو الله صباحٌ مساءٌ أن يرزقه الشهادة في سبيله، وألاَ يرده إلي أرضه ولا إلي أهله إلا بنصر المسلمين، فانظر فليست إلا خصلة من ثلاث، اختر أيَها شئت، ولا تطمع نفسك في باطل، بذلك أمرني الأمير، وبها أُمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله من قبل إلينا، هذا ديننا الذي ندين لله به، فانظروا لأنفسكم.

قال المقوقس: أفلا تجيبون إلي خصلة غير هؤلاء الثلاث؟ فوقع قول المقوقس علي آذان صماء من عبادة، ورفع يديه يشير إلي السماء مرة، ويخفضها إلي الأرض أخرى، يقول له: لا ورب هذه السماء، ورب هذه الأرض، ورب كل شيء، ما لكم عندنا من خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم.

عندها أُذعن المقوقس وبدأ يشاور أصحابه، فامتنعوا عن الإسلام، وامتنعوا عن الجزية، وقالوا: لئن دفعناها لم نعد أن نكون لهم عبيداً، والموت خيرٌ من هذا، فقال المقوقس: أجيبوني وأطيعوا القول، والله ما لكم بهم من طاقة، وإن لم تجيبوهم طائعين، لتجيبهم إلي ما هو أعظم منها مكرهين، فأبوا وامتنعوا، فاقتحم المسلمون عليهم أحد حصونهم في هيمنة تكبير ارتجت لها الأرض معلنة، ألا كبرياء في الأرض إلا وكسرت شوكتها، وقلبت ظهراً لبطن، ولم يبق إلاَ كبرياء الله.

ففتح الله حصنهم، وكسرت شوكتهم، وذلوا، فلام المقوقس قومه، وقال: ألم أخبركم؟ أما والذي يحلف به لتجيبنهم إلي ما أرادوا، فلو أن هؤلاء القوم استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى علي قتالهم أحد، أطيعوني، فأذعنوا وذلوا وخنعوا ودفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

عبرة:

يا أيها السادة الكرام، لقد كان هذا الجيل الرباني محتفظاً بشخصيته المتميزة القوية إزاء تلك الحضارات المادية الدنيوية في تلك المعارك، ما فقدوا شيئًا من مبادئهم وقيمهم، عبروا دجلة المادة، وفرات البهرج، فلم تبتل ذيولهم فيها، لأنهم عبروها بإيمان بالله عميق، وموازين دقيقة، وقيم أهلتهم للعزة والقيادة، والسمو، والريادة، فانتزعوا عجلة القيادة من القيم الهابطة، والمفاهيم والعقائد الفاسدة، والمثل المفترئة، لأن المواجهة كانت بين القيم، والمفاهيم، والمألوف أن تسرى سنة الله أن البقاء للأصلح.

من أئمة الهدى رجال باعوا أنفسهم وأموالهم لله عز وجل فربح بيعهم ربحاً وافراً وفازوا برضوان ربهم في الدنيا والآخرة، وأغناهم الله عز وجل من فضله فاستغنوا عمن سواه، وعاشوا أعزاء في كنف الإيمان، وجاهدوا أنفسهم جهاداً سموا به إلي مكارم الأخلاق، وجاهدوا عدوهم فكتب الله لهم النصر عليهم وشفي صدورهم منهم، وأورثهم جنة عرضها السموات والأرض، وها نحن علي مواعد مع واحد من هؤلاء العظماء من هذا الجيل الفريد، نعم لم يذكر التاريخ له اسمٌ، لكن كان له موقف من أعظم المواقف الخالدة في تاريخ، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد العظيم.
اعتلى رستم أعظم قادة الفرس، صهوة جواده، تحف به قادة جيشه، وكهانة الفرس، ومضى يتفقد جيوشه المجتمعة في القادسية بانتظار ملاقاة الجيش الإسلامي في معركة حاسمة، يميل رستم بفرسه نحو قائد من قواده يسأله: كم تظن يصمد رعاع العرب وأوباشهم أمامي، ومعي أكثر من مائتين ألف من صناديد فارس وفرسانها؟!
فيجبيه القائد، وقد أخذته العزة بالإثم، وغره ما يرى من جموع الفرس: ما أظن أيها القائد العظيم، أن يجرؤ رعاع العرب على ملاقاتك، وإني لأكاد أجزم أنهم سيسارعون إلى الفرار، حين تقع عيونهم على الفيلة التي تتقدم جيوشنا، وسيحدث لهم ما حدث يوم الجسر، وسيوقع مرآها الرعب في نفوسهم، فيقفلون هاربين.
وما كاد القائد ينهى كلامه، حتى ارتفعت من حول رستم ضوضاء وأصوات، لم تلبث أن انجلت عن ثلة من فرسان الفرس يقودون أسيراً مسلماً مكبلاً بالسلاسل والقيود، ينظر رستم إلي قائده ويسأله، وقد تمعر وجه من الغضب: كيف تقول لي منذ هنيهة أن أوباش العرب سيهربون من أمامي، وهذا واحد من أوباشهم يتجرأ علينا ويتحسس أخبارنا في عقر دارنا؟
يلوذ القائد بالصمت، في حين يلتفت رستم إلي الأسير المسلم، ثم يسأله: يا أعرابي، ما جاء بكم إلينا؟ وماذا تطلبون منا؟ فيجيبه الأسير، بشموخ يستصغر القيود والأصفاد، جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم إن أبيتم الإسلام.
قال رستم: فإن قتلتم قبل ذلك؟ فيجيبه الأسير: من قتل منا دخل الجنة، ومن بقى منا حياً، أنجزه الله وعده، ولا يغرنك يا رستم ما ترى حولك من جيوش، فنحن على يقين من نصر الله، واعلم يا رستم، أنك لست تجادل الإنس، وإنما تجادل القدر.
وبلغ الغضب برستم مبلغاً عظيماً لا حد له، ثم يستل سيفه المرصع بالذهب، ويهوى به بكل حقد على عنق الأسير المؤمن، فيفصل رأسه عن جسده شهيداً في سبيل الله.
عبرة:
يا شباب، أن صاحب الهوى، أو المتبع لهواه يعز عليه، بل ويكبر في نفسه أن يطيع غيره، خالقاً كان هذا الغير أو مخلوقاً، بسبب أن هذا الهوى قد تمكن من قلبه، وملك عليه أقطار نفسه، فصار أسراً لديه ودافعاً له في نفس الوقت إلي الغرور، والتكبر، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فإما أن يطيع ربه فيفوز في الدنيا والآخرة، وإما أن يطيع نفسه وهواه وشيطانه، فيهوى به في نار جنهم، فالإنسان إن لم يطيع ربه، فلم يبق إلا أن يكون مطيعاً لهواه.
يا سادة، المعركة بين الحق والباطل معركة أزلية أبدية، فكل واحد له ولاء، أهل الإيمان يوالون المؤمنين، وأهل الفسق والفجور يوالون بعضهم بعضاً، فينبغي أن يعرف الإنسان هو مع من؟ هذا

الذي يوالي المؤمنين، ويتبرأ من الكفار والمنافقين، مؤمنٌ ورب الكعبة، أما الذي له ولاءٌ لغير المؤمنين، هذا في إيمانه ضعف.

نحن الآن علي موعد مع بطل من أبطال الجيل الرباني، تخرج في مدرسة النبوة ليضرب لنا أروع الأمثلة في البطولة والفداء والتضحية والحب، حتى أن القلب لينتفض بشدة، والجسد تأخذه الرعدة كلما استرجع هذا المشهد العجيب وهو يقطع جسده قطعة وراء قطعة ليتكون أكثر من نصفه أمام عينيه والابتسامة المضيئة لا تزال ترتسم علي وجهه الجميل، ولسانه ما فتئ يردد كلمة التوحيد لله عز وجل، ويشهد من أعماق قلبه وبكل ذرة في كيانه أن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه الشاب التقي النقي المؤمن حبيب بن زيد رضى الله عنه، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الأكثر فدائية في تاريخ.

مضى الكذاب مسيلمة ينشر إفكه وبهتانه، وازداد أُذاه للمؤمنين وتحريضه عليهم، فرأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه رسالة ينهاه عن حماقاته، ووقع اختيار علي حبيب بن زيد رضى الله عنه ليحمل الرسالة إلي الكذاب مسيلمة، وسافر حبيب يغذ الخطى، مغبطاً بالمهمة الجليلة التي ندبه إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ممنياً نفسه بأن يتهدى الكذاب إلي الحق، فيفوز بعظيم الأجر والمثوبة.

وبلغ المسافر غايته وقرأ الكذاب الرسالة فازداد إمعاناً في ضلاله وغروره، ولما لم يكن مسيلمة أكثر من أفَاك دعيَ، فقد تحلى بكل صفات الأفَاكين الأدعياء، وهكذا لم يكن معه من المروءة ولا من الرجولة ما يرده عن سفك دم هذا الشاب الطاهر التقى، الذي هو رسول يحمل رسالة مكتوبة كانت العرب تحترمه وتقدسه.

جمع الكذاب قومه وناداهم إلي يوم من الأيام المشهودة، وجيء بحبيب بن زيد يحمل آثار تعذيب شديد أنزله به المجرمون مؤملين أن يسلبوا إيمان روحه فيبدو أمام الجميع متخاذلاً مستسلماً، مسارعاً إلي الإيمان به حين يدعى إلي هذا الإيمان أمام الناس، وبهذا يحقق الكذاب الفاشل معجزة موهومة أمام المخدوعين به.

قال الكذاب لحبيب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟، قال حبيب: نعم، أشهد أن محمد صلى الله عليه وسلم رسول رب العالمين أرسله هداية للناس، هنا كست صفرة الخزي وجه الداعية الكذاب مسيلمة، وعاد يسأل: وتشهد أني رسول الله؟ فأجاب حبيب في سخرية قاتلة: إني لا أسمع شيئًا مما تقول!!

تحولت صفرة الخزي علي وجه الطاغية المتكبرة إلي سود حاقد مخبول، لقد فشلت خطته، ولم يجده تعذيبه، وتلقى أمام الذين جمعهم ليشهدوا معجزته لطمة قوية أسقطت هيبته الكاذبة في الوحل، ثم هاج الطاغية كالثور المذبوح، ونادي جلاده الذي أقبل يقطع من جسد حبيب بسنَ سيفه، ثم راح يقطع جسده قطعة قطعة، وبُضْعة بُضعة، وعضواً عضواً، وهو يسأله: هل تشهد أني رسول الله، فظل البطل العظيم يردد ويقول: إني لا أسمع شيئًا مما تقول، حتى سقط صريعاً علي الأرض.

عبرة:

يا شباب، لو أن حبيباً أنقذ حياته يومئذ بشيء من المسايرة الظاهرة لمسيلمة، طاوياً علي الإيمان صدره، لما نقص إيمانه شيئًا، ولا أصاب إسلامه سوء.. ولكن الرجل الذي شهد مع أبيه وأمه وأخيه وخالته بيعة العقبة، والذي حمل منذ تلك اللحظات الحاسمة المباركة مسئولية بيعته وإيمانه كاملة غير منقوصة، ما كان له أن يوازن لحظة من نهار بين حياته ومبدئه، ومن ثم لم يكن أمامه

لكي يربح حياته كلها مثل هذه الفرصة الفريدة التي تمثَّلت فيها قصة إيمانه كلها، ثبات وعظمة، وبطولة، وتضحيةً، واستشهاد في سبيل الهدى والحق يكاد يفوق في حلاوته، وفي روعته كل ظفر وكل انتصار!!

يا سادة، ما كان أجدر أن يقلن جنودنا هذه المواقف التي حفظها لنا الرواة عن الرعيل الأول من المسلمين لتكون حافزاً لهم علي التضحية، والفداء والاستبسال في سبيل الدين والعقيدة، وليس هذا بعجيب من المجاهدين اليوم الذين قام أباءهم وأجدادهم بهذه التضحيات، والصور الفدائية الخالدة التي قصصنا عليكم أحدها، وسنقصَ عليكم المزيد منها بأذن الله تعالي.

ليس بدعاً من المرأة التي ارتفع بها الإسلام إلي أبعد غاية من كمال النفس، وسمو الحياة، وعظم المكانة أن تكون العضد الأقوى، والساعد الأشد في نشر آياته، لقد وضح صبح الإسلام فظهرت المرأة في مشرق نوره فياضة النفس بالإيمان؛ والوجدان ملأي اليدين من حق موفور، وفضل مأثور، فقد أدلت دلوها في الفضائل، فكان لها أكبر الأثر في تكوين الرجال، ونشر العلم، كما تركت أجمل الأثر وأبقاه علي مدار الأيام في مجال اللسان والسنان.

وإن دواعي العظمة في الرجال والنساء تتفاوت في مراتبها ودرجاتها كتفاوت الكواكب والنجوم في عليائها، ومن العظماء من لا يستطيع اللسان أن يعبر عن مآثرهم ولا عن جوانب العظمة فيهم إلا علي استحياء يصحبه شعور بالقصور والتقصير.

ولقد ضرب نساء الصحابة رضى الله عنهم أجمعين أمثلة رائعة في الجهاد في سبيل الله تعالي والتضحية من أجل هذا الدين، دفاعاً عن الحق الذي اتبعنه وطمعاً في نيل الشهادة، وإثباتاً للعالم أجمع أن للصحابيات الجليلات دوراً عظيماً في تغيير مجرى التاريخ، والتأثير فيه، ونحن في هذه السطور نعيش مع صحابية جليلة ومجاهدة من عظيمات عصر النبوة الزاهر، وهي أم حبيب بنت العاص - وهي عمة خالد، وعمرو، وأبان بني سعيد بن العاص رضى الله عنهم.

شهدت أم حبيب رضى الله عنها معركة اليرموك، وقد حضت الرجال علي القتال، وكان لها في هذا اليوم الخالد العظيم أعظم البلاء، فإنه لما اشتد هجوم الروم علي ميمنة المسلمون، وانكشف عمرو بن العاص رضى الله عنه هو وأصحابه حتى دخلوا أول المعسكر، وكاد الأمر أن يصبح كارثة علي جيش الإسلامي، فقد يتم تطويق الجيش، هنا قد يعمل الروم علي إبادة الجيش الإسلامي كله بعد تطويقه.

هنا نزلت النساء من علي التل بعَمد يضربن وجوه الرجال، وقادت أم حبيب الناس قائلة: قبح الله رجلاً يفر عن حليلته، وقبَح الله رجلاً يفر عن كريمته، ثم صرخة بأعلى صوتها: يا أصحاب رسول الله أمن الجنة تفرون.

فزحف عمرو وأصحابه حتى عادوا إلي موقفهم، وأخذت رضى الله عنها سيفاً وأخذت تجندل الرجال، فقتلة من الروم خلقاًعظيماً، وأنزل الله نصره علي المؤمنين، فما أعظمها من مسلمة مجاهدة، وشجاعة مقتله، سبقت الملاين من ذكور عصرنا ممنا جبنوا عن نصرة دينهما وإخوانهم.

عبرة:

يا سادة، والله لن تقوم أمة من هزيمتها وهي تحتقر نساءها، فزوجتك التي عودتها علي الذل والهوان لن تنجب لك إلا ذليلاً، وأختك التي تضربها في الغداة والعشى لن تربّي إلا إمعة، وأمك التي لا تحترمها لن تدعو لك إلا بالهزيمة والخذلان، وابنتك التي تمنعها من العلم لن تكون إلا تافهة تضاف إلي التافهات في هذه الأمة، فالله الله في النساء، فهن أساس البناء الصحيح، وهن أساس القيام للأمة.

يا أيتها الأخت الكريمة، لتكن لنسائنا في هذه السيدة قدوة وأسوة حسنة؛ وليعملن علي أن يكن ربات بيوت بكل ما في الكلمة من معنى، وعلي تنشئة أبنائهن علي أخلاق الإسلام الرفيعة، ولْيُعلَمْن أولادهن من الصغر أن للإسلام حقوقاً علي المسلم، وأن الجهاد في سبيل الله غاية الغايات.

المرأة المسلمة في صدر الإسلام لم تكن أقل ثباتاً في دينها من الرجل، ولا أقل تضحية وبذلاً في سبيل عقيدتها وربها، فقد ضربت أروع الأمثلة في هذا المجال، إذ ضحت من أجل إسلامها بكل ما تملك، مستهينة بكل ما يصيبها من أذى متحملة عبء الدعوة؛ وشظف العيش، والموقف التالي يصور لنا موقفاً عظيماً من مواقف الشجاعة والدفاع عن المظلوم، والانتقام من الظالم، قائدته ومؤسسته المرأة الصالحة، والمؤمنة الشجاعة، أم النجباء أم الفضل لبابة بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهم - وهو عم النبي صلى الله عليه وسلم -، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع.

يقول أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنت غلاماً العباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام، فأسلم العباس سراً، وأسلمت أم الفضل، وأسلمتُ، وكان العباس يهاب قومه.

وكان أبو لهب قد تخلف عن غزوة بدر، فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وكذلك كانوا صنعوا، لم يتخلف منهم رجل إلا بعث مكانه رجلاً.

فلما جاء الخبر من مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه، فوجدنا في أنفسنا قوة وعزاً، ثم قال: وكنتُ رجلاً ضعيفاً، أعمل الأقداح أنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس وعندي أم الفضل جالسة، وقد سرّنا ما جاءنا من الخير، إذ أقبل أبو لهب رجليه بشرَ حتى جلس، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث قد قدم.

فقال أبو لهب: هلمّ إليَ، فعندك لعمري الخبر، فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي كيف كان أمر الناس في بدر؟!

فقال أبو سفيان: والله ما هو إلا أن لقينا القوم حتى منحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وايم والله، مع ذلك ما لُمتُ الناس، لقينا رجالاً بيضاً علي خيل بلق بين الناس - يقصد الملائكة التي حاربت في بدر -، والأرض والله لا يقوم لها شيء.

فقال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت: تلك ورب الكعبة الملائكة!!

فيقول: فرفع أبو لهب يده، فضرب بها وجهي ضربة شديدة فثاورته، فاحتملني وضرب بي الأرض، ثم برك عليَ يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلي عمود من عمد الحجرة، فأخذته فضربته به ضربة فلقت في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده.

فيقول أبو رافع: فقام أبو لهب مولياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله تعالي بالعدسة - مرض يشبه الطاعون -، فقتله.

عبرة:

يا أيتها الأخوات الكريمات، هكذا نرى هذه الشجاعة النادرة، والجرأة العجيبة عند هذه المؤمنة التي أرغمت بفعلها أنف هذا الطاغية المتكبرة فمرغته في الوحل، حتى إنه لم يستطع أن يفعل شيئًا سوى أن أطلق لقدميه العنان، فولى هارباً، يشهد علي جبانه التاريخ، ويتذكر المرء وهو يقرأ هذا الموقف ما أنزله رب العالمين سبحانه في شأنه عندما عاند الدعوة المحمدية وصاحبها عليه الصلاة والسلام في أوائل المرحلة المكيّة وقال له: تبًا لك ألهذا جمعتنا، فقال سبحانه وتعالي عنه:

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ٥} (المسد: ١ إلي ٥).
يا أيتها الأخوات، وفي خبر أبي رافع رضى الله عنه ما يفيد أن المؤمن قوى بإيمانه وتوحيده، لا يخشى في الله تعالي لومة لائم، وإن كان ضعيف الجسد.
كما يفيد الخبر أن الملائكة موجودون، وهم من أعظم مخلوقات الله تعالي ينصر الله عز وجل بهم عباده المتقين كما حصل ذلك في بدر وهو الذي جاء في كلام أبي سفيان، وفسره العبد المؤمن أبو رافع رضى الله عنه، وقال سبحانه عن ذلك: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} (الأنفال: ٥٠، ٥١).

ما زلنا نتعايش بقلوبنا في هذا الكتاب مع البستان الذي ينتهي عبيره، ولا تجف أرضه، ولا تنقطع ثماره وأزهاره، إنه بستان الصحابيات الجليلات، مع زهرة من زهرات بستان غرست في حقل الإسلام والإيمان، وسقيت بماء الوحي، فنثرت عبيرها في الآفاق علي مدار الأيام والأعوام، فكانت سيرتها؛ وما زالت تطيب القلوب والأسماع بذكرها، إنها قد ورثت عن أبيها الكثير والكثير من شمائله المرضية، وملكاته النفسية الهائلة، وجمعت لنفسها ما لم تجمعه فتاة في سنها، وقامت بأعمال بطولية نادرة، نعيش في هذا المشهد مع كبرى بنات النبي صلى الله عليه وسلم زينب رضى الله عنها.

عندما سرح الحبيب المصطفي صلى الله عليه وسلم أبا العاص من الأسر بعد غزوة بدر، خرج أبو العاص عائداً إلي مكة فرحاً مسروراً، واستبشر الناس بعودة من كان من الرجال المعدودين مالاً وأمانة وتجارة، وقبل أن يتوجه إلي بيته طاف بالبيت العتيق سبعاً، ثم توجه وهو في شوق شديد إلي زينب رضى الله عنها الزوجة الوفية التي بعثت في فدائه بأعز ما تملك قلادتها الغالية.

تذكر أبو العاص كيف رقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم رقة شديدة لما شاهد القلادة الخاصة بزوجته خديجة بنت خويلد رضى الله عنه، وتذكر أيضاً أنه وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخلي سبيل زينب ويرسلها إلي المدينة المنورة لتكون مع أخواتها، ومع أهل البيت في رعاية أبوية تعوضها عن مرارة الفرقة والبعد فيما مضى من الزمان.

إنه وعد أليم موجع لقلب أبي العاص، إنه سيقوض البيت الزينبي الهانئ الهادئ الذي عجزت عواصف الأحداث من قبل أن تزعزع أركانه، وهو لا يستطيع أن ينكث وعده وإلا لطخ أمانته بالأوحال، تلك الصفة التي اشتهر بها بين قومه، وسما بها عن رجالات قريش.

حقاً إن هذا الموقف لحرج، ولكن أبا العاص سيفي بما وعد وبما عاهد، وها هو ذا قد بلغ داره، ولما وقعت عيناه علي زينب أسرعت إليه ودموع الفرح تغسل وجهها، وسعد أبو العاص بهذا اللقاء بعد الغياب الطويل، ولكن تدفق من أعماقه ووجدانه صوت الوعد الذي قطعه علي نفسه، وها هو ذا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرنُ في أعماقه، فإذا به يقول لزوجه زينب: لقد وعدتُ أباك أن تلحقي به، وسوف أفي بما وعدته، وقد كان كريماً معي.

ويظهر أن زينب رضى الله عنها فوجئت بما نطق به أبو العاص، ونظرت إليه في دهش، وهي لا تكاد تصدق ما تسمع، ولكن أبا العاص أكد لها ذلك، وأفهمها أن الإسلام قد فرق بينهما.

لقد عاهد أبو العاص رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحمل زينب إلي المدينة المنورة فور وصوله مكة، وكان يعلم قسوة ذلك العهد علي قلبه، ولكنه لن ينكث وسينجز ما قطعه علي نفسه.

أمام زينب رضى الله عنها فقد غدت تقاوم مشاعرها، وهي تتجهز للهجرة والخروج إلي مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت العواطف والمشاعر تتصارع في دخلها في تلك اللحظات، ولكن لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعدله شيء، ولا تقف أمامه عواطف الدنيا كلها، وكان لسان حالها يقول: السمع والطاعة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

أسلمت زينب أمرها إلي الله عز وجل، فهو العليم الخبير، بيده مقاليد السموات والأرض، وأخذت تتجهز للحوق بأبيها صلى الله عليه وسلم.

في تلك الساعات المتموجة بالعواطف المتنوعة تظهر مروءة امرأة لم يكن من المتوقع أن تساعد زينب في شيء من أمرها، لأن هذه المرأة قتل أبوها وعمها وأخوها يوم بدر، وما يوم بدر منها ببعيد، ولكن حديث مروءتها وشهامتها يستحق التأريخ، ويستحق الحفظ في الصدور، هذه المرأة النبيلة هي هند بنت عتبة رضى الله عنها، إحدى فرائد نسوة قريش حزماً وعقلاً ورأياً ومكانة.

وعلي الرغم مما كان بين هند وبين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فإن هنداً كانت عاقلة، تنظر إلي الأمور نظرة كريمة ندية، فقد نُمي إليها أن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزمت علي الهجرة إلي المدينة، فذهبت إليها عندما هدأت الأصوات، وسكن الليل، وعرضت عليها أن تقدم المساعدة لتتمكن من الوصول إلي المدينة، وقالت: لزينب يا بنت محمد، بلغني أنك تودين الرحيل واللحوق بأبيك فهل هذا صحيح؟

فأجبت زينب في حذر وتخوف: من أنبأك هذا؟ إنني ما أردت ذلك، فقالت هند في هدوء: أي ابنة العم لا تفعلي ذلك، ولا تكذبيني، فإن كانت لك حاجة في متاع أو ما يرفق بك في سفرك أو مال تتبلغين به إلي أبيك، فإن عندي حاجتك فلا تستحي مني، فإن ما بين الرجال لا يتعداهم إلي النساء، وإن أوْلَى الناس بإسعادك ابنة عمك.

شعرت زينب رضى الله عنها بأن هند بنت عتبة صادقة فيما تقول، وما جاءتها إلا لتقدم المعونة والمشورة والنصح والمال بدافع من المروءة العربية الصرفة، ولكن زينب ظلت حذرة إلي حد ما، واستعانت علي قضاء حاجتها بالكتمان والهدوء، وردت علي هند رداً جميلاً وصرفتها مصحوبة بالثناء والشكر لهذه المروءة الفريدة.

تجهزت زينب رضى الله عنها حتى إذا ما فرغت من جهازها تقدم أخو زوجها كنانة ابن الربيع وحملها علي بعير فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج بها نهاراً يقود بعيرها وهي في هودج لها، وتحدث بذلك الرجال من قريش والنساء كذلك، وأقبل بعضهم بذي طوى - وهو موضع قرب مكة -، وكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود ونافع بن عبد عمرو، فروعها هبار بالرمح وهي في هودجها وكانت حاملاً، فغدت تنزف دماً فما كان من حموها كنانة بن الربيع إلا أن برك ونثر كنانته بيد يديه، وأخذ منها سهماً فوضعه في كبد القوس، وراح يهدد القوم قائلاً:

والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً فرجع الناس عنه وخافوه، وأتى أبو سفيان بن حرب في جلة من قريش فأقبل حتى وقف عليه، وقال له: أيها الرجل، إنك لم تُصب ولم تحسن، خرجت بالمرأة علي رؤوس الناس علانية جهاراً في وضح النهار، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد أبيها بالأمس القريب، فيظن الناس إذ خرجت بابنته علانية أن ذلك ذل أصابنا، وأن ذلك منا وهن وضعف، ارجع اليوم حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس أنّ رددناها، فإذا كان الليل سُلَها سراً وأخرجها خفية وألحقها بأبيها، وإذ ذاك لا يكون علينا ولا عليك حرج.

وراحت زينب رضى الله عنها تنظر إلي الدم الذي ينزف منها في خوف، ورأى كنانة ابن الربيع أن يعود بها إلي مكة استجابة لتوسل أبي سفيان ومن معه، وحفظاً لحياة زينب رضى الله عنها،

ورجع القوم نحو مكة فلقيتهم هند بنت عتبة وهم عائدون، وعلمت ما فعله هبار بن الأسود من عمل شائن مع البضعة النبوية زينب، فتأثرت هند وعيرتهم، وذكرت جبنهم ومهانتهم في الحرب، وتشاجعهم علي ردّ امرأة في سفرها إلي أبيها، فأشدت تذمهم وتهجوهم:

أفي السلم أعيارٌ جفاء وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك

وبينما زينب رضى الله عنها في طريق عودتها إلي مكة ألقت ما في بطنها، وأصابها الضعف والمرضُ، ومكثت بضعة أيام في مكة حتى استرددت بعض قواها، وهدأ صخب مشركي قريش عنها وغوغاء الفجار عن هجرتها، وعندئذ حملها كنانة بن الربيع علي بعيرها، وخرج وهو يسلها سلاً خفياً خشية الطلب ثانية، حتى وصل بها إلي المدينة.

عبرة:

يا أيتها الأخوات الكريمات، في هذا الخبر بيان لما كان يتعرض له الصحابة رضى الله عنهم من الأذى والإرهاب من الكفار، فقد نال ذلك حتى النساء مع أن العرب كانوا يحترمون النساء ويترفعون عن أذيتهن، فلقد تعرضت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك الأذى والإرهاب علي يد أولئك السفهاء الجفاة، وإن كل ما يصب أحد أفراد الأسرة النبوية يُعدُ إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكم تحمَل من الأذى في نفسه وأسرته**!**

ولقد كان أولئك الذين خرجوا لصد زينب رضى الله عنها جبناء في غاية النذالة حيث أظهروا شجاعتهم في صد امرأة لا حول لها ولا قوة، ولقد أجادت هند بنت عتبة في وصفهم حيث شبهتهم بالحمير - في قوله أعيار - في السلم، وبالنساء في الحرب، كما أن لها موقفاً مشكوراً حيث عرضت الخدمة والمال علي زينب لما سمعت بعزمها علي الهجرة.

وهنا موقف شهامة يذكر كنانة بن الربيع حيث تحدى أولئك الجبناء أن يقتربوا منها فتراجعوا بينما أقدم أحدهم علي ترويع امرأة في هودجها.

الجيل الرباني

الإيمان هبةُ الله سبحانه يمنُ بها علي من يشاء من عباده، وقد شاء الله تعالي أن يجعل الخير في أهل المدينة الذين استجابوا لدعوة الإسلام، وتكونت منهم ومن المهاجرين جماعة خيرة نمت نمواً طبيعياً سليماً، علي أساس من التقوى كما تنمو الشجرة الباسقة الطيبة ذات الأصل الثابت والجذر العميق، هذه الجماعة النادرة حفتها العناية الإلهية، وعززتها بالصبر والإيمان لتحقق مشيئة الله بها في الأرض، فكانت خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وكانت من هؤلاء الخالدات في تاريخ الإسلامي الصحابية الجليلة الربيعه بنت النضر رضى الله عنها.

فقد كانت رضى الله عنها إحدى السابقات إلي الإسلام، ومن اللاتي رباهن الإسلام تربية خيرة مباركة، فجادت بالعطاء والخير، فكانت من كرائم الأنصار، تتعلم النساء من سيرتها المعطارة صدق الإيمان، وجلال الصبر والتضحية في سبيل الله الواحد القهار، فقد كان ولاؤها للإيمان يفوق حد الإعجاب، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الجليل لها في غزوة بدر.

لما دعا النبي صلى الله عليه وسلم الناس للخروج إلي بدر، فلما دعاهم إلي ذلك جاء حارثة بن سراقة إلي أمه الربيعه بنت النضر رضى الله عنهما - وهي أخت الصحابي الجليل أنس بن النضر، وعمة الصحابي الجليل أنس بن مالك رضى الله عنهم أجمعين - وكانت عجوز قد كبر سنها، تحبه كأشد ما تحب الأمهات أبناءها، تخاف عليه من نسيم الريح إذا مر به، تخاف عليه من حر الشمس لو وقف فيها ولو شيئًا يسيراً، فلما مثل بين يديها، لو طلب روحها التي بين جنبيها لأعطته إياها، فلما وقف بين يديها قال لها: يا أماه، قالت: ما تريد يا بني؟ قال: يا أماه، إن رسول الله قد دعا الناس للخروج إلي القتال في سبيل الله، وإني خارج معهم، فقالت: يا بني، والله إني ليشتد علي فراقك، يا بني كن عندي ولا تذهب.

فما زال بها يرجوها، ويقبل رأسها ويديها ورجليها حتى أذنت له بالخروج، ثم قالت: يا بني اذهب، فوالله ما أظنني أذوق غمضاً، ولا أتلذذ بطعام ولا شراب حتى ترجع إليّ، ثمَ أُلْبسته ثيابه بيدها، وشدت عليه سلاحه، وقبلت جبينه ثم مضى من بين يديها.

فلما وصل المسلمون إلي بدر عسكروا إلي بئر بدر، فلما عسكروا بدأت فلول الكفار يحضر أولهم ثم اجتمعوا حتى حضر آخرهم، ثم كاد أن يبدأ القتال، فلما تصاف الجيشان عمد حارثة إلي بئر بدر وقد أصابه عطش، فأراد أن يشرب ماءً، فلما وضع يده في البئر وأخرج ماءً يبل به هذا العطش، فإذا بصحابي كان يحرس عند هذا البئر خوفاً من أن يأتي أحد من الكفار فيؤذي المسلمين أو يضع شيئاً يضرهم في البئر، فلما رأى حارثة مقبلاً إلي البئر ظنه واحداً من الكفار، فقال: أعوذ بالله، هذا الكافر يريد أن يفسد علينا الماء، فأخذ سهماً ثم وضعه في كبد القوس وأطلقه علي حارثة، فوقع في نحره، فلما وقع في نحره صاح حارثة.

ثم سقط علي الأرض فصاح بالناس: أغيثوني، ولا يكاد يستطيع الكلام، فلم يسمعه أحد من الناس، ثم حاول أن يخرج هذا السهم فإذا بجسده يتقطع مع السهم، ثم سبح في دمائه، ولا زال يخور حتى مات، فلما مات أقبل إليه ذلك الحارس ينظر خبره، فإذا هو حارثة بن سراقة، فقال لا حول ولا قوة إلا بالله، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما حدث فعفا عنه.

ولما انتهت المعركة ورجعوا إلي المدينة، كان النساء والأطفال والعجائز ينتظرون عند مدخل المدينة، في حر الشمس، وحر هذه الرمضاء، النساء تنتظر أزواجها، والأطفال ينتظرون آبائهم،

والعجائز تنتظر أولادها، وكان بين هؤلاء الجموع التي تنتظر أحبابها وأهليها عجوز ثكلى، كبدها حري تنتظر مقدم ولدها.
فلما دخل المسلمون المدينة بدأ الأطفال يتسابقون إلي آبائهم، والنساء تسرع إلي أزواجها، والعجائز تسرع إلي أولادهن، والربيعه تنتظر إقبال حارثة، أقبلت الجموع تتابع، ولكن لم يحضر حارثة بن سراقة، وأم حارثة تنظر وتنتظر تحت حر هذه الشمس تترقب إقبال فلذة كبدها، وثمرة فؤادها، فقد كانت تعد في غيابه الأيام عداً، بل تعد والله الساعات، وتتلمس عنه الأخبار.
كان الأسى يتضمر في قلبها، ترقبت ولدها، فلم تره بين هذه الجموع، فأمسكت واحداً من الصحابة القادمين ثم قالت له: أتعرف حارثة بن سراقة؟ قال لها: نعم، ما تكونين له؟ قالت: أنا أمه، قال: أنت أم حارثة؟ قالت: نعم، قال: احتسبي ولدك لقد قتل، فلما سمعت قتل، فقالت: الحمد لله فهو من الشهداء، فقال لها: شهيد، ما أظنه شهيد، قالت: لم؟ ما قتله الكفار؟ قال: لا، قالت: ما قتل وهو يقاتل؟ قال: لا، قالت: ما قتل وهو يرفع راية الإسلام، ويزود عن حماه؟! قال لها: لا، قالت: فكيف قتل إذاً؟ قال: إن ولدك حارثة قد قتل قبل أن تبدأ المعركة أصلاً، والذي قتله رجل من المسلمين، إن ولدك حارثة لم يحضر شيئًا من القتال.
فلما سمعت ذلك قالت له: فأين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو ذاك مقبل بين الناس، فتحركت أم حارثة تجر خطاها إلي النبي صلى الله عليه وسلم ودموعها تجرى علي خديها، وليس الذي يجري من العين، ماؤها ولكنها نفس تسيل فتقطر، ثم لما وقفت بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، نظر إليها صلى الله عليه وسلم، إلي هذه العجوز الثكلى التي لم تجد آملاً ولا أحداً يتكلم معها أو يصبرها علي مصيبتها، فنظر إليها وقال: ما تريدين يا أم حارثة؟ قالت: يا رسول الله، قد علمت بحبي لحارثة، وعلم الناس جميعاً بحبي لحارثة، يا رسول الله قد بلغني أن حارثة قد قتل، يا رسول الله أخبرني أين حارثة الساعة؟ الآن أخبرني أين ولدي؟ إن كان في الجنة صبرت، وإن كانت الأخرى فليرين الله تعالي ما أصنع - تعني من النياحة والبكاء، ولم تكن حرمت بعد -.
فنظر الرحيم الشفيق إليها، فإذا هي عجوز قد هدها الهرم والكبر، وأضناها التعب وقل الصبر قد شوقها إلي ولدها، تتمنى لو أنه بين يديها تضمه ضمة، وتشمه شمة قبل أن يأتيها موتها ولو كلفها ذلك حياتها، فاضطربت القدمان، وانعقد اللسان، وجرت بالدموع العينان، كبر سنها ورق عظمها، واحتبس صوتها في حلقها، وقد رفعت بصرها تنتظر ماذا يجيبها الذي لا ينطق عن الهوى، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلها وانكسارها وفجيعتها بولدها، التفت إليها ثم قال: ويحك يا أم حارثة أهبلت؟! أوجنة واحدة، إنها جنان، وإن حارثة قد أصاب الفردوس الأعلى.
إنه الفردوس الأعلى سقفه عرش الرحمن، كل جنة فوقها جنة، الفردوس سقفه عرش الرحمن جل جلاله.
فلما سمعت العجوز الحرى هذا الجواب جف دمعها، وعاد صوابها، وقالت يا رسول الله: حارثة في الفردوس الأعلى، قال: نعم، فقالت الله أكبر؟
ثم رجعت الأم الجريحة إلي بيتها، رجعت تنتظر أن ينزل بها الموت ليجمعها مع ولدها في الجنة، لم تطلب غنيمة ولا مالاً، ولم تلتمس شهرة ولا حالاً، وإنما رضيت بالجنة، ما دام أنه في الجنة يأكل من ثمارها الطاهرة، تحت أشجارها الوافرة، مع قوم وجوههم ناضرة، وعيونهم إلي ربهم ناظرة، فهي راضية، ولماذا لا يكون جزاؤهم كذلك، وهم طالما يبست بالصيام حانجرهم، وغرقت

بالدموع محاجرهم، طالما غضوا أبصارهم عن الحرام، واشتغلوا بخدمة العزيز العلام، فهم في روضة ربهم، وفي جنات ربهم يتنعمون.
عبرة:
يا أيتها الأخوات الكريمات، إن هؤلاء الخالدات من هذا الجيل الفريد هن اللواتي انبلج عنهن فجر الإسلام، وسمت بهن عظمته، وصدعت بقوتهن قوته، وعنهن ذاعت مكارمه، ورسخت قوائمه، وإذا قلبت صفحات تاريخنا الإسلامي، فلا تكاد تقف علي عظيم ممن ذلت لهم نواصي الأمم، ودانت لهم الممالك، وطبق ذكرهم في الخافقين إلا وهو ينزع بعرقه وخلقه إلي أم عظيمة، وكيف لا يكون ذلك والأم المسلمة قد اجتمع لها من وسائل التربية ما لم يجتمع لأخرى ممن سواها، مما جعلها أعرف خلق الله بتكوين الرجال، والتأثير فيهم، والنفاذ إلي قلوبهم، وتثبيت دعائم الخلق العظيم بين جوانحهم، وفي مسارب دمائهم.
في علي المرأة المسلمة أن تقبل علي هذا البستان اليانع من حياة الصحابيات لتجمع ما تشتهي من الرحيق والزهر والثمر، وتنزل هذا النهر العذب لتلتقط الجواهر واللآلئ والدرر من حياة الخالدات من نساء الصحابة، فتقف طويلاً في هذا المحراب المهيب لتستلهم الدروس والعظات والعبر، فقد آن الأوان أن ترنو ببصرها وتتعلق بروحها وقلبها بهذه النماذج الفريدة من البشر، فالأُمة الآن في حاجة شديدة إلي صانعة الأجيال، ومُربية الرجال، لتستعيد مكانتها التي أرادها لها ربها جل وعلا.
(من أراد الاستزادة فليرجع إلي كتبنا روائع من حياة الصحابيات).

فهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه من خلال معايشته للقرآن الكريم، ومصاحبته للنبي الأمين صلى الله عليه وسلم، ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا دار اختبار وابتلاء، وعليه فإنها مزرعة للآخرة، ولذلك تحرّر من سيطرة الدنيا بزخارفها، وزينتها، وبريقها وخضع وانقاد وأسلم نفسه لربه ظاهراً وباطناً، وكان وصل إلي حقائق استقرت في قلبه ساعدته علي الزهد في هذه الدنيا ومن هذه الحقائق هذا المشهد الخالد مع رسول عتبة بن فرقد رضى الله عنهما فتعالوا بنا لنتعرف علي هذا المشهد.

ذات يوم جاء إلي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه هدية من أذربيجان، وهي طعام نفيس، جاء به رسول بعثه والي أذربيجان عتبة بن فرقد رضى الله عنه، فلما دخل هذا الرسول المدينة في منتصف الليل كره أن يوقظ أمير المؤمنين، فتوجه إلى مسجد الرسول صلي لله عليه وسلم، وفي المسجد سمع صوت رجل يصلي ويبكي ويناجي ربه، ومما سمع من كلام هذا الرجل: ربي هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيَها؟ فقال هذا الرسول: من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا عمر بن الخطاب، قال: يا سبحان الله ألا تنام الليل يا أمير المؤمنين؟!

فيجيبه هذا الخليفة العظيم: أنا إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي.

وهذا معنى قول خليفة رسول الله الصديق: إن لله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار، و إن لله حقاً بالنهار لا يقبله بالليل.

أي في النهار لا تقبل أعمال الليل، وفي الليل لا تقبل أعمال النهار، أرأيتم إلى هذا التوازن؟ التوازن بين عملين، بين الإحسان للخلق، والاتصال بالحق، وأكثر الناس يختل عندهم هذا الميزان، فإما أن ينكبوا على الأعمال الصالحة، وينسون عباداتهم وأذكارهم واتصالهم بربهم، وإما أن ينكبوا على عباداتهم، ولا يفعلون شيئًا من الأعمال الصالحة، لذلك هذا التوازن، رهبان في الليل، فرسان في النهار.

فلما أذن الفجر صلى أمير المؤمنين بالناس، ودعا ضيفه إلى البيت، وقال لامرأته: ماذا عندك من الطعام؟، قالت: ملح وخبز يا أمير المؤمنين.

سبحان الله كان فقراء المسلمين يأكلون اللحم، أما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان طعامه الخبز والملح.

وبعد أن أطعم ضيفه، وقد ندم الضيف أشدّ الندم على أنه اختار طعام الأمير، وقدما الرجل ما جاء به لأمير المؤمنين، فقال: ما هذا؟، قال: حلوى يصنعها أهل أذربيجان يا أمير المؤمنين، وقد أرسلني بها إليك الأمير عُتبة بن فرقد، فذاقها عمر فوجد لها مذاقاً شهياً، فسأل الرسول: أوكل المسلمين هناك يطعمون هذا؟، قال الرجل: لا، وإنما هو طعام الخاصة، فأعاد عمر إغلاق الوعاء جيداً، وقال للرجل: أين بعيرك؟ خذ حملك هذا وارجع به لعتبة، وقل له: عمر يقول لك: اتق الله واشبع مما يشبع منه المسلمون.

عبرة:

يا شباب، سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليس لها مثيل في التاريخ الإسلامي، فكان هذا الصحابي الجليل له ورع لا حدود له، يحاسب نفسه حساباً عسيراً، ويشعر أنه كلما كان منزهاً عن

أي شبهة، كلما كان أقرب إلى الله سبحانه وتعالى.
فقد كان هذا الخليفة العظيم يقول دائماً: كيف يعنيني شأن الناس إذا لم يصبني ما يصيبهم؟ إذا أكل مما يأكلون، وشرب مما يشربون، وتحمل ما يتحملون، وعانى ما يعانون، عندئذٍ يعنيه شأن الناس.
يا أيها القارئ الكريم، من حسن حظ البشرية أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه واحد منها، لتعلم أنها تنطوي علي إمكانات الكمال الذي تصبو إليه وتريده، وأنه ليس عليها إلا أن تجلو مواهبها، وتصقُل مزاياها ومراياها، فإذا هي تخرج الخبء، وتعطي الثمار، وتنجب العظمة والكمال البشري.
إن بساطة وتواضع عمر يا أخوة تكشف الحماقة الكبرى التي يخوض فيها كل من يأخذه الزهو والصلف بمنصب يناله، أو نصر يبلغه، أو ثروة يجمعها، فما الصلف والتكلف إلا عبء ثقيل يحمله المخدوعون به، ويصطلون بعذابه وهم لا يشعرون، أما البساطة الصادقة التي عاشها عمر، فتلك هي السعادة حقًا، السعادة التي يتمثل فيها رجوع النفس إلي جوهرها، وتفوقها علي كل خلابة وغرور.

ظفرت كثير من نساء حضارتنا بشهرة واسعة كانت سمة بارزة في حياتهن وبعد موتهن، منهم كانت عفراء بنت عبيد الأنصارية رضى الله عنها، وعفراء امرأة صنعها الإسلام، وصاغها صياغة بوأتها مكانة سامية بين المسلمين والمسلمات، وخلدت ذكراها علي مر العصور، فهي رضى الله عنها أمُ الشهداء، ومعدن الأبطال، ومدرسة تخرج فيها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فجاهدوا في الله حق جهاده، وضربوا في البطولة أروع الأمثال.
لقد أسلمت وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم علي السمع والطاعة، وأخلصت لله في القول والعمل، وهبت أولادها للجهاد في سبيل الله، فكان منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر.
ولقد أنجبت من زوجها الحارث بن رفاعة ثلاثة أبناء هم: عوف، ومعاذ، ومعوذ، وهم من الأنصار.
أما عوف فقد كان أحد الستة الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي الإسلام في منى، وكان أحد اثني عشر رجلاً بايعوه بيعة العقبة الأولى، وكان معه في هذه البيعة شقيقه معاذ، ثم كانوا جميعاً مع الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الثانية، وكان عدد من بايع يومئذ ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين.
وكانت قد تزوجت عفراء رضى الله عنها بعد الحارث رجلاً من مكة هو البكير ابن عبد ياليل الليثي، فولدت له أربعة بنين أيضاً، وهم عاقل، وخالد، وإياس، وعامر وهم من المهاجرين، وهؤلاء الأربعة هم أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم رضى الله عنه.
وقد شهد أولادها جميعاً غزوة بدر، فاستشهد يومئذ عوف ومعوذ وعاقل، واستشهد خالد يوم الرجيع، واستشهد عامر يوم مأساة بئر معونة، وإياس يوم سهل عقرباء - اليمامة -، ومعاذ في صفين، فقد دفعتهم جميعاً إلي ساحات القتال، واحتسبتهم عند الله عز وجل، وأسهمت معهم في هذه الميادين بجهد مشكور، فكانت تقوم بخدمة المجاهدين بكل ما وسعها من جهد، شأنها في ذلك شأن مثيلاتها من المؤمنات اللاتي خلد التاريخ ذكراهن في أنصع صفحاته.
لقد مضى سائر أولادها يجاهدون في سبيل الله حتى لقي كل منهم ربه راضياً مع الشهداء الأبرار، وكانت هي أم الشهداء السبعة تسعد بهم أحياءً وأمواتاً، إذا قدمتهم جميعاً قرباناً لله عز وجل، فدفعت بهم وهي معهم إلي ساحات الوغى، فكلما سقط واحد منهم فرحت باستشهاده فرحاً مشوباً بالحزن علي فراقه، شأنها في الحزن شأن الأمهات، بوصفهن ينبوع الحنان والرحمة، وشأنها في الفرح شأن العارفين بالله، الذين يدخرون للدار الآخرة كل ما ملكوه وما عملوه، وما كانوا سبباً في نتاجه أو إنجابه ابتغاء مرضاة الله عز وجل.
عبرة:
يا أيتها الأخوات الكريمات إننا نتعلم من هذه الأم المؤمنة الصابرة، كيف نغرس في نفوس أبنائنا حب الجهاد والتضحية، والجود والكرم، والبذل والشجاعة والإقدام، حتى يخرج الأبناء للحياة، وهم أصحاب همة عالية، وفكر راق، وعزيمة قوية، فالله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها، وأولادنا أمانة في أعناقنا، فلينظر كل منا ماذا يغرس في عقل ولده وقلبه، فهو ما سيجنيه في حياته وبعد مماته.

ولنعلم أن الأم مدرسة لأبنائها، يتلقون منها العلم بأمور الدين والدنيا في مقتبل حياتهم، ويقتدون بها في عاداتهم وعباداتهم وأقوالهم وأفعالهم، وطريقة تفكيرهم، فالمرأة المؤمنة تخرج للأمة رجالاً يبنون كما كانت أوائلهم تبني، ويفعلون من المكارم مثل الذي فعلوا، فهي برجاحة عقلها، وسلامة فطرتها، وكثرة تجاربها، وخبرتها في الحياة، تستطيع أن تنشئ جيلاً قوياً ناهضاً، يقوم بواجباته علي أتم وجه وأكمله.

ترى كيف قضى عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذا الرجل العظيم تلك السنوات العشر، والأشهر الستة، والأيام الأربعة التي قضاها علي رأس الدولة الإسلامية أميراً للمؤمنين؟! ترى كيف قضاها، وأمضاها، وعاناها تحت ضغط هذا الإحساس الراجف، والقلب الواجف من خشية الله العلي الأعلى؟!

هل سمع الناس في طول دنياهم وعرضها، بحاكم استحالت كل آبهة السلطان وبذخه أمام ناظريه إلي جمر ملتهب يتوقاه أكثر ما يكون التوقي، ويحاول الفرار منه لو يجد للفرار سبيلاً؟!

حاكم ذلل كل سلطانه لخشية الله عز وجل، ووفر للناس من الطمأنينة والأمن قدر ما خاف هو من الله!!

حاكم لم تنل من سكينة نفسه مهام الأمور وأخطارها، ولا عقد ألوية الجيوش الفاتحة وأخبارها، ومع هذا فقد كان يزلزله زلزالاً شديداً من آهة مظلوم، أو نفثة مكروب، أو همهمة حق ضائع. فتروى لنا كتب السير عنه هذا الموقف.

ذات يوم وهو جالس مع أصحابه اقتحم المجلس رجل مكروب تغشاه وعثاء السفر، وإذا يقترب الرجل من الناس ويراهم يقولون لأحدهم: يا أمير المؤمنين، يتجه الرجل صوب هذا الأمير الذي تخضع له الدنيا، وتدك جيوشه الظافر أعظم إمبراطورتين في التاريخ.

فيقول له الرجل في مرارة: أأنت عمر؟! ويل لك من الله يا عمر!! ثم يمضى الرجل لسبيله غير وان ولا مكترث لما قاله لأمير المؤمنين.

فيلحق بعض الحاضرين بالرجل في غيظ منه؛ وحنق عليه، لكن أمير المؤمنين يناديهم ويأمرهم أن يعودوا لمجلسهم، ويهرول هو وراء الرجل وفؤاده يرتجف خوفاً لم قاله الرجل!!

ألم يقل له الرجل: ويل لك من الله يا عمر؟ إنها الطامة الكبرى إذاً لأي إنسان، وإنه الهول الذي لا يطيق رجل كعمر عليها صبراً!!

فيدرك الرجل ثم يعود به إلي المسجد ويسأله: ويلي من الله، لماذا يا أخا الإسلام؟!

فيجيبه الرجل: في غضب، لأن عمالك وولاتك لا يعدلون، بل يظلمون الناس يا عمر، ويسأل عمر الرجل: أي من عمالي تعني يا أخا الإسلام؟، يقول الرجل: عاملك في مصر عياض بن غنم، ولا يكاد عمر يسمع تفاصيل الشكوى حتى يختار من أصحابه رجلين ويقول لهما: اركبا إلي مصر، وآتياني بعياض بن غنم.

عبرة:

أيها القارئ الكريم، أحياناً الإنسان يفعل مثلَ هذا، يفعل هذا استعراضاً، يفعل هذا تمثيلاً، يفعل هذا لينتزع إعجاب الناس، لكن هذا الخليفة العظيم حينما فعل هذه الموقف المتواضعة كان يحرص فيها على طاعة الله عزَّ وجل، وعلى خدمة الخلق، فقد كان رضى الله عنه يرى أنه مسئول عن ما يصيب الإنسان، أو الحيوان داخل الدولة الإسلامية.

أيها الأخوة، إذا أنت لم تشعر أنك واحد من الناس، ولا حق لك أن تستعلي عليهم، ولا أن تستذلهم، ولا أن تأخذ منهم ما ليس لك، ولا أن تستخدمهم، إن لم تنطلق هذا المنطلق ففي الإيمان والله ضعف، لا أقول: ليس فيك إيمان، ولكن في إيمانك ضعف، عندما يكون الإنسان حراً، فإنه ينطلق

في تعامله مع الناس من منطلق واقعي، منطلق إنساني، منطلق فيه عدل، وفيه إنصاف، وفيه حقوق، وفيه واجبات، والحياة أخذ وعطاء.

يا أيها القارئ الكريم، تتفاوت درجات الناس في الثبات أمام المثيرات، فمنهم من تستحقه التافه فيستحمق علي عجل، ومنهم من تستفزه الشدائد فيبقي علي وقعها الأليم محتفظاً برجاحة فكره وسجاحة خلقه، ومع أن الطباع في النفس دخلاً كبيراً في أنصبة الناس من الحدة والهدوء، والعجلة والأناة، والكدر والنقاء، إلا أن هناك ارتباطاً مؤكداً بين ثقة المرء وبين أناته مع الآخرين، وتجاوزه عن خطئهم، فالرجل العظيم حقاً كلما حلق في آفاق الكمال اتسع صدره، وامتد حلمه، وعذر الناس من أنفسهم، والتمس المبررات لأغلاطهم فإذا عدا عليه غرُ يريد تجريحه، نظر إليه من قمته كما ينظر الفيلسوف إلي صبيان يعبثون في الطريق وقد يرمونه بالأحجار.

وقد رأينا الغضب يشتط بأصحابه إلي حد الجنون، عندما تقتحم عليهم نفوسهم، ويرون أنهم حقَروا تحقيراً لا يعالجه إلا سفك الدم، أفلو كان الشخص يعيش وراء أسوار عالية من فضائله يحس بوخز الألم علي هذا النحو الشديد، كلا إن الإهانات تسقط علي قاذفها قبل أن تصل إلي مرماها البعيد.

تواصلت الابتلاءات والمحن علي الصحابة رضى الله عنهم، فقد قرر الطواغيت أن يعلنوا الحصار علي المسلمين، وتعذيب كل من تسول له نفسه الدخول إلي دين الحق، فاشتد المشركين علي الفئة المؤمنين كأشد ما كانوا، حتى بلغ المسلمون الجهد واشتد عليهم الكرب والبلاء، فقام النبي صلى الله عليه وسلم حرصًا منه علي أصحابه، ومحافظة علي الفئة المؤمنة المستضعفة قليلة العدد، بأن أمرهم بالهجرة إلي الحبشة لأن حاكمها ملك عادك لا يظلم عنده أحد، فهاجر ثمانون رجلاً فراراً بدينهم، وبرغم ترك المسلمين مكة إلا أن طواغيت الشرك قرروا ضرب المسلمين في الحبشة أيضاً.
فلما بلغ قريش هجرة الصحابة رضوان ربي عليهم أرسلوا عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد خلفهم، فقدما علي النجاشي وقدّما له هدية كانوا جمعوها، وقال عمرو بن العاص للنجاشي: إن ناساً من أرضنا رغبوا عن ديننا، وهم في أرضك، فقال لهم النجاشي: في أرضي؟ فقالا: نعم، فبعث النجاشي إلي المسلمين.
فقال جعفر بن أبي طالب: لا يتكلم منكم أحد، أنا خطيبكم اليوم، فلما جاء الوفد الإسلامي إلي النجاشي وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره، والرهبان جلوس سماطين، فلما دخل الوفد الإسلامي ألقوا عليهم تحية الإسلام: السلام عليكم.
فقال عمرو: إنهم لا يسجدون لك. فقال الرهبان: اسجدوا للملك. فقال جعفر: نحن قوم لا نسجد إلا لله عز وجل. يقول جعفر: فلما انتهينا إلي النجاشي قال: ما منعك أن تسجد لي؟ فقال جعفر: نحن قوم لا نسجد إلا لله عز وجل. قال النجاشي: وما ذاك الدين؟ قال جعفر: إن الله بعث فينا رسولاً، وهو الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم عليه السلام من بعده، اسمه أحمد، فأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهانا عن المنكر، فأعجب النجاشي بهذا الكلام.
فلما رأى ذلك عمرو بن العاص قال: أصلح الله الملك، إنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم. فقال النجاشي لجعفر: ما يقول صاحبكم في ابن مريم؟ فقال جعفر: يقول رسول الله فيه قول رب العزة عز وجل: هو روح الله وكلمته، أخرجه من العذراء البتول التي لم يقربها بشر، ولم يقرضها ولد.
فتناول النجاشي عوداً من الأرض فرفعه، ثم قال: يا معشر القسيسين والرهبان، ما يزيدون هؤلاء علي ما نقول في ابن مريم ولا وزن هذه، ثم قال: مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، فأنا أشهد أنه رسول الله، وأنه هو الذي بشر به عيسى عليه السلام، ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أقبل نعليه، امكثوا في أرضي ما شئتم، وأمر للمسلمين بطعام وكسوة.
عبرة:
ياشباب، هذا موقف عظيم من مواقف الاعتزاز بالإسلام، والمحافظة علي سلامة التوحيد، مع رهبة الموقف الذي كانوا فيه، حيث إن الأمر يتطلب في حياة الناس المعتادة أن يسلك جعفر وأصحابه رضوان ربي عليهم طريق المداراة، ولو أدى ذلك إلي المداهنة، ولكن المؤمنين حقاً لا يفعلون ذلك بل يمثلون الحق الذي أمرهم به دينهم مهما حصل لهم من أذى، وكذلك فعل المؤمنون في الحبشة رضى الله عنهم، وقد سخر الله تعالي قلب النجاشي فكان نعم النصير والحامي لهم، وكان لهذا الموقف الشجاع من جعفر رضى الله عنه الأثر الكبير في قناعة النجاشي بالإسلام.

يا أيها القارئ الكريم، حياة الإنسان هي مجموعة مواقف، قد تقول: أنا في حياتي عملت كذا، وتعففت عن كذا، وعاونت فلاناً، وبذلت، وضحيت، معنى ذلك أن الإنسان حجمه عند الله من حجم مواقفه، والإنسان له مع الله أيام، ولله معه أيام، وأيام الله عز وجل هي الأيام المباركة التي أكرم الله بها عباده، أو أكرم بها عبداً معيناً، فربما وقعت مرة في ضائقة شديدة، فقلت: يا رب، فرأيت أن الأمور انفرجت، هذا يومٌ من أيـام الله، أو عانيت من مرض عضال، فدعوت الله مخلصاً فشفاك الله بقدرةٍ منه، فهذا يومٌ من أيام الله، أو وقعت في أشدِّ حالات الفقر، فسألت الله عز وجل بإخلاصٍ وصدق فأغناك الله، فهذا يومٌ من أيام الله.
{فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}